أرى .. أسمع .. وأتكلم

رولا خرسا

الدار المصرية اللبنانية

أرى أسمع وأتكلم

بيانات الفهرسة أثناء النشر
(الإدارة المركزية لدار الكتب)
خرسا، رولا
أرى ، أسمع، واتكلم/ رولا خرسا :
. ـ ط 1 . ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2007
247 ص ؛ 20 سم .
تدمك 977-427-144-
1ـ المقالات العربية
أ ـ العنوان 41

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت ـ تليفون: 23910250
فاكس: 23909618 ـ ص.ب 2022 ـ القاهرة
e-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com
تجهيزات فنية: الإسراء ـ تليفون: 33143632
طبع: آمون ـ تليفون: 27944517 ـ 27944356
رقم الإيداع: 13359 / 2007

الطبعة الأولى: رجب 1428هـ ـ أغسطس 2007 م .



أرى.. أسمع.. وأتكلم

رولا خرسا

الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلى أمي:

أكثر من أحبني دون شروط

رولا

مقـــدمـة

فى البدء كانت الكلمة، والكلمة مسئولية، وعلى رأى عبد الرحمن الشرقاوي، الكاتب الكبير، بعض الكلمات نور، وبعض الكلمات قبور، والكلمة تعنى البحث والإفصاح، ومن يكتب إنما يفعل بحثًا عن حقيقة ما، عن اكتشاف ما، لذلك فلا يجب أبدًا أن نؤمن أن ما نقوله كله صادقًا، لأننا لا يمكن ـ على رأى جبران خليل جبران ـ أن نقول "وجدت الحقيقة"، بل نقول "وجدت بعض الحقيقة"، والكتابة متعة ومشاركة وفتح لأبواب مغلقة، بدلاً من الاكتفاء بالعيش داخل النفس مسجونين فيها، لا نجد من يفهمنا أو يستمع إلينا، فى زمن صُمَّتْ فيه الآذان لعلو الأصوات كلها، وصراخها فى ضوضاء وهمجية وفوضى، فى زمن لم يعد فيه للجمال الخارجى الحقيقى مساحات واسعة، بل ضاقت تلك المساحات حتى أصبح الأمر يتطلب منَّا عملية بحث دقيقة، فى زمن أصبح فيه الخل الوفى كالعنقاء من عجائب الدنيا ومستحيلاتها، فى زمن صعب كهذا، لابد أن نبحث داخلنا عن الراحة والسعادة، ولا سبيل للبحث فى مكان آخر، وعندما يخرج ما بداخلك بصدق وعفوية لابد أن يشعر المتلقى بأنه يعرفك منذ زمن بعيد، وبأنك أصبحت الصديق.

كتابى هذا هو الأول، رغم أننى أكتب منذ أن تعلمت إمساك القلم، جمعت فيه مقالاتي، بناء على نصيحة صديق شاعر، أشكره على النصيحة والتشجيع، ووجدت الفكرة صدى وتشجيعًا عند زوجي، وهو من أستشيره دومًا فى تفاصيل حياتى الصغيرة والكبيرة، فتوكلت على الله، وقد نشرت فى جريدة "المصري اليوم"، واحدة من أكثر الصحف احترامًا وحرفية وموضوعية فى وقتنا الحالي.

والمقالات كما ستلاحظون متنوعة، بعضها كان تعليقًا على كارثة أو حادث، وبعضها انطباعات شخصية، قسمتها بشكل يميِّز بينها، ولا أنسى قبل أن أختم هذه المقدمة القصيرة، أن أحكى حكاية اسمحوا لى بها: عندما كنت فى السنة الثالثة من المرحلة الإعدادية، كانت مدرسة اللغة العربية سيدة رقيقة تدعى "مى"، كانت حفيدة أحد الشيوخ المشاهير، لست أذكر إن كان محمد عبده أو رفاعة الطهطاوي، إلاَّ أنها دعتنى يومًا إلى منزلها، وأرتنى صورة جدها الكبيرة المعلقة فى صدر الغرفة، "مدام مى" كما كنت أسميها، كانت مؤمنة بشكل كبير أننى فى يوم من الأيام سأتميَّز فى مجال الإعلام والكتابة، لدرجة أنها يومًا وأمام الفصل كله قالت لي: أرجو أن يكون كتابك الأول مهدى لي، ومرت السنوات، وفى كل مرة أفكر فى الكتابة أتذكرها، حان الوقت كى أشكرها، وأعترف أن كلماتها هذه كانت دافعًا كبيرًا، وأعطتنى ثقة كبيرة، وأرتنى طريقًا ربما لولاها، لما كنت اكتشفته أو فكرت فيه، فشكرًا لها، وشكرًا للعناصر النسائية الأخرى التى تحرك حياتي: صديقة عمري، وأختي، ولو سمح لى بإضافة فهو عرفان

لأبى الذى أوجد المكتبة كحجرة أساسية فى المنزل، وزوجى الذى عرف دومًا أن عملى هو مفتاح شخصيتي.

أشعر وكأننى فى حفل توزيع جوائز الأوسكار السينمائية، وأنا أكتب ما أكتب، كل ما أرجوه أن يحوز الكتاب على إعجاب القراء، وأملى فى ذلك كبير، فقد عملت بما قاله مثلى الأعلى فى الحياة "عمر بن الخطاب" (رضى الله عنه)، والذى قال: "الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان". أرجو أن تستقر كلماتى فى قلوبكم، وكتابى فى مكتباتكم.

رولا خرسا

القاهرة ـ يناير 2007



1

شئون مصرية

الكلمة حصن الحرية

إن الكلمة مسئولية

إن الرجل هو الكلمة

شرف الرجل الكلمة

عبد الرحمن الشرقاوى



الغلابـــة والمـــوت

لماذا تصيب الكوارث دائمًا الغلابة؟ لماذا يدفع الفقراء وحدهم الثمن؟ إذا ما تابعنا النشرات والأخبار سنجد المجاعات تضرب البلاد الفقيرة.. والكوارث الطبيعية والزلازل.. أحيانًا.. أما الحروب فدائمًا من نصيب البلاد الفقيرة.. تتعارك القبائل الإفريقية وتشهد بلادها انقلابات متكررة.. وكأنهم ينتقمون من الحكام والدنيا بسبب الفقر.. أما فى مصر فتحضرنى كارثتان شهدتهما بنفسي.. كارثة قطار الصعيد، وتفجيرات شرم الشيخ الأخيرة.. قطار الصعيد أصاب ركاب الدرجة الثالثة، وهى بالمناسبة مقارنة بالقطارات الأوروبية أو اليابانية درجة خامسة وعشرين، مع قليل من التفاؤل.

ولو كانت فى تلك البلاد، لوضعوها منذ زمن فى متاحف ليشاهد الزائرون كيف كانت القطارات زمان، وبقليل من الخيال سيضعون تماثيل فوقها وحولها تفعل مثلما يفعل الركاب هنا، وسيضعون تحتها تعبير **"صدق أو لاتصدق: هكذا يركب الناس القطارات فى مصر"**.

قطار الصعيد فى كارثته الشهيرة، التى تعود إلى ثلاثة أعوام مضت، حسبما أذكر، حدثت يوم وقفة العيد، كان القطار مكتظًا بالركاب الكادحين، الذين يعملون فى القاهرة فى أعمال يومية، مثل

العمال الفواعلية، أو المهنيين أو السائقين، الذين يتركون قراهم ومحافظاتهم، بحثًا عن لقمة العيش وتبتلعهم المدينة بإيقاعها السريع، ويعملون ويعملون وهم يحلمون بيوم الإجازة الأسبوعي، أوبعيد يعيدهم إلى منازلهم، حيث يحصلون على لقمة هنية وخدمة نظيفة، وابتسامة حانية من الوالدة أو الزوجة، التى تقتات طوال الأسبوع على القليل مدخرة "حتة الزفر" سواء كانت لحمة أو فراخ للزوج الغائب، وهذا يكون فى المناسبات الخاصة بطة، أو إوزة تم تزغيطها حسب الأصول، حتى سمنت فأصبح ذبحها مطلوبًا ومحتفى به، ركاب قطار الصعيد كانوا كثيرين واتشحت قراهم بالسواد وقتها، وبدلاً من العيد نُصِبَتْ سرادقات العزاء.

وفى تفجيرات شرم الشيخ، المصاب الأكبر كان من نصيب العاملين البسطاء فى وسط سوق شرم الشيخ القديم، وفى موقف السيارات، وفى مدخل الفندق: عمال نظافة وسائقون وعمال يقضون سهرة الجمعة مع أصحابهم، للتخفيف من مشقة حرارة النهار، الذى يلون جلودهم بسبب ساعات العمل الطويلة، تحت شمس يوليو الحارقة.

أستطيع أن أتخيَّل بعد هذه التفجيرات، ما حدث فى فندق غزالة المعروف بأن معظم روَّاده من المصريين.. دخلت السيارة المفخخة وعلى الباب عامل أمن بسيط، اعتقد أن ذهابه إلى شرم الشيخ سيفتح أمامه أبواب رزق عديدة.. ودخلت العربة لتصيبه وتصيب عمال النظافة، وموظفى الاستقبال، والجارسونات الذين وراء

كل منهم حكاية وحلم، والموت على أهل الغنى والفقير مصيبة.. إلاَّ أن الموت عند الفقراء أحيانًا لا يعنى فقط الاشتياق والفراق، بل يعنى فقد العائل والسند.

ذهبت إلى الأنقاض، والتقيت برجال الدفاع المدني.. ووجدت أحدهم يمسك قطعة متفحمة ويضعها فى كيس شفاف، مثل الذى نضع فيه مشترواتنا، وسألته: ماهذا؟ فأجابني: قطعة آدمية متفحمة نأخذها لإجراء تحليل الحامض النووى للتعرف على صاحبها.

تخيلوا.. منذ أيام قليلة كانت قطعة الفحم هذه شخصًا آدميًا!! يحب ويكره ويسعى.. يعود لمنزله فى نهاية يوم طويل.. يقبل والدته وأولاده.. يحلم بأن يراهم أحسن الناس، وربما كانت لشاب فى مقتبل العمر يعمل ساعات إضافية لزيادة الدخل، وبانتظاره خطيبته تحلم بعش زوجية سعيد.. أو حتى ربما كانت لرجل عجوز يعانى من متاعب الشيخوخة، إلاَّ أنه يحلم بالشفاء ويطلب فى صلاته من ربه عمرًا مديدًا وصحة من حديد. صحيح أن الأعمار بيد الله، ولكل أجل كتاب، ولكن أعود من حيث بدأت: لماذا تتحالف الدنيا ضدهم؟ ويغتال أحلام ذويهم الموت؟

أحب أن أنظر إلى الأمر هنا من نقطة إيمانية بحتة، مفادها باختصار: أنه إذا كان موتهم فى الدنيا يعنى موتًا وخراب ديار، فمن المؤكد أن الله رحيم رءوف بعباده، خصوصًا الفقراء منهم، والفقراء يدخلون الجنة حسبما يقال.

لا أجد فى الكارثة إلاَّ نقطة الضوء هذه للإجابة عن تساؤلي: لماذا تختار الكوارث الفقراء دائمًا؟

حرام... ومعلهش

شابة مصرية جميلة، حملت متاعها وطفليها، واتجهت إلى مصر تاركة الولايات المتحدة الأمريكية ـ حيث تقيم ـ لقضاء إجازة، كانت تحلم بالاستمتاع بكل لحظة فيها، وسمعت عن حفل فنى فى قرية ساحلية شهيرة، فاصطحبت صديقتها الأمريكية وذهبت، بعد أن اطمأنت إلى نوم طفليها الصغيرين بصحبة والديها، كانت سعيدة جدًّا تتمايل على نغمات الموسيقى الشرقية، التى تفتقدها كثيرًا فى مقر إقامتها فى الولايات المتحدة، ومشت فوق الرمال حافية القدمين لتلامس سلكًا كهربائيًا مكشوفًا وتصعق، فتسقط على الأرض، والنبض لايزال فى عروقها، سارع أقاربها بحثًا عن طبيب فوجدوا العيادة مغلقة، طبعًا، فمواعيد العمل الرسمية انتهت، وكأن المرض له ساعات وأوقات رسمية وغير رسمية، إذن سيارة إسعاف.. ياناس، لا يوجد، فالقرية غير مجهَّزة، وتنقل السيدة فوق عربة نصف نقل لتصل إلى المستشفى، وقد أسلمت روحها إلى بارئها، وماتت شيرين، وهذا هو اسمها حسبما قرأته فى الصحف فأنا لا أعرفها، وليستيقظ أولادها باحثين عنها مرددين: أين أمي؟

طفلان: ليلى (4 سنوات) وزين (سنتان)، حكم عليهما ألاَّ يتذكرا فى المستقبل والدتهما إلاَّ عبر ملامح ضبابية، ويعتمدان لإنعاش الذاكرة على الصور وأحاديث الأقرباء عنها، وكيف أنها كانت تحبهما، وتود لو يتعرفا على بلدهما الأصلى وجذورهما: مصر.

لم تكن شيرين تعرف أن القدر ينتظرها بسيف الإهمال، ليسلطه على رقبتها، ويكتب نهاية أجلها، والإهمال هى الكلمة المفتاح فى كل القضية، فهل سيتوقف العامل أو الكهربائى الذى ترك السلك الكهربى مكشوفًا أمام ما حدث، هل سينظر إلى أولاده ويقول لقد يتمت أولادها؟ لا أستطيع أن أحكم، فأنا لا أعرف الكهربائى أيضًا، المشكلة فى حالة بأكملها، وهى الاستسهال، فعدم إنجاز العمل بشكل جيِّد شطارة، ومن يضحك على الآخرين بعدم القيام بما يجب عليه القيام به، وينجح فى أن ينجو بفعلته إنسان ذكي، ومن يغش فى الميزان والبضاعة "مفتَّح"، خصوصًا إذا تعلق الأمر بحياة الناس ومصائرهم.

أنا لا أدَّعى أن هناك شرًا مبيَّتًا، كل ما أقوله هو انعدام "السيستم" system أو النظام، ففى كل أنحاء العالم حوادث نقرأعنها، ونقول لسنا وحدنا فى هذه الدنيا الذين يعانون الإهمال، إلاَّ أن الإهمال عندنا حالة عامة، نتهاون فى أبسط الأمور مرددين اللفظ العبقرى "معلهش"، نرفض معاقبة المهمل مرددين اللفظ العبقرى الآخر "حرام"، لا يجب أن نخرب بيت أحد، فالعقاب لدينا مرتبط بالحرام، ولو عاقبنا مقصِّرًا نصبح "مفترين" جبارين غير مقدرين أن وراءه عائلة

يصرف عليها، وتعتمد عليه دون التوقف لحظة أمام سؤال مهم: لماذا لم يضع هو مسئولياته أمام عينيه ويحافظ على أكل عيشه وخبز يومه؟ نردد دائمًا أننا لانريد أن نكون سببًا فى إيذاء أحد، حتى يقع الإيذاء على من نحب، هى إذن حالة عامة فى بلادنا، نجدها على كل المستويات، ومن يعاقب مقصِّرًا، ينظر الجميع إليه على اعتبار أنه شخص معدوم الإحساس والشعور، ونخلط المشاعر بالواجب والصح بالخطأ، كل شيء لدينا يختلط. مع أننا أشطر من يعرف كيف يجلد من يقع، السكاكين تظهر وتكثر فقط عند وقوع الضحية، والتأكد من أن أنفاسها أصبحت معدودة، وبعد كل "الحرام" و"المعلهش" تظهر كلمة فى غاية القسوة هي"يستاهل".

أنا لا أستثنى نفسي، فأنا أيضًا ممن يرددون يوميًا "حرام ومعلهش"، أخاف من توجيه العقاب، وإن كنت لا أتوانى عن اللوم، وأعتبر أن الكلام كاف، إلاَّ أننى لست أبدًا ممن يقولون "يستاهل" العقاب، يستحقه.

أما زين وليلى فأقول لهما: والله مصر جميلة، أرجوكما لاتذكراها دائمًا بالحادث الأليم، ولا تعتبرا أن المصريين قد قتلوا والدتكما، فتطالبان بالعودة إلى الولايات المتحدة حيث الأمور أكثر نظامًا، وحيث يعاقب المهمل ويحاسب، والله مصر جميلة، معلهش يا ليلى، معلهش يازين، باسم المصريين جميعًا أعتذر، أرجوكما اقبلا اعتذاري، سامحونا، وعذرنا أننا قبل أن نهمل فى حق والدتكما، أهملنا فى حق أنفسنا.

كل مرة أشوفك فيها... ببقى نفسى آه.. آه

عشنا أيامًا فى حالة جميلة، إذ نجحت الأغنيات الوطنية التى قدمت فى فترات الانتخابات الرئاسية، وانتخابات مجلس الشعب، فى خلق إحساس جميل لدينا، قد لا تكون نجحت فى تحريك الكثيرين للخروج والمشاركة الفعلية فى الانتخابات، إلاَّ أنها نجحت فى جعلنا نشعر بحالة من الحب الشديد للبلد، كنا بعد كل أغنية نقول: الله، عاد زمن كنا سمعنا عنه وعشناه أطفالاً، واختفى فى نهاية السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات، فمعظم الأغنيات الوطنية التى قدمت فى تلك الفترة، كانت ـ على قلتها ـ باردة دون حماسة، وبدأت تكثر أغنيات السلام وتمجيد السلام، وأنا كى ـ "لا أُفْهَمْ خطأ" ـ مع السلام، وأتمنى أن يعم العالم وأن تختفى من نشرات الأخبار صور الحروب والجوع والدمار، وإن كان هذا مستحيلاً، فلو صرف العالم من المال على كل الأدوية والعلاج ما ينفقه على الحروب، لكانت الدنيا أفضل كثيرًا، فالدول الفقيرة تشترى السلاح لتحارب بعضها البعض، وتمدها به الدول العظمى، وهى قليلة ومتحكمة فى سوق السلاح، مثلما هى متحكمة فى أمور كثيرة أخرى، وهذا على كل الأحوال ليس موضوعنا.

الموضوع هو ببساطة تامر حسنى وهيثم شاكر، شابان فى مقتبل العمر، حاولا التهرب من أداء الخدمة العسكرية، ستثبت التحريات إن كانا زورا أم لا، إلاَّ أننى أصدق تامر حسنى فى اعترافاته الأولية التى قال فيها: إنه اعتقد أن المزوِّر سوف يأتيه من أحد الكبار، بشهادة إعفاء صحيحة لأنه محق، كل شيء ممكن يحل بالفلوس، أصدِّقه حقيقة لأننى لا أعتقد أنه من السذاجة بحيث يورط نفسه فى قضية تزوير، هو فنان يعيش أيامًا تعتبر الأحلى فى عمره، واسمه يلمع فى كل أنحاء العالم العربي، وأغنياته نرددها جميعًا، من أول "عيونه دار" لغاية "عينى بتحبك" أغنيته الأخيرة، ففى أغنياته إحساس عالٍ وهى بعيدة عن الابتذال، جعلت الكثيرين يرددونها ومنهم أنا.

تامر حسنى غنَّى أيضًا مع مدحت صالح، ومجموعة من الشباب، أغنية وطنية هى واحدة من أجمل الأغنيات الوطنية التى قدمت فى السنوات العشر الأخيرة " لو كنا بنحبها "، وصدقناهم جميعًا، وكنا بعد كل أغنية نقول صحيح مصر تستحق منَّا مجهودًا أكبر، وبالربط بين القبض على تامر حسني، والأغنيات الوطنية أجدنى لا ألومه على الإطلاق، لأنه مرآة لجيل بكامله، وأجيال كثيرة قادمة تربت على فكرة السلام، وأردد مرة أخرى أنا مع السلام، ولكن كثرة موضوعات القراءة على مر السنوات، التى تتحدث عن السلام وتقصر الكفاح على أيام طيبة والفراعنة، والإشارة إلى انتصاراتنا كأنها من الماضى، أما المستقبل فكله لن يكون إلاَّ سلامًا، سلامًا سلامًا. إذا أجريت حوارًا مع أى شاب، وسألته هل أنت مستعد للدفاع عن

وطنك؟ سيرد ويقول " الحرب! لا سأهاجر " أو " لا نحن فى سلام ولن تكون هناك حروب " أو " لا ياعم إحنا مالناش دعوة "، ويستثنى من هذا الأمر من يربطون الجهاد بالحرب، الدفاع عن الوطن بالواجب الدينى، لذلك تجدهم فى المظاهرات يرددون شعارات دينية، ومستعدين للموت فى عملية أو فى حرب.

ورأيى هنا أنه لا يمكن لأمة تتربى على رفض الحرب، غير معترفة بأن هناك ما يسمى واجبًا نحو الدولة، إلاَّ أن تعزِّر شابًا مثل تامر حسنى، مع أن ألفيس بريسلى فى الخمسينيات أظن، أدى خدمته العسكرية وكان فى إجازاته يغنِّى ويمثل، وفى لبنان منذ أعوام قليلة أدى وائل كافورى الخدمة العسكرية، واستغل الفترة ليرتدى البدلة ويغنى أغنية تحفز الشباب على تقليده وأداء الواجب، ما حدث لتامر حسنى سيجعلنى كلما رأيت شابًا رددت فى نفسى: كل مرة أشوفك فيها يبقى نفسى آه آه، وأغيِّر بقية كلمات الأغنية إلى كلمات عن الواجب نحو الوطن، حتى ولو اتهمت بأن دمى ثقيل.

وأعتقد أن الموضوع غاية فى الخطورة، استبعاد أى احتمال للحرب من موضوعاتنا، أو مناهجنا الدراسية. حتى أكثر الدول استقرارًا تفعلها، وإلاَّ لما وجدت أميركا هذا العدد من الشباب، لترسله إلى أفغانستان والعراق، والبقية الموجودة على قائمتها، ولو حدث أى أمر طارئ، حتى ولو كان قادمًا من الفضاء، فسنغنى كلنا مع هيثم شاكر "ارمى حمولك عليَّا"، ونرمى حمولنا على مصر، وبدلاً من

أن نشيل عنها، سنجد شبابنا يهرب دون أن "يشيل"، وتصبح كلمات مثل "لو كنا بنحبها لازم نصون أرضها، دم وعرق وكفاح يعلّي لفوق اسمها" ستصبح كلمات أغانٍ، وابقى قابلنى لو لقيت حد يعلِّي أو يصون أو يشيل.

الرحمة

عرفت الوزير فاروق حسنى عندما كان فى أكاديمية روما، أثناء زيارة للقاهرة أقام أحد معارضه، وبما أننى كنت أقدِّم وقتها برنامجًا ثقافيًا فى الإذاعة، فقد قررت إجراء حوار معه، ذهبت قبل إقفال صالة العرض بلحظات، تخيَّلتُ وقتها أنه سيقول لى وأنا حديثة التخرج فى الجامعة: عودى إلىَّ فى يوم آخر، وسأجرى الحوار معك بعد مشاهدتك المعرض، إلاَّ أنه لم يفعل، بل جلس معى على السلالم وتحدّثنا وأجريت الحوار، وشكرته على حسه وذوقه فى التعامل، ورغم أننى حدثته عن عدم فهمى للوحات السريالية فإنه لم يغضب، بل شرح وشرح بحماسة وحب صادق للفن، وفوجئت بعدها بفترة قليلة بتعينه وزيرًا للثقافة، واعتقدت أن الكرسى سيغيره، سيغير من نظرته المحبة للفن، وسيتراجع الفنان أمام الوزير، إلاَّ أن السنوات مرت ودعيت مرات ومرات إلى افتتاح معارضه، وفى كل مرة كنت ألمح لمعة الفرح فى عينيه، عندما تثنى على إحدى لوحاته، أو تدخل معه فى تفصيلة حول لون ما أو شكل ما فى إحدى لوحاته.

لم تتحسن علاقتى منذ ذلك الوقت بالفن السريالى كثيرًا، إلاَّ أننى تعودت أن أحب الألوان والأشكال، دون أن أحاول فهم

ما يكمن وراءها، وفى كل مرة كنت ألتقى بالفنان فاروق حسنى، كنت أشعر بحماسة حقيقية لمشروعات كثيرة يتخيلها مقدمًا ويحلم بتحقيقها، لم أغرق فى تفاصيل إنجازات، وفى حوارات من هذا النوع، إلاَّ أن تقديمه لاستقالته استوقفنى، فنحن لم نتعَّود من الوزراء تقديم الاستقالة، عشنا أزمنة طويلة نسمع عن الإقالة، أنا شخصيًا ورغم حزنى الكبير على ضحايا بنى سويف، فإننى أرفض أن يتم خلط الأوراق، وإن كنت احترم تصرفه المتحضر بوضع استقالته بين يدى الرئيس ليقرر، من ناحية أخرى التقيت منذ أيام بالملحن منير الوسيمى، والد "شادى" أحد الذين ذهبوا ضحية الحريق الرهيب، لم أستطع أن أتمالك أعصابى وأنا أشاهد الأب المكلوم يبكى ابنه، الذى قضى وهو فى العشرين من عمره، عشرون سنة من التربية والتعب، وحلم ودعاء يتكرر كل يوم من الأم والأب: "يارب تكبر واشوفك راجل ".

وتأتى إرادة الله سبحانه وتعالى لتقرر العكس، وبكيت مع الملحن منير الوسيمى على شادى، وقلبى أوجعنى فور تخيلى مشاعر الأم وصدقها، وبدأت أفكِّر بعدها من المسئول؟ ولم أجدنى أضع اسم الوزير فاروق حسنى فى مقدمة الأسماء، وبالمصادفة قرأت فى الصحف عن حريق فى ملاهي الاسكندرية، وتذكرت حكاية السيدة القادمة من الولايات المتحدة، والتى تكهربت بسبب سلك مكشوف، وماتت، وحكايات عن أطفال ماتوا فى حمامات السباحة، بسبب ماس كهربى وعرفت أن الحالة عادية، الإهمال أصبح رفيقًا يوميًا يمشى

بشكل متوازٍ فى حياتنا مع اللامبالاة، نبحث عن حقوقنا ولا نفكر فى واجباتنا، ماحدث فى بنى سويف، يحدث يوميًا وفى أماكن متفرقة، نسمع عنها أو لا نسمع، والطرق دومًا مختلفة، وإن كانت الأسباب واحدة، إهمال ولامبالاة، ولازلت رغم عدم قبول الرئيس لاستقالة وزير الثقافة وتكليفه بالاستمرار فى عمله أسأل نفسى: هل كان ضغط الصحافة الفظيع الذى أدى إلى تقديم الاستقالة صحيحًا؟ أم أننا أصبحنا نبحث دومًا عمن نحمله كل أخطائنا؟ ولماذا نُحَاسِبْ فقط عندما تكون الضحية فى موقف ضعف؟ لماذا الصمت فى أوقات قوتها... وتنهال عليها السكاكين إذا ماوقعت؟ أصبحنا نستعذب الانقضاض على الفريسة ونجد لذة فى قسوتنا، ونخبىء ضعفنا خلف مبررات لهذه القسوة، مع أن أكثر الكلمات ترديدًا فى ديننا "بسم الله الرحمن الرحيم".

عرف الله سبحانه وتعالى أهمية الرحمة، وندرة أن يمتلك بنو آدم هذه الصفة، فلنرحم أنفسنا أولاً قبل أن نرحم الآخرين ونعاقب المسؤولين، ولكن لنكن متحضرين فنترك القانون يقرر ويحاسب، ولايعلو مسئول فوق القانون، ولانتحول نحن إلى حكَّام وقضاة، فى زمن عمت فيه الفوضى وهيمنت فضاعت معها الحقوق.

تساؤلات افتراضية

ترى فيم كان يفكر الدكتور إيهاب الشريف وهو معصوب العينين؟ لا يعرف أى مصير ينتظره؟ احترمنا فيه رباطة الجأش، ولو كان قد انهار لما كان جرؤ أحد منا على لومه، هل كان يشعر أن لحظته قد حانت؟ وأن قابض الأرواح قابع فى ركن ما ينتظر اللحظة المحددة من الخالق؟ ليكتب على آخر صفحة من كتاب حياته كلمة النهاية؟ هل كان يفكر فى الزوجة التى لم تتخل لحظة عن أمل عودته؟ لتأخذ بيده وتخفف عنه هوان وعذاب التجربة القاسية؟ هل كان يفكر بابنتيه، أول فرحة له: الكبرى إنجى التى اختارت الإعلام للدراسة، دون أن تعلم أن والدها سيكون فى الصفحات الأولى، عنوانًا رئيسيًا وصورة تتناقلها وكالات الأنباء؟ أم تراه كان يفكر بالصغرى هايدى حبيبة قلب والدها، فالصغير دائمًا له معزَّة خاصة، لأن البشر بالغريزة يحبون من يشعرون أنه فى حاجة إليهم؟ أو لعله كان يفكر فى المسئولين فى وزارة الخارجية المصرية، ويلومهم فى سره على إرساله للعراق بعد إسرائيل رغم حساسية مثل هذا الأمر؟ وحساسية العراقيين والمقاومة هناك لكل ماله علاقة بإسرائيل؟ يا ترى بما ذا كان يفكر الدكتور إيهاب الشريف فى لحظاته الأخيرة؟ وبمن؟ ربما كان مكتفيًا

بالاستغفار وتذكر أن عليه أن يردد الشهادة كما علمه والده فى الصغر، ولقد كان رجلاً مؤمنًا يصلى الوقت بوقته، والمؤمن دائمًا مصاب هكذا قيل، ولم يقولوا أبدًا إن المؤمن مقتول، أو بوصف أدق: مذبوح.

من ناحية أخري: من نعم الله علينا أننا لا نعرف متى نموت وأين؟ لا نعرف اللحظة أو المكان، ولم يكن يتوقع الدكتور إيهاب وهو يستيقظ ذات صباح، ليمارس حياته بشكل عادي، أنه سيخرج من منزله ليُخْطَفْ ويعامل بعنف، بل وتستغل صوره لتوصيل رسالة إلى حكومته، وتكون النهاية على أيدى مختطفيه.

بعض الناس من أمثالى يتشبثون بالأمل حتى اللحظات الأخيرة، فأنا من المؤمنين بأن أية معجزة ممكن أن تحدث وفى أى وقت، ورفضت تصديق قتل الدكتور إيهاب، إلاَّ أن قناة الجزيرة أكدت أنها حصلت على شريط، يؤكد ما حدث دون دخول فى التفاصيل، وإذا استمررنا فى التفكير، واعذرونى على أسئلتى الافتراضية الكثيرة التى أطرحها اليوم، إذا ما تساءلنا: ترى فيم كان يفكر من أقدم على عصب عينى، ثم ذبح الدكتور إيهاب الشريف؟ سواء أكان أبو مصعب الزرقاوى أم غيره؟ ألم يتردد لحظة ويفترض أنه ربما لا يستحق الموت بهذه الطريقة؟ ألم يسأل نفسه: من يكون هو ليعلن نفسه قاضيًا وجلادًا فى الوقت نفسه؟ ألم يسمع بحديث رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم الذى يؤكد أن هدم الكعبة أهون من إراقة دم مسلم؟ ولما لم يقتد بإسلامنا الذى يحرم قتل السفراء؟ ورسولنا الكريم كان دائمًا يحث على حسن معاملتهم، ولو كانوا آتين من بلاد أعجمية

وكافرة؟ لن أدخل فى تفاصيل دينية، فأنا كغيرى أقرأ وأجتهد على قدر ما أستطيع، وأدعو الله أن يلهم زوجة إيهاب الشريف وابنتيه الصبر. وفى تساؤلاتى اليوم الكثير مما مر فى خاطرهن، إلاَّ أنه لا أحد سيعلم فيم كان يفكر فى لحظاته الأخيرة؟ نطق الشهادة وفوَّض أمره لله، ونطق قاتله النهاية، معتبرًا أنه أدَّى واجبه نحو الله، والإسلام بين القاتل والمقتول حائر، يجمع بينهما ويفرق.

علامات استفهام

أذكر جيِّدًا منذ سنوات عدة، عندما كنت أدرس فى جامعة القاهرة كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية، أننا استضفنا مجموعة من الفرنسيين الذين كانوا يزورون مصر للمرة الأولى، وطلب منَّا أساتذتنا أن نقوم بالترجمة لهم، وفعلنا. وبالنسبة لى لم يقتصر الموضوع على الترجمة، بل تعداها إلى حوارات عن الشرق والغرب، وسمعت عبارات من عينة: " كنا نعتقد أنكم تعيشون فى خيام، وتتنقلون فوق الجمال والدواب".. ثرت وقتها بشدة ودافعت، إلاَّ أننى لم أشعر بالنقص، بل اتهمتهم بالجهل، واليوم وبعد مرور سنوات عدة، لازالت حتى الصور الموضوعة للترويج للسياحة فى مصر عبارة عن الاهرامات، وسائحين يمتطون الجمال والملابس البدوية، ويبتسمون للكاميرا، وإذا مانظرنا إلى الوجه الآخر لوجدنا أننا فى هذا، نتحمل جزءًا من المسئولية إذ لازلنا نسوِّق لمصر كبلد يحتوى على ثلث آثار العالم، وهو أمر جيِّد بالطبع ورائع، ونعمة من عند الله ليتنا نحافظ عليها، إلاَّ أننا بهذا لازلنا نعيش، ونطلب من العالم كله أن ينظر إلينا، كشعب يعيش فى الماضى، فى التاريخ، وأنا محبة للتاريخ بشكل كبير، إلاَّ أن التاريخ أيضًا يشمل العلوم، ويتحدث عن إضافة العرب للعالم مثل علم

الاجتماع ومؤسسه ابن خلدون، وعلم الكمياء والرياضة وفلاسفة مثل ابن رشد وشعراء ترجمت أعمالهم مثل عمر الخيام والقائمة تطول، إلاَّ أن هذا هو التاريخ الذى يسطر فيقول:

إنه فى الوقت الذى كان الغرب يعيش فيه فى الظلمات، كنا نكتب وندون وننير الدنيا حولنا علومًا مختلفة: وأنا هنا أيضًا افعل مثل الإعلان الذى يصور الجمل والأهرامات وأعيش فى الماضى، ولكن الوضع مختلف، فأنا أقصد التذكير والربط، كنا أمهر التجار ودرسنا فى كتب التاريخ أيضًا رحلات الشتاء والصيف، وطريق رأس الرجاء الصالح، والتوابل التى كانت تأتى من الهند، والقطن المصرى الذى احتلت بريطانيا مصر من أجله، والفرق بين الفترتين كبير، أما اليوم فنحن فى تقهقر فظيع.

قررت ذات مرة فى نوبة حماسة وطنية انتابتنى، أن أرفع شعار "اشتر منتجات بلدك"، وبدأت فعلاً أرددها فى كل برامجى إلى أن التقيت بمسئولين اقتصاديين، وبمجموعة من العارفين بالأمر وكان الاكتشاف الرهيب، اكتشاف ليس من نوعية اكتشافات جابر بن حيان أبو الكيمياء: ليس فى مصر منتج واحد مصرى مئة بالمئة، ولا منتج، حتى مايكتب عليه "صنع فى مصر". تكون العلبة مثلاً مستوردة أو الغطاء أو أى ملحق آخر، ولا أفهم السبب، مصانع الحديد والصلب التى درسنا عنها أيضًا، هذه المرة فى كتب الجغرافيا والقراءة، إما تباع أو تخسر، عجيبة، ومصانع النسيج لا نعرف عنها الكثير، ولكننا نسمع عن السجاد الأصفهانى والإيرانى، المنسوجات القطنية، لا

أعرف سوى أن أسعار الأقمشة فى ارتفاع كبير، وأنك إذا دخلت أى محل لبيع الستائر لاكتشفت الأسعار الباهظة، وعند سؤالك فى كل هذه الأمور عن أسباب ارتفاع الأسعار؟ يبدأون فى حوار طويل عن الخامات المستوردة، والجمارك، وأسأل دومًا مالذى يجعل بلدًا مثل الصين يعانى كثافة ومشكلة سكانية ينجح فى تحويل هذه الطاقة إلى إنتاج؟ بلد معظم سكانه ـ وبسبب ظروفهم السياسية ـ لا يؤمنون بديانات سماوية ويصنعون سجاجيد الصلاة وفوانيس رمضان؟ بضاعتهم رخيصة جدًّا، لا أتحدث عن الجودة، بل عن العائد، أما فى بلادنا ففى كل مصيبة يحمِّلون الناس المسئولية، عدد السكان فى تزايد مستمر، صحيح لا يفعلون شيئًا لماذا؟

الآن مصانع تحت السلم بدلاً من أن يتم تشجيعها، مع فرض رقابة شديدة عليها، يتم إغلاقها، والسيدات اللاتى يربين الدواجن يمتن بانفلونزا الطيور، بدلاً من تعريضهن للخطر من الممكن توجيه نشاطهن إلى أمور أخرى منتجة، وفى الوقت الذى نتحدث فيه عن المشاريع الصغيرة والقروض الميسرة، تجد آلاف المعوقات، لست أدرى ما السبب؟ لماذا نفشل فيما نجح فيه الصينيون واليابانيون والألمان، الذين بنوا مدنهم ولحقوا بركب الحضارة فى أعوام قليلة، لماذا بناياتهم مخططة وبناياتنا عشوائية؟ لماذا يقفون فى الصف بانتظار دورهم، ونتسابق كى نأخذ مكان من يقف أمامنا؟ لماذا لم نعد نرى الصورة القديمة للعمال فى ملابسهم الزرقاء إلاَّ نادرًا؟ لماذا نحرص على شراء آخر صيحة موبايلات مهما كانت مواردنا المالية

قليلة ؟ لماذا ننفق على الطعام أكثر مما تنفق شعوب كثيرة أخرى؟ أسئلة كثيرة، إلاَّ أننى أردد مقولة قديمة تقول: " إن من لايملك قوت يومه لا يملك قراره"، ولازلنا نستورد كل شىء، من الإبرة ـ يقال عادة ـ للصاروخ، ولكن سيرة الصاروخ غير واردة أصلاً، وسؤالى وهو الأخير اليوم لماذا نجح طلعت حرب فيما نفشل فيه اليوم؟ وهل المصريون زمان ـ ولا نتحدث هنا عن ماض بعيد ـ غير المصريين اليوم؟ وماذا أفعل وفى رأسى تدور مئات الأسئلة التى لا أمتلك لها أجوبة؟ إلاَّ أنها ملحقة بعلامات استفهام وتعجب فى الوقت نفسه؟!

الدين لله وحده

أذكر جيِّدًا مدرسة الراهبات التى تربيت فيها، كانت الراهبات ترتدين أثوابهن المميزة ذات اللون الكحلي، وكن يعطين دروسًا ويشرفن على حياتنا اليومية بمنتهى الصرامة، تعوَّدت منهن أن أعمل حسابًا لمن هو أكبر مني، أن أذاكر كى لا أعاقب أو أوبَّخ، تعلمت أن الصلاة جزء أساسى من حياتنا اليومية.

كنت أدخل الكنيسة وأصلى مع زميلاتى فى الفصل، معتبرة أن هذا طقسًا يوميًا عاديًا، إلى أن كان يوم تغيرت فيه الأمور بالنسبة لي، كنت فى المرحلة الابتدائية، وأدخلت المدرسة نشاطات عديدة بعد الدراسة من بينها "اليوغا"، فأعجبت بالفكرة وبدأت بممارسة هذة الرياضة، "معلمتي" أو مدرِّسة اليوغا، كانت سيدة شقراء جميله لازلت أذكرها جيِّدا، فرنسية هادئة الطباع وصوتها يخترق أعماقك، كانت تعلمنا الرياضة وهى تحدثنا عن الدين، وكانت تستفيض فى الحديث عن الروح والجسد، وتقرن كلماتها بحكايات مسيحية عديدة، وبدأت علامات الاستفهام تكثر فى رأسي، وسألت أمى للمرة الأولى: ألست مسلمة؟

فقالت نعم بالطبع لماذا هذا السؤال؟ فأجبتها لأننى لم

أفكر فى الإسلام بعمق من قبل، وتوالت أسئلتى بعدها عن الصلاة وصيام رمضان، وبدأت أصلى مرددة سورة الفاتحة فى كل صلواتي، حتى علمتنى والدتى طريقة الصلاة الصحيحة فاتبعتها، إلاَّ أن اكتشافى هذا لم يعن لى أبدًا أن أحوِّل المسيحيين إلى عدو، بل على العكس، حاولت أن أفهم أكثر، وبدأت أدخل الكنيسة، لأدعو معتبرة أنه مكان مقدس، واكتشفت معها المساجد والجوامع، وبدأت أزورها أكثر كلما تقدم بى العمر، وأتيحت لى فرصة السفر، ومع الوقت أحببت دينى أكثر، لأننى شعرت ـ حتى ولو ولدت مسلمة ـ بأننى اخترت أن أكون مسلمة، وطفولتى التى كنت فيها محوطة بالكثير من المسيحيين جعلتنى أكثر فهمًا لهذا الدين الملىء بالتسامح والمحبة، فالدين المسيحى، فى أصوله يدعو من يضربك على خدك الأيمن أن تدير له خدك الأيسر، وينبذ التعصب، والإسلام كذلك، رغم أنه دين يؤمن بقوة المؤمن، أفرد سورة فى القرآن الكريم أسماها "مريم" وجاء ذكر سيدنا عيسى عليه السلام عدة مرات، ولى زميل فى العمل مسيحى شديد التدين، ارتاح كثيرًا للعمل معه لثقتى المطلقة فى أمانته المهنية، فهو يعتبر إتقان العمل واجبًا دينيًا، وأليس هو كذلك؟ للمسلمين والمسيحيين؟ زميلى هذا يناقشنى فى أمور عديدة خاصة بالإسلام، وأفهم من كلامه أن هناك الكثير من المعلومات الخاطئة التى وصلت إليه وأشرحها له، وينظر إلى بتشكك، فأستمر فى إبراز البراهين والحجج بما يفتح الله علىَّ به، وبما أفهمه من أمور ديني، ويجادلنى وأجادله، وننهى حوارنا دائمًا بتساؤل: أرجو ألاَّ تزعلى منِّى يا مدام رولا، فأقول له: أرجو ألاَّ تزعل منى يا بهاء، ونبقى

صديقين، ونعمل معًا، أعترف أن الأمر غاية فى الحساسية، وأنه لولا اتساع أفق بهاء وأفقى، لتحول الموضوع إلى خناقة، فالتعصب للأسف أصبح فى الجانبين، وكان الدين هو دومًا انعكاسًا للحالة الاقتصادية السيئة، ففى كل مرة تكثر المشاكل يلجأ الناس إلى الدين، وليتنا نفعل هذا بشكل صحيح، أستطيع أن أزعم أننى إنسانة متدينة، فأنا والحمد لله مواظبة على أداء فروض دينى بشكل كبير، أتقى الله فى حياتى اليومية، أدعو ربى صباحًا ومساءً، وأفخر وبشدة بأننى مسلمة، إلاَّ أن هذا لم يمنعنى عند زيارتى لفرنسا، أن أحرص على أن ترى ابنتى ذات السنوات التسع، كاتدرائية القلب المقدس scare-coeur وتصادف وجود قداس، وطلبت منها أن تخفض صوتها احترامًا للمصلين، ثم قلت لها تمامًا كما كنت أقول لنفسى فى طفولتي: ادعي... فنحن فى مكان مقدس.. فهل أكون بهذا أخطأت؟.. لا أعتقد.. الخوف والتهديد لم يكن أبدًا من أى دين.. التهديد لا يأتى إلاَّ من معتنقى الدين ومن الجانبين.. وكم من الجرائم ترتكب باسم الأديان.

عن الموت.. فعذرًا

قرأت "زمان" قصة تقول: " إن عزرائيل ملاك الموت، أمره الله تعالى ذات مرة أن يذهب و يقبض روح سيدة.. فلما وصل وجدها فى صحراء قاحلة ترضع طفلها.. فدمعت عيناه، إلاَّ أنه نفذ أمر ربه رغم رحمته بالرضع. و بعد سنوات طويلة من عمر الأرض، أرسل الله تعالى ملك الموت عزرائيل ليقبض روح رجل.. فوجده شيخًا طاعنًا فى السن متوكئًا على عصاه، و كان موجودًا عند أحد الحدادين ليطلب منه أن يصنع قاعدة من الحديد يضعها أسفل عصاه حماية لها.. وكان يوصى الحداد بأن تكون القاعدة متينة كى تبقى العصا مدة طويلة.. وكأنه ضمن عمره.. عند ذلك لم يتمالك ملك الموت عزرائيل نفسه من الضحك متعجبًا من شدة حرص هذا الشيخ على الحياة، وثقته بأنه سيعيش أعوامًا كثيرة قادمة، جاهلاً أنه لم يتبق له على وجه الدنيا إلاَّ لحظات: وتقول بقية الحكاية إن هذا الشيخ الذى أضحك عزرائيل هو الرضيع نفسه الذى أبكاه يومًا".

تذكرت الحكاية وأنا أسمع حكايات الناجين من العبارة الغارقة "السلام 98 "، والتى سالت كثير من الدموع عليها، وسال كثير من الحبر عن أخبارها، واستوقفنى موقف الناس أمام الموت،

الأم التى كانت تحمل رضيعها فى يد و تحاول السباحة باليد الأخرى، وشربت ابنتها مياه البحر بسبب علو الأمواج وتلاطمها.. فشرقت.. واختنقت.. وأسلمت روحها إلى بارئها.. صمتت الابنة.. وكفت عن البكاء.. إلاَّ أن الأم لم تقتنع أن التى كانت تصرخ منذ دقائق قليلة قد صمتت إلى الأبد.. فأصرت على حملها معها.. والسباحة بها حتى عثر عليها رجال الإنقاذ.. فأعطتهم الابنة أولاً قبل أن تعطيهم يدها لينقذوها.. فصرخوا فى وجهها بكل برود.. ابنتك ماتت.. وبين أخذ وعطاء.. وقعت الطفلة فى المياه.. وتم إنقاذ الأم التى أرادت اللحاق بالجثة.. والاحتفاظ بها.. ولم تسلم الأم بمرارة الأمر الواقع.. إذ أصبح حلمها اليوم.. العثور على جثة الطفلة.. لدفنها.. وعلى العبارة نفسها كان نبيل.. شاب يعمل فى الكويت.. عائد لزيارة أهله الذين يصرف عليهم شقا العمر كله.. نبيل ساعد الكثيرين و هو سباح ماهر، لذا استغنى عن جاكت الإنقاذ وأعطاه لسيدة أصرت على التعلق برقبته.. وشدت عليها من خوفها.. وصبر على تعلقها برقبته أكثر من ثلاث ساعات.. وفى لحظة.. شعر أنها ستأخذه إلى أسفل.. فما كان منه إلَّا أن استغل أول موجة قادمة لينزع يدها عن رقبته ويذهب بعيدًا عنها.. تصرف بشرى بحت.

قال لى: لم أكن أريد الموت كى لا يحزن والدى.. فالبعض يضعف والبعض يصبح أكثر قوة.. والبعض لا يحتمل الصدمة والبعض يصاب بصدمة.. كلنا نعيش ونحن نفكر بالموت معتقدين أنه بعيد عنا.. نسلم بأن الكوارث تصيب الآخرين ولا تصيبنا..

نتمسك بالحياة رغم لحظات المعاناة الحقيقية القليلة التى نعيشها.. ورغم أننا نقضى أيامنا فى الشكوى، وعدم الرضا من أحوالنا وأعمالنا وأولادنا.. فإننا نتمسك بالحياة لست أدرى ما السبب؟ ربما الخوف من المجهول الذى ينتظرنا ؟.. أو ربما ضعف إيمان بما يجب أن نعتبره دنيا الحق ؟.. أم هى غريزة حب البقاء التى يعتبرها المحللون النفسيون أهم الغرائز على الإطلاق ؟.. نركض ونسعى و نحارب ونخسر الدنيا وأحيانًا الآخرة.. من أجل طموحنا وأهدافنا.. ولماذا ؟.. ولم ؟.. إننى أشكر الله على كثير من نعمه علينا.. وأهمها.. عدم المعرفة بموعد و ساعة الموت.. فهى رحمة من الخالق تعالى بنا.. ورأفة.. وعذرًا للموضوع.. فنحن ننظر إلى الموت كأمر سوداوي، قابض للقلب.. مخيف.. وساعد على ترسيخ هذا المفهوم، ما يتردد من عذاب القبر والتخويف والترهيب منه.. وهنا أحب أن أنظر إلى الموضوع بشكل آخر، إذ قالت لى واحدة ممن عرفن حكاية السيدة مع طفلتها " لا تحزنى يا مدام.. ليس هناك على الأرض من هو أحن على العبد من ربه.. والله رؤوف رحيم.. وهو دومًا عند حسن ظن عبده به.

نظرية "عزت"!!

كنت أعتقد فى سنوات طفولتى أن هناك خطًا فاصلاً، وحدًا قاطعًا ما بين الخير والشر، كنت أعتقد دومًا، ولا زلت، أن بداخل كل منا مخزون خير قد يختبئ أحيانًا، أو يتوارى أو يتورط الإنسان فى أمور ما، لظروف ما، فيجد نفسه فى عداد الأشرار، وعندها ينزلق ولا يستطيع الرجوع إلى الوراء، والمجتمع عادة لا يساعد من اقترف ذنبًا على التوبة، بل يرشقه بحجارة وطوب وأدوات هدم، لا بناء، ورغم مرور السنين لا زالت مسألة الشر تؤرقنى، والموضوع ينام ويصحو، إلا أنه فى أوقات يبرز بشكل كبير، يفرض نفسه وأجدنى أمام علامات استفهام كثيرة، يعجز عقلى الآدمى عن الرد عليها، فيتعب ويسلم بجهله.

ومن بين المرات التى برزت علامات الاستفهام كبيرة، كانت منذ عامين تقريبًا أو أكثر، لا أذكر على وجه التحديد، ذهبت فيها إلى النخيلة، وهى قرية فى الصعيد، كانت قد تحولت لأعوام وأعوام إلى مستنقع للمخدرات، أقوى رجل فيها كان عزت حنفى، الذى كان يسمى بالامبراطور لقوته وسطوته، سمعت أقاويل متضاربة عنه، وكنت من أجل تصوير برنامجى التليفزيونى " فى العمق "،

مع رجال الشرطة يوم قرروا القيام بهجوم على القرية والإيقاع به، بدأنا النهار مبكرين وأصر رجال الشرطة على بقائى بعيدة، إلَّا أننى أصررت على القيام بعملى، وما بين شد وجذب قدمت واحدة من أفضل حلقات البرنامج، والتى أعتز بها جدًّا، صورت منزله الذى كان مكونًا من طابقين، والذى احتجز فيه الرهائن، حسبما قيل لنا، وصورت منزل أخيه، ولأول مرة فى حياتى رأيت زراعات نبات الخشخاش أو الأفيون المخدر، الذى يدمر عقول الشباب، والذى كان منتشرًا هناك بكميات كبيرة، وقامت الشرطة يومها بِحَرْقه.

وأهم ما فى يومى كان فى ختامه، عندما تمت الموافقة على لقائى بعزت حنفى، الذى كان مصابًا ومجهدًا، وفى سرير فى المستشفى، محاطًا بحراسة مشددة، حاورته على مدى نصف ساعة تقريبًا، نفى فيها بالطبع الكثير مما وجه إليه من تهم، ثم بدأ يحاورنى حوارًا فلسفيًا، تدخل فيه الكثير من الآيات القرآنية التى كان يحفظها بشكل جيِّد، إضافة إلى أبيات شعرية استغربت من معرفته لها، فقال لى إنه محب للشعر، حريص على قراءته، الشعر الذى يكتبه المرهفون من الناس، الذين نصفهم بأنهم الأكثر رومانسية بين البشر، واستغربت حفظه للقرآن، لكننى استغربت أكثر منطقه فى الحياة، إذ أذكر أنه قال لى إن الله الذى خلق هابيل، هو نفسه من خلق قابيل الذى قتل أخاه، لتقوم أول جريمة فى التاريخ، وأن الله هو خالق كل شىء، فلما أجبته بأن الشر من صنع الإنسان لا الله، أجابنى بكلمات عن أن الإنسان نفسه من صنع الله، وأداة فى يده.

وما بين شد وجذب، استغربت قناعته بأنه إحدى الأدوات المهمة فى الحياة، إذ لا يجوز أن يكون على الأرض خيِّرون وطيبون فحسب، لا بد من وجود الأشرار كى يعتدل الميزان، لن أدخل فى تفاصيل أخرى قالها لى، إلاَّ أننى استرجعت حوارى معه، عندما قرأت خبر إعدامه منذ أسبوع، تابعت أخبار مقاومته وإصراره على أن يكون إعدامه قبل أخيه، وكأنه لا يريد أن يتألم عند معرفته بالخبر، أو كأنه يريد أن يتحمل المسئولية أولاً علَّه بفرق اللحظات تحدث معجزة، وتذكرت حبه للشعر، ثم قرأت كيف أنه ردد قبل وفاته مباشرة "حسبى الله ونعم الوكيل" بغض النظر عمن كان يقصد، فإننى تذكرت أيضًا ترديده المستمر لآيات القرآن الكريم.

ويرتبط الشر عادة ـ حسبما يقال ـ بعادات فنية، هتلر فشل كرسام فتحول إلى السياسة، ونجد الكثير من المجرمين من محبى الموسيقى أو نوع آخر من الفنون، وعزت حنفى كان محبًا للشعر، وهذا لم يمنعه من الاتجار فى المخدرات، وعند سؤاله كان يجيبنى بأنه ليس الوحيد فى العالم الذى يفعل هذا، مقتنع أنه مخلوق لهدف، ألا وهو نوع من الشر ضرورى على سطح الأرض، نظرية قد نرفضها، ولكنها صحيحة بشكل أو بآخر، وإلاَّ لبقى الشيطان عاطلاً عن العمل، وأنا أعتقد أنه فى هذه المرحلة من الزمان، أصبح للشيطان جيوش تساعده، لأن عدد البشر أصبح أكثر بكثير، وعملية الإغواء أسهل بكثير، المال أو النساء أو السلطة أبرز الأسلحة المستخدمة، ويشط تفكيرى لأبعد من هذا فأقول: لست أدرى لماذا بعد قراءتى لخبر إعدام عزت

حنفى تخيلته كما سيحدث لنا جميعًا، حبيس قبره، ويخضع لحساب الملكين، ترى، أية حجة سيقدمها لهما، هل سيردد لهما نظريته - التى يجب أن تسجل باسمه - عن الخير والشر؟ لست أدرى؟ علامة استفهام أخرى لن أجد أبدًا إجابة لها.

"طه" يعقوبيان.. وزين الدين زيدان

لست أدرى لماذا تذكرت اللاعب الفرنسى والجزائرى الأصل، زين الدين زيدان؟ وأنا أشاهد فيلم عمارة يعقوبيان، لا مجال للمقارنة، ولا يوجد بين أبطال الرواية لاعب كرة قدم، ولكن شخصية "طه" ابن حارس العقار استوقفتنى كثيرًا.... " طه " الشاب المجتهد، الملتزم، المطيع لوالديه والبار بهما، يساعد والده فى مسح السلالم احترامًا لسنه... ويلقى من السكان السخرية والإيلام..... وعدم التشجيع... ويحاول دخول كلية الشرطة فيحرم بسبب وضعه الاجتماعى، فيتجه إلى كلية لايعرف ماهى، لمجرد الحصول على الشهادة... ويحب فتاة تتركه لأنها من فئة المطحونين أمثاله... طه يتحول، ولأنه صيد سهل، إلى إرهابى تستدرجه الجماعات الدينية ويقع فى يد ضابط.. يعذبه ويهينه... فيقرر الانتقام... ومن هنا لن أدخل فى تفصيلة أن أسباب انضمامه... الانتقام وليس الدين... وأن الدين كان مجرد مبرر... بل أتوقف عند نهايته... قاتل ومقتول والسبب... الظروف الاجتماعية السيئة التى لم تحترم قدراته واجتهاده، ومحاولاته المستميتة للخروج، وأن يطفو على السطح.... ليس سطح العمارة.. ولكن سطح المجتمع... المجتمع الذى لا يرحم... ويكتب على "طه" الغوص أكثر وأكثر فى القاع.

تذكرت، وأنا أعرف أن الأمر بعيد جدًا، قد يبدو... زين الدين زيدان... ابن رجل جزائرى فقير... هاجر إلى فرنسا وأقام فى مرسيليا... المدينة التى تشتهر بكثرة الهجرة إليها.... وعمل فى أحد موانيها، ثم تزوج وأنجب عددًا من الأولاد كان ترتيبه الخامس بينهم.... وعانى زيدان الفقر كثيرًا فى طفولته، لدرجة أنه كان يلعب الكرة حافى القدمين... كان يذهب إلى المدرسة كى يستطيع الحصول على ساندوتش هو غذاء تصرفه المدرسة للتلاميذ... ثم يبهر أترابه.... بلعبه لكرة القدم.... وعندما بلغ الرابعة عشر طلب شراء حذاء رياضى، وكان والده يمر بضائقة مالية إلاَّ أنه لم يشأ أن يرد لابنه طلبًا، فعمل طيلة شهر كامل ليشترى له الحذاء، طالبًا منه أن يتحول إلى أسطورة فى عالم الكرة، مثل نظيره الفرنسى ميشيل بلاتينى... وانضم زيدان فى سن السابعة عشرة إلى فريق " كان" ولعب أمام فريق مرسيليا العريق وبدأ رحلة التألق.... لعب فيها فى نوادى عدة آخرها فى ريال مدريد الأسبانى.... تزوج من فرنسية من أصل أسبانى ورزق بثلاثة أطفال، وحقق لفرنسا نجاحات عديدة لدرجة أنهم يفكرون فى إقامة تمثال له فى مسقط رأسه مارسيليا، وإطلاق اسمه على أحد الشوارع هناك.

زيدان أو زيزو- كما يطلق عليه تدليلاً - أى مستقبل كان ينتظره لو بقى والده فى الجزائر؟ لا يفهم من كلامى أى دعاوى لترك البلاد والذم فيها.... ولكن ما وصل إليه الغرب أمور لاتكلفنا كثيرًا... ونحن لانقوم بها.... مراكز الشباب أكبر مثال على ما

أقول.... ماالذى نتوقعه من شباب لايمتلك مكانًا يمارس فيه أى نوع من الرياضة؟ لأن أكثر من تسعين بالمئة من مراكز الشباب فى القرى والنجوع لاتصلح، لو وجدت أصلاً، ماذا نتوقع من الرياضة والاتحادات كلها مشاكل، السباحة التوقيعية والملاكمة أو ألعاب القوى وكرة القدم والقائمة طويلة؟ كيف نبنى إنسانا "صحيحًا بدنيًا" والعشوائيات فى كل مكان، تضم بؤرًا للمخدرات والإجرام ولا تخلق لهؤلاء بديلاً؟ وكيف تطلب من الشباب أن يقدِّموا لبلادهم ونردد لهم أغنية "عُلّيا" الشهيرة " **ماتقولش إيه ادتنا مصر، قول هاندى إيه لمصر**" ونحن لانؤمن بهم ولانمنحهم أضعف الإيمان، الفرصة.

والرياضة أحد المجالات التى تمتص الكثير من الطاقة والغضب الذى يخلقه الملل، تخيل زين الدين زيدان لو ولد وأكمل حياته فى الجزائر، وظروف الجزائر تشبه بشكل كبير ظروف مصر، ومعاناتهما مشتركة والظروف الاقتصادية والأبعاد والموروثات الاجتماعية تتشابه إلى حد كبير... لكان اليوم إمَّا عاملاً فقيرًا مثل أبيه أو لاعب كرة فى أحد مدن الجزائر، يحاول شق طريقه وإيجاد عقد احتراف مع نادى أوروبى، إلاَّ أنه لم يكن أبدًا ليصل إلى الخمسة والستين مليون يورو التى دفعت فيه مقابل انتقاله للعب مع ريال مدريد، لا أقصد أن أكون جارحة، فهناك استثناءات بالطبع، ميدو "أحمد حسام" وعمرو زكى وحسام غالى ومروان شماخ وحاتم الطرابلسى ـ التونسى، ونور الدين نيبت ـ المغربى، والقائمة طويلة، أتحدث أيضًا عن الرعاية، عن الاحتواء، عن إحساس زيدان بأن فرنسا بحاجة إليه، فبعد

أن قرر الاعتزال عدل عن قراره كتحية واجبة لبلد احتضنت موهبته وشجعته، ولم تسأله عن أصله وفصله، زيدان وهو يلعب مباراته مع البرتغال قرأ الفاتحة قبل بدء المباراة، ووضع كفيه على وجهه كما نفعل عامة، وعند إحراز هدف كان ينظر إلى السماء ليحمد الله.

لست أدرى إن كانت قد وصلتكم مقارنة "طه" "بزيزو"، الظروف الاقتصادية للبلاد تلام وتتحمل المسئولية، ولكن أمورًا كثيرة من الممكن أن تحل من جذورها، ولست أدرى لماذا نعيش دون تخطيط ونتذكر أمورنا فجأة، ثم نهملها، وبدلاً من أن نغير حياتنا نحلم بأن يخرج من عندنا لاعب، بمهارة زين الدين زيدان، نعمل على تجهيزه، لن أدخل فى تفاصيل عن الفساد فى عالم الرياضة، ولكننى دائمًا أقول، وصلت بنا الأمور لحد القول: يا أخى "نفَّع واستنفع" لأى مسئول مقابل ما يحصل عليه فليقدم ولو القليل، بدلاً من الاكتفاء بتسيير أمور حياته وتأمينها.

طه الشاذلى نموذج نجده كثيرًا، وسنجده أكثر، لو لم نمنح للشباب فرصة التعبير عن مواهبهم، ونوجههم فى طريق العلم، والرياضة ونقدم لهم التسهيلات والتشجيع اللازمين، لا أحب أن أكرر كلامًا قيل كثيرًا، ولكن يبدو أنه أصبح قدرًا أن نعيد ونزيد فى أمور تعداها الغرب منذ سنوات، ونحن لازلنا نحاول تهجئتها، كم تتعبنى المقارنة ولكن ليس هناك سبيل آخر، والله يا أهل الكلام تعبنا من الكلام.

إلى الدكتورين: نظيف والطيب

رغم أن أحمد نظيف قد نفى التصريحات المنسوبة إليه، وهو يحادث الشباب فى معسكر أبو قير الصيفي، عندما نسب قوله "إنه يجب ألاَّ نتوهم الوقوف ضد إسرائيل بالسلاح"، دون دخول فى أسباب عدم الاستطاعة من معاهدات سلام أو أسباب أخرى، وهى التصريحات التى نفى نظيف أنه قالها، فإن نشر هذا المعنى حتى لو تم نفيه يثير قضايا مهمة.

ومن الناحية الأخرى، ومع احترامى الشديد أيضًا للدكتور أحمد الطيب، رئيس جامعة الأزهر، فإن وصفه لأحد الطلاب عنده فى مؤتمر صحفى بأنه "تلح" لأن الطالب مؤمن أنه صاحب رسالة وعليه الاشتراك فى المظاهرات، لهذا فإن الدكتور أحمد الطيب يترك الطالب للأمن، لأن مهمة الطالب الأساسية هى تحصيل العلم وليس توزيع المنشورات، فإذا كان مسئولونا يفكرون هكذا، فما الذى نتوقعه من شبابنا؟

تخيَّلوا لو أن السبعين مليون مصرى فقط قاموا قومة رجل واحد، ولا أريد لأحد أن يردد أقوالاً عن الأسلحة الاستراتيجية والصواريخ، وأنا هنا لا أدعو للحرب، وإن كنت أعتقد

أنها مادامت حاصلة فى لبنان فهى حاصلة فى كل الوطن العربي، ولكن أن نقول إن مجرد التفكير فى الوقوف أمام إسرائيل أو ضدها وَهْمٌ، فهذا أمر، مع احترامى الشديد يا دكتور، وبغض النظر عن صحة التصريح من عدمه، أرفضه، وعندما تأهب وفد شعبى للذهاب إلى لبنان، وكان مصحوبًا بوزراء وبرسميين، تمنيت أن أكون معهم، وكل من عرفت وسألت تمنى أن يشارك بالزيارة، أعرف الكثيرين ممن تبرعوا بأموال وبأشياء عينية لمساعدة الناس فى لبنان، أى جيل ـ وهو الذى ينظر إليك ويعتبرك قدوة ـ تتوقعه؟

ولو أن إسرائيل التى لم نتعود منها عبر التاريخ أبدًا، أى حفظ للمعاهدات، لو أنها قررت يومًا بعد القضاء على لبنان أو تقسيمه كما فعلت فى العراق، عندما زرعت ما هو أشر من الاحتلال، هى وحليفتها المخلصة أمريكا، الحرب الأهلية بين السنة والشيعة، أن تولى وجهها لمصر، ومن قال إنها لن تفعل، لن تزرع مثلاً فى مصر حربًا بين المسلمين والأقباط ؟

دكتور نظيف، نحن كنا سعداء جدًّا بوصولك إلى ما أنت عليه، وزير شاب، على درجة عالية من العلم، يحترم التقدم العلمى والتكنولوجيا، أذكر مرة، وكنت أشارك فى حملة مستشفى سرطان الأطفال لجمع التبرعات، أنك كنت مع وزراء آخرين وكنت من بين قلة ممن ارتدوا تى شيرت وجروا من أجل الخير، فى الوقت الذى حرص فيه الوزراء الآخرون على الاحتفاظ بالبدلة والمشى ببطء كى لا يتأثر "البرستيج"، ركضت إلى جانبك سعيدة متفائلة،

فرغم ضآلة التفصيلة، فإنها كانت تعتبر فى مجتمع تعود على البدل والكرافتات تغييرًا كبيرًا، وأصبحت رئيسًا للوزراء، فسعدت وسعد معى كثيرون بوصول شاب رئيسًا للوزراء، ولن أدخل فى تفاصيل الوزارة، وما قامت به أو لم تقم، فالمجال ليس هنا، وأعود فى الوقت نفسه إلى ما قاله الدكتور الطيب، من أن الطالب "التلح" هو الذى يخرج فى مظاهرات، ويصر على موقفه، حرمنا إذن الطلبة من التظاهر لأن الفعل يعتبر عملاً تِلِحًا، وحرمناهم من الحلم حتى باحتمالات النصر فى يوم من الأيام.

كيف ننتصر ونحن أصلاً لن نحارب، ونحن أصلاً لا نستطيع أن نحارب، أنا يا دكتور مع السلام، ومع احترام الآخر وثقافة الآخر وديانة الآخر، ولكن بعض الأمور يجب أن نتعلمها من التاريخ، التاريخ يقول إن اليهود لم يحفظوا عهود نبيهم، هم أصحاب أشهر المجازر فى التاريخ الحديث، قانا مرتين، و"صور" و"بعلبك" و"مرجعيون" و"الشياح" و"صيدا" و"غزة" و"دير ياسين"، وأسماء مدن كثيرة فى لبنان وفلسطين ومصر، لم يرحموا يومًا أطفالاً أو نساء أو شيوخًا، لم يفرِّقوا يومًا بين الشعوب، ما دامت الجنسية عربية.

الإسرائيليون هم الذين قال أحد قادتهم بعد قانا عام 96 لأحد جنوده: لا تشعر بالذنب، فلو مات عربى فغيره كثر، وهم دائمًا يقولون هذا، المعنى ببساطة "العدد فى الليمون" وماذا يفعل كل هذا العدد؟ والله يا دكتور لوقام فقط لأكل بنى إسرائيل و"قرقشهم" على طريقة أكلة لحوم البشر، ولكن الحكومات المتتابعة نجحت فى إلهاء

المواطن عن أى أحلام بالنصر أو الفخر، أصبح ملهيًا بقوت يومه، وقوت عياله، والأسعار فى ارتفاع مستمر والرواتب على ما هى عليه، ووعود ووعود، لا صناعة محلية ولا تصدير، فكيف نصبح أقوياء إن كنا لا نملك قوت يومنا؟ الصين واليابان حتى تركيا والسعودية، تخيل، السعودية، الصحراء المقفرة أصبحنا نشترى منها منتجات كتب عليها "صنع فى السعودية "، ما علينا، أذهب إلى موضوعات ليست محور حديثى اليوم، أعود فأقول: أى جيل هذا الذى سيخرج؟ وهو مؤمن بأن بلده غير قادر على المواجهة؟ وإن بلده أضعف من أن تواجه إسرائيل؟ أى بعبع هذا الذى نربيه لأولادنا، ونخيفهم به فيتحول إلى كابوس يحلمون به.

أى سلام هذا المبنى على جثث الأطفال والنساء والشيوخ؟ أى سلام هذا وعلى حدودنا يموت جنود بين الحين والآخر بسبب حادث عرضى أو "تصرف" غير مسئول؟ " حسب التصريحات الإسرائيلية، أى سلام سننجح فى إقناع شعوبنا به وهم يرون المذابح تنتقل من بلد إلى آخر؟ والجنسية للقتلى واحدة: عرب، لن تنجح السياسات أبدًا فى أن تفرق بين الشعوب، ونحن يا دكتور قادرون على محاربة إسرائيل، وعلى الانتصار عليها لو أردنا، وشبابنا بخير، وأنا هنا لا أردد شعارات بل حقيقة، لن تنجح تصريحات المسئولين فى تغييرها، وإن كانوا حقًا لايريدون حربًا فأقل المطلوب موقف، فنزويلا سحبت سفيرها مشكورة، ولم نفعل، وبكى السنيورة، وكانت فى دموعه دموع كل العرب، والنصر آت من عند الله، مع تحياتى للدكتور نظيف والدكتور الطيب.

دماء ملوثة!!

بعينين تورمتا من كثرة البكاء، حاولتْ جاهدة إخفاءها بالماكياج، قرأت زميلتى نشرة الأخبار، كنت أعلم أن والدتها مريضة فى المستشفى بعد وقوعها فى منزلها، مما تسبب فى شرخ حوضها، ونقلتها زميلتى للمستشفى للعلاج ووضع المسامير، وما إلى ذلك من طرق علاج لمن تقدموا قليلاً فى السن، انتظرت حتى انتهت من نشرتها وسألتها عن صحة والدتها، وهنا بدأت فى البكاء، وحكت لى تطورات ما حدث، وهو أمر بالنسبة لنا كبشر عاديين ـ نؤمن أن مهنة الطب هى الشفاء، وأن المستشفيات للعلاج ـ كان صادمًا للغاية، ما حدث هو أنه كان يجب وبسبب إصابة والدتها بالبرد، ألاَّ تترك راقدة على ظهرها لأن هذا سيجعل "البلغم" يتجمع فى صدرها، وأنا هنا أقول على قدر ما فهمت، بل كان يجب أن يجعلوها تجلس، ولم يفعلوا، وذات ليلة وزميلتى ساهرة قربها، أحسَّت بها تختنق فسارعت بطلب المساعدة، ونقلت فى ساعتها والدتها إلى العناية المركزة، ووضعت على جهاز تنفس صناعى حتى الآن، لا شيء حدث، حتى الخطأ الذى تسبب فى تدهور الحالة غفرته زميلتى ولم تعتبره إهمالاً، كان يسمح لها بزيارة والدتها ساعة واحدة فى اليوم، وداخل العناية المركزة القرار الأول والأخير للطبيب المسئول.

وذات يوم وبعد أسبوعين تقريبًا من وجود السيدة فى غرفة العناية، وأثناء إحدى زيارات الابنة لها، قالت لها إحدى الممرضات: الحمد لله، الهيموغلوبين تحسَّن، والبركة فى كيس الدماء الذى أعطيناه لها، "كيس دماء؟" وسألت الابنة، ومن أين أتيتم به؟، أجابتها: عادي.. من المستشفى، لاحظ الدكتور أنها تعانى من أنيميا وضعف، فطلب تزويدها بكيس دماء، وسكتت الابنة، ولم تعلق، وفى اليوم التالى وأثناء النظر إلى نتيجة التحاليل لاحظ الطبيب أن الأم قد أصيبت بفيرس سي، وانهارت الابنة، وعرفت أن السبب هو كيس الدماء الذى نقل إلى أمها، فالتحاليل عند دخولها المستشفى كانت تؤكد أنها سليمة مائة بالمائة، واعترضت وصرخت، وكانت الإجابة من الجميع: المسئولية تقع على المعمل وليس علينا، ولكن كيف تتعامل المستشفى مع معمل يمكن أن يخطئ، الإجابة: المعمل من أفضل معامل التحاليل فى مصر، ومن المفترض أنه يقدم أفضل خدمة، ولكن من المستحيل تحليل كل كيس دماء لأن الأمر يتطلب مبالغ مالية باهظة لا تستطيع المستشفى والمعمل تحمله، وأصيبت السيدة بفيروس سى من كيس دماء لأحد المتبرعين المصابين، والله أعلم لو تبرع وهو يعلم بإصابته بالمرض أو لا يعلم، لو تبرع من أجل الخير، أو لا، وما الفرق؟ المهم أنه تبرع ولم يجر المعمل التحليل بسبب ارتفاع التكاليف، والكارثة، أنه يدخل يوميًا عشرات الأشخاص إلى غرفة العناية المركزة، ونها العدد بسبب حوادث المرور، ومعظمهم من الشباب، الذين لا يزالون فى بداية حياتهم، ويحتاجون إلى نقل دماء بشكل سريع ومن يدرى أى دم ينقل إليهم؟

و لمن لا يعلم فإن فيروس سى يسبب مرض الالتهاب الكبدى، وفى 85 ٪ من الحالات يكون الالتهاب مزمنًا، ولا يتخلص الجسم من الفيروس، وعند بعض المرضى يحدث التهاب كبدى مزمن نشط، ويدمر الكبد ببطء على مدى سنين طويلة، وبالتالى مع الوقت قد يؤدى هذا الالتهاب المزمن إلى تليف بالكبد وفشل كبدي، وفى بعض حالات تليف الكبد المتقدمة قد يحدث سرطان الكبد، وعادة لا يشكو مرضى الالتهاب الكبدى من أعراض مميزة، وعلى عكس الأنواع الأخرى من الالتهاب الكبدى وأعراضه غير محددة، وتكون عبارة عن إرهاق، آلام بالمعدة، وطفح جلدي، ولكنه ليس له أعراض واضحة فقد لا يعلم كثيرون أنهم يعانون من المرض، فيصبحون مصدر عدوى للآخرين، لأن الطريقة الوحيدة للتشخيص تكون عن طريق عمل تحليل دم، لذلك يجب على الأطباء والممرضين استخدام أدوات طبية معقمة خصوصًا الحقن وارتداء القفازات، الوضع نفسه للطباخين فى المطاعم أو المتعاملين مع الأطعمة بشكل عام، أعلم أن كل هذه الأمور معلومة، ولكننى أردت التنويه عنها، لمن لا يعلم.

ونعود إلى زميلتي، ووالدتها والفيروس سي، والإحساس بالعجز أمام المريضة خصوصًا إذا ما كانت الأم، والدم الملوث، وأسئلة كثيرة تفرض نفسها، وقع حظ السيدة العاثر فى فيروس سي، ماذا لو كان المتبرع من مدمنى المخدرات، وهم يلجأون أحيانًا للتبرع بالدم من أجل شراء ما يحتاجونه من مخدرات، ماذا لو كان مصابًا بالإيدز؟ وما معنى أن تكاليف التحليل عالية؟ وبالتالى المعامل لا تستطيع

تحليل كل الدم الذى يصلها، وسوف أُتهَّمْ طبعًا بأننى أثير الهلع، لا بأس، أنا راضية، ولكن لست أنا من يثيره، والحل ليس فى إخفاء رأسنا كالنعام، وفيروس سى منتشر بين أفراد الشعب المصرى بشكل كبير، ويبدو أن ما يحدث فى المستشفيات سوف يساعد فى انتشاره بشكل أكبر.

الرقابة، مشكلة المشاكل عندنا فى مصر، شاطرة وماهرة فى الصحافة والأدب والسينما، أى ما يخص العقول، وغير موجودة فيما يخص الصحة والبشر، والأغرب والأعجب والمثير للغضب حقًا، ما قالته لزميلتى إحدى الممرضات: "لماذا أنت غاضبة يا مدام، الفيروس يأخذ وقتًا قبل أن ينتشر، ووالدتك سيدة مسنة لن تعيش طويلاً بأى حال من الأحوال" . تخيلوا، هل تصدقون ما قرأتموه، أنا كتبت كى لا أصمت، اللهم قد بلغت، اللهم فاشهد.

العلم وأهله

لست أدرى كيف يمكن أن نتقدم ونحن على هذه الحال؟ أموال البحث العلمى بالملاليم، وبراءات الاختراع توضع فى الأدراج، والعلم الذى ننادى به فى أشعارنا تحول إلى مناهج عقيم، لا تتحدث إلاَّ عن السلام والسياحة والبيئة؟.

لست ممن يعتقدون أن الماضى هو الزمن الجميل، وأن المستقبل هو بالتالى الزمن القبيح، ولكننى ممن يتوقفون أمام كل شيء، وهذا دفعنى لوضع كثير من علامات التعجب فى حياتي، فلو راجعت مكتب التنسيق بعد ظهور نتائج الامتحانات، ستجد أن الأغلبية من الطلبة يريدون دخول كليات نظرية، وكلية العلوم التى من المفترض أنها تخرِّج العلماء، الذين يسيرون بالبلاد إلى الأمام، ينظر إليها على أنها كلية من لا مستقبل له، والحق يقال، معهم حق، مآل خريج كلية العلوم مدرس كيمياء أو فيزياء، ولو ساعده الحظ وكان مدرسًا شاطرًا سينجح فى استقطاب التلاميذ إلى مجموعات أو دروس خصوصية، وحول حياته إلى منبع لا ينضب من المال، ونسى السبب الرئيسى الذى من أجله دخل كلية العلوم، اللهم إلاَّ إذا كان الآن قد عرف السبب، وأصبح الآن هناك من يحدد هدفه من البداية، وفى

كليات العلوم لا تجد ما تحتاج إليه من أساسيات عملية، من معامل مجهَّزة على أحدث مستوى وأدوات وما إلى ذلك، ولست أدرى كيف لا تفهم الدولة أن هذا الأمر أحد أهم ما يجب أن يوضع فى عين الاعتبار؟ لماذا يسافر طلابنا ويتفوقون فى الخارج؟ وهنا يدفنون أحياء بتحويلهم إلى موظفين؟ ولماذا بدلاً من تشجيع الطلاب على الابتكار نسخر منهم ونفقدهم أية حماسة أو ثقة بالنفس؟ النموذج القدوة أصبح اليوم مسخًا مستوردًا من بلاد عدة، يا ليتنا أخذناه من الغرب، لم يحدث، بل أخذنا أسوأ ما فى هذه البلاد وشعوبها، ملابس غير متسقة مع ثقافتنا مما تدنى معه المستوى الاجتماعي، وثقافة الكاسيت و التيك أواي.

تجد عائلة محدودة الدخل وتصر على أكل التيك أواي، وكأن البامية والملوخية تذكرانها بظروفها الاقتصادية، والتيك أواى هو طريقة الصعود لأعلى، وإذا ما عدنا للبحث العلمي، لا أستطيع إلاَّ أن أعود لماضٍ بعيد، وأذكِّر، لعل الذكرى تنفع، علماء المسلمين الذين أسهموا فى نهضة علم المعالجة بالعقاقير؟ بل ويعتقد أن كلمة "drug" أى عقار طبى أصلها عربي، وأنشأوا مدارس الطب، وأول معهد طبى أنشأه رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فى مسجد المدينة، بعد هجرته فى السنة الأولى، وأول دار حكمة هى دار الحكمة القياسية التى أنشأها هارون الرشيد فى القرن الثانى الهجري، وجمع له البرامكة أندر الكتب من الهند وفارس واليونان، ونشطت الدار بشكل أكبر فى عصر ابنه المأمون الذى كان معروفًا عنه حبه الشديد للعلم

والأدب، والعرب هم أول من جعل التدريس أحد واجبات الدولة، وأول من عرف تأميم الطب والعلاج المجاني.

إذا ما أكملنا المسيرة المشرفة لابد وأن نذكر أسماء الرازي، الذى وضع موسوعة طبية كاملة، وابن سيناء الذى كانت كتبه تدرس فى أوروبا فى العصور الوسطى، ولأن الطب ليس من الممكن الاكتفاء به من الناحية البيطرية أنشئت "البيمارستان" و"بيمار" تعنى المرض، و"ستان" تعنى مكان، أى أن معناها مجتمعة تعنى مكان المرض، ثم حورت فى العصور الحديثة إلى كلمة مارستان، وأصبحت لفترة طويلة تطلق على دور العلاج العقلي، حتى صارت شائعة فى اللغة العامية، وكان الطالب مجبرًا على قراءة كتب عديدة قبل أن يتخصص، ويختار بنفسه أساتذته ومواده، أما اليوم فالمجموع هو الذى يختار.

أنا أستغرب بشدة أحوال بلادنا، الكل يريد أن يصبح صحفيًا أو شاعرًا أو مطرب فيديو كليب، خصوصًا لو كانت فتاة مؤهلاتها تسمح لها، أو أحلام الشهرة السريعة تطارد الشباب وتسيطر على عقولهم، والدولة لا تنتج ولا تصنع، وتعتمد بشكل أساسى على الاستيراد، لابد أن تكون شعوبها استهلاكية، وشعوب الخليج استهلاكية، ولكن لأن لها عائدًا من البترول يسمح لها برفاهية الاستهلاك، ولو أنها بدأت تعى أهمية الإنتاج والسياحة، ولم تعد تعتمد على عائداتها النفطية فقط، لست أدرى ما أسباب تراجعنا؟ الموضوع ليس اقتصاديًا، فالهند أصبح لها برنامج نووي، والصين تحولت إلى غول اقتصادى كبير، وألمانيا دمرت فى الحرب

العالمية الثانية وعادت مصانعها ومتاجرها وجامعاتها، المصرى يمشى بالبركة، ويبدو أن الحكومة أيضًا تمشى بالبركة، ذكية أو غبية، لا يهم، لا تزال جامعاتنا تستورد جامعات بريطانية وكندية وفرنسية، وتتراجع جامعاتنا المحلية، خصوصًا فى التخصصات العلمية، وبعد أن كان العلماء يجلسون ويلتف حولهم مريدوهم وتلاميذهم، ويفخرون بأنهم تتلمذوا على يد فلان أو علان، أصبح العلماء إمَّا يحلمون بالهجرة، أو يرضون بالأمر الواقع، ويستسلمون له، والمستقبل لا يبدو مضيئًا، فأفقر أنواع الفقر، فقر العلم، وإذا كانت هناك استثناءات ورجال يعلمون وسط هذه الظروف السيئة، فهم أبطال، علماء تمسكوا بعلمهم وآمنوا به، مثل من تتلاطمه الأمواج وهو فى قارب صغير بشراع.

تحية لهم، ونداء استغاثة، الحقونا، إسرائيل تقدمت بمراحل عنا، أصبحت أكثر الدول تقدمًا فى المنطقة، ما الأسباب والحجج؟ لست أدري، ما أعلمه أن سوق الفاكهة شغال الله ينور، قلنا زمان "الفراولة بتاع الفراولة"، واليوم أصبحنا نغنى للعنب، ويا قلبى لا تحزن.

أسئلة إلى عواد الذى باع أرضه

يبدو أن بعض الناس، يحملون على أكتافهم قَدَرَ طرح الأسئلة، والموضوع ليس سهلاً، صدقوني، تسأل وتسأل وتسأل نفسك، وتسأل الآخرين وتتوقع من نفسك ومن الآخرين إجابة، والإجابات عادة لا تكون شافية أو وافية، أنا من هؤلاء الأشخاص، الذين إذا ما دخلوا مطعمًا وكانت الخدمة سيئة سألت المسئول عن السبب؟ واعتبرت أننى عندما أقول له إن الطبق ينقصه شيء؛ أو أن طعمه على غير ما تعودت، فإننى أسدى له خدمة، كى لا يخسر زبائنه، ابنى فاجأنى ذات مرة بقوله لي: يا أمى إنه يسايرك فقط، الطبق الذى أعدتيه سوف يقدم لغيرك، واكتشفت أن ابنى المراهق أكثر واقعية منِّي، وإذا مارأيت أحدًا يقوم بأى عمل أعتبر ـ من وجهة نظرى ـ أن به تقصيرًا أو إساءة، أوجه الملاحظة فتكون النتيجة نظرات استغراب و"كلام فض مجالس"، أمى كانت دومًا تقول لي: "لن تنجحى فى تغيير العالم"، لكننى مع الوقت ومع فتور الحماسة فى أحيان كثيرة، ومع فتح فمى للكلام ثم قوله بسرعة يأسًا، إلاَّ أننى أجدنى من حين لآخر أعود لطبيعتي، والبنى آدم الطبع فيه غلاب، ومن الأسئلة التى تحيرنى هذه الأيام:

لماذا كانت مصر طول عمرها ـ حسبما درَّسوا لنا فى

المدارس ـ دولة زراعية؟ وفُضِحَ فى وقت من الأوقات عواد حين باع أرضه فضيحة لا تغتفر، وأن الأرض كالعرض لا يجوز التفريط فيها، والآن الكل يبيع، عواد وإخوته، وحتى أعمامه وأخواله.

التقيت بسيدة فاضلة، كان والدها يمتلك أراضى زراعية كثيرة فسَّرت لى الموضوع ببساطة، أرجعته إلى أيام كان الشعب المصرى يغنى فدادين خمسة، خمس فدادين، وتبين أن من كان يمتلك مئات الأفدنة، كان يرعاها لأن عائدها كبير، أما الفدادين الخمسة فما الذى يجنيه الفلاح منها؟ إن أتى بفلاح يساعده والأسمدة والمصاريف، فالموضوع لا يستحق، ويسافر عادة أولاد هذا الفلاح إلى الخليج، يعملون بالفاعل هناك، ويعودون بالكاسيت والمروحة، وتصبح وظيفة الفلاح لا تليق بهم، يريدون البيت المبني، والعروس تريد التليفزيون والغسالة، وهو يريد الدش، والحل فى بيع الأرض والسفر، وتباع الأرض ونتحدث عن الاستصلاح، ونقرأ عن الأرض الممنوحة لشباب الخريجين، ونزورهم فنجدهم قد آمنوا بحلم وتمسكوا به، إلَّا أن الأرض صعبة وعنيدة، تأخذ من عمرهم السنين التى تمر بسرعة ليصبح عليهم عبء تسديد الفواتير للحكومة، فيحاولون. وفى النهاية يتركون الأرض والحلم بعد رحلات طويلة فى المكاتب الحكومية.

وقرأنا أيضًا أن مصر بلد صناعية، طلعت حرب الرجل والميدان الذى يحمل اسمه، والتمثال المصنوع بشكل أفضل كثيرًا من قلل الفخار المنتشرة فى كل مكان ولا أفهم معناها، نجح فى

إنشاء مصانع، وكانت مصر من أجل قطنها تدفع ثمنًا غاليًا، احتلالاً بريطانيًا وحملة فرنسية قبلها، وكان أحمد شوقى يكتب:

نحن أرباب الحرف

ليس يعنينا الترف

ولنا كل الشرف

أننا نحيي المهن

كتب أحمد شوقى ذلك فخرًا واعتزازًا بالحرف والبدل الزرقاء، واليوم نسمع عن مصانع تغلق، وعمال يتم الاستغناء عنهم، ونردد يوميًا شجِّعوا المنتجات المصرية، ونبحث فلا نجد منتجًا واحدًا مصريًا مائة فى المائة، يعنى لا صناعة ولا زراعة ونسأل، فيقال: تعداد السكان يلتهم كل شيء، ويأتى سؤال آخر منطقى ولكن الصين تعدادها تعدى المليار، وهى من أكبر الدول الصناعية فى العالم، فتأتى إجابة أخرى: الحروب التهمت مواردنا، فيأتى سؤال آخر منطقي: اليابان وألمانيا دُمِّرتا فى الحرب العالمية الثانية، وقامتا بشكل أفضل بعدها، ويأتى التبرير الثالث الذى أجده كسابقيه غير منطقي: الفقر، فأذكر الهند، فقد دعا الاتحاد الأوروبي، العلماء والباحثين الهنود للمشاركة فى برامجه، وميزانية الأبحاث العلمية الأوروبية تبلغ 70 مليون يورو، وتستمر سبع سنوات، الاتحاد الأوروبى اعترف بالعلماء الهنود الذين كانوا مادة دسمة للهزل فى النكات والأفلام وأشهرها فيلم "الحفلة" لبيتر سيلرز.

الهند هى ثانى أكبر البلدان فى العالم من حيث تعداد

السكان ويزيد عددهم على المليار، إذن لا زراعة ولا صناعة ولاعلم، ما الذى تبقى؟ الصحة، فى الهند أيضًا نجحوا فى تصنيع أدوية بأسعار منخفضة، وفى حين تعتبر الصين رائدة فى صناعة "الهارد وير"، ومتقدمة بأشواط على جارتها الهندية، فإنها بالقدر نفسه مختلفة عن الهند فى صناعة "السوفت وير"، صحيح أن الصناعة الأخيرة فى الصين بدأت فى السنوات الأربع الماضية، تنمو بمعدل 30 فى المائة سنويًا، غير أن الصحيح أيضًا هو عجزها عن مجاراة الهند فى التصدير، ومعدل عائدات الصين من هذا القطاع 3 بلايين دولار، بينما الرقم الهندى وقف على أعتاب 17 بليون دولار، هذا عام 2004، الأمور إذن اليوم أكيد أفضل، وسؤالى هو لماذا؟ لا صناعة ولا زراعة ولا علم؟ حتى السياحة أول ما يحذرون منه السائحين عند قدومهم إلى مصر هو المتسولون، أما العاملون فى الفنادق والمطاعم، فحسنة وأنا سيدك، يهتمون بالعرب القادمين من الخليج أكثر من الأوروبى السائح، على اعتبار أنه تعلم من كثرة ما سمع، "جيف مى بقشيش" ألاَّ يعطي، ويذهب إلى بلاده محتفظًا لا بصورة الأهرامات، وإنما بصور المتسولين المنتشرين فى كل مكان يذهبون إليه.

أعتذر إن كنت قد رسمت صورة قاتمة، ولكننى أشعر بالحسرة، لن أتحدث عن حضارة السبعة آلاف سنة، وإن كنت أعرف أنها مصدر فخر حقيقى، وصحيح ولا يجوز التشكيك فيه، ولكن لم نحسن استخدام هذا التاريخ، تحولنا إلى شعب يمد يده طول الوقت، طالبًا إعانة، سواء من الحكومة، أم الأمريكيين، أم السياح على

شكل بقشيش، ونستيقظ صباحًا، وطوابير تطلب التوظيف فى الحكومة، وتدخل هناك لتنضم إلى القائمة الطويلة من البطالة المقنعة، وتجد من يحلل لقمة عيشه، بل وصل الأمر إلى اعتبار راتب الحكومة فرض عين عليها، لا يجب القيام من أجله بأى عمل، أما أية مهمة تسند فأمامها استمارة فلوس، وكأن مال الحكومة حلال أن نصرفه، حرام أن نتعب فيه، إتاوة نفرضها على الحكومة، والحكومة لديها عائدات كثيرة، أعلاها من قناة السويس، والبترول وعائدات أخرى، وتصرف وتصرف، ونحن لا نشعر، لأننا لا نرى، نسمع عن مليارات تدخل الخزينة، وأحوال الطب محلك سر، والتعليم مجانى بالاسم فقط، ولا زراعة، ولا صناعة، ولا علم، جامعاتنا فى ذيل قوائم الجامعات فى العالم، والمصرى يقرأ، لو قرأ، نصف كتاب فى العام، أى حتى الثقافة تختفي، وأعود وأردد السؤال الذى يتعبنى وأردده لنفسى يوميًا لماذا ؟ لماذا؟ وأى مستقبل ينتظر أولادنا؟ وهل سيأتى اليوم الذى بدلاً من الهجرة إلى الولايات المتحدة، سيهاجر أولادنا فيه إلى الصين والهند؟ ربما، حتى السينما، أصبحت عندهم صناعة تسمى بوليوود، تدخل عائدات كثيرة للبلد، ما الذى ننتظره حتى نتحرك ؟ لست أدري، ما الذى يعوقنا عن التقدم؟ لسست أدري، ربما نحن شعوب لا تركب الأفيال، بسيطة نستوردها، لو كانت هى الحل، فلن ننجح فى تربيتها، وعجبي.

2

ثقافة الشعب المصرى

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

صدق الله العظيم

قرآن كريم

سورة الرعد

ثقافة الاعتذار

أذكر مرة أننى دعوت صديقة، للاحتفال بصديقة عائدة من السفر إلى منزل والدتى، ثم غيرت المكان إلى منزلى، وأخطرت كل من اتصل بى، ونسيت أن أخطر صديقتى هذه فذهبت إلى منزل والدتى، ثم عادت إلى منزلها غاضبة غضبًا شديدًا منِّى، ولمن يفكر فى هذا التصُّرف سوف يتعاطف مع صديقتى بالطبع، إلاَّ أن لا أحد حياديًا أو منصفًا يستطيع أن يلومنى، جل من لا يسهو أو ينسى، نسيت، وهذه هى الحقيقة المجردة، مع أننى على الرغم من هذا العذر اتصلت بصديقتى أكثر من مرة، واعتذرت وكررت اعتذارى عن أمر غير مقصود، لن أستطيع أن أسميه حتى خطأ، لأن الإنسان عندما يخطئ يكون عادة مع سبق الإصرار والترصد، ومع إيجاد الأعذار لإسكات الضمير وخلق المبررات، المهم اعتذرت وكررت اعتذارى لسبب بسيط، أننى بتصرفى ـ وأكرِّر غير المقصود ـ ضايقت صديقتى أو أزعجتها، أو آلمتها، المهم فى الموضوع هو الاعتذار.

وعندما كنت طفلة أذكر أننى شاهدت فيلم " **قصة حب** "، وهو من أشهر قصص الحب فى السبعينيات بطولة **"رايان أونيل" و"آلى ماكجرو"**، الفيلم الذى حقق إيرادات خيالية رغم بساطة

إنتاجه وقصته، التى جمعت بين طالبين جامعيين، غنى وفقيرة يحبان بعضهما، وتموت الحبيبة فى النهاية، المهم أن أشهر عبارة فى الفيلم تحولت وقتها إلى جملة يرددها الجميع " **الحب يعنى ألَّا تعتذر أبدًا** "، بداية أعجبتنى طبعًا وإن لم أفهمها جيِّدا، ولكن مع السنين بدأت فى الاعتراض عليها، ربما كان الكاتب يقصد أن الحب يعنى تسامحًا كبيرًا وغفرانًا للأخطاء، ربما كان يعنى تقبل الآخر بعيوبه، لكننى هنا أعود إلى فكرة الاعتذار، وهل يقلل من قيمة المحبوب أو هيبته، مثلاً أن يقول لمن يحبها أعتذر عن أى ألم تسببت لك فيه، لست أدرى، ولكن يبدو أن الرجال عامة فى العالم العربى يطبقون هذه العبارة، وليس مهمًا أن يكون السبب هو الحب أبدًا، فالرجال عندنا يعتبرون أن الاعتذار من شيم النساء، لا يجب على الرجال أن يقوموا به.

وفى نقاش مع زوجى ذات مرة حول هذا الموضوع أجابنى بمزاح: " صحيح فالرجال لا يخطئون أبدًا فكيف لهم أن يعتذروا ؟! "، ومررت الأسبوع الماضى بتجربة أخرى عززت رأيى، تسبب زميل فى العمل بمشكلة حين ترك برنامجًا كنا نصوره، دون إنذار أو اتصال لأن موعد التسجيل تأخر، ترك العمل وهو أحد المسئولين الأساسيين عنه، دون أن يكلف نفسه عناء حتى إبلاغنا، المهم أن الأمور تمت على خير والحمد لله، والأهم أن هذا الزميل لم يكلف نفسه حتى عناء الاعتذار، بل وصل به الأمر إلى اعتبار ما قام به خطأ مهنيًا لايستحق الاعتذار، وزميلى هذا مثله كثر، وأنا يستوقفنى كثيرًا هذا الأمر، فأنت تسير فى الشارع، ويسرع أحدهم فيصطدم بك وينظر إليك ويكمل

سيره دون اعتذار، أو يرفع أحدهم صوت الراديو أو التليفزيون ويزعجك، وإن تذمرت ونفذ طلبك، لا يعتذر عن أى إزعاج تسبب فيه لك، ولست أدرى ما السبب فى عدم وجود هذه الثقافة بيننا؟ ربما لأن حكوماتنا لم تخرج أبدًا بتصريح اعتذار، لا أذكر أننى قرأت مرة فعل تعتذر، إلا إذا كان عن تلبية طلب ما، أو إيجاد وظائف ما؛ أو حتى حل لمشاكل معينة، فهى تعد دومًا بالحلول " قريبًا "، وهى كلمة مطاطية تبدأ غدًا،وتنتهى عندما يأتى الفرج، وفى المنزل لم ينشأ أطفالنا وهم يسمعون الآباء يعتذرون لأمهاتهم " عفوا حبيبتى فأنا أثقل عليك بالأعباء " أو" عفوًا عزيزتى أننى ضايقتك دون أن أقصد " أو فى المدرسة، يصرخ المدرس ويضرب لأنه مضغوط أو متعب، ولا يسمع أبدًا تلامذته منه كلمة اعتذار تحت أى ظرف، تسير فى الشارع فيضرب السائق قربك كلاكسات دون توقف ولا يعتذر، أو يتعداك ويكسر الإشارة ولا يعتذر، فى الغرب يعتبرون الاعتذار موقفًا نبيلاً، ألمانيا اعتذرت لضحايا النازية،والفاتيكان اعتذر لضحايا محاكم التفتيش فى القرون الوسطى،وفرنسا اعتذرت عن استعمارها للجزائر، رغم أنها أضافت أبعادًا ثقافية عديدة فى البلاد التى احتلتها.

أما نحن فلم نقدم اعتذارًا واحدًا يذكر، لذلك لا أستغرب تصرف زميلى وعدم اعتذاره، فهو لم يَعْتَدْ عليه، أما أنا، فأعتذر لكل من أخطأت فى حقه فى أى يوم بقصد أو بغير قصد،وأعتبر فى الاعتذار رفعة وتحضرًا،مملكة أعتز بها وسأتمسك بها حتى ولو كانت أعذارى دائمًا،من طرف واحد، فقد قال رسولنا الكريم عليه أفضل

الصلاة والسلام محدِّثًا أبا أيوب الأنصارى رضى الله عنه " ولا تتكلم بكلام تعتذر عنه غدًا " " فإن أخطأت مرة فإنه " لا حليم إلَّا ذو كثرة،ولا حكيم إلَّا ذو تجربة " والأديان السماوية كلها تعزز ثقافة الاعتذار، ولكن ما يحدث عادة، إن زميلى وغيره كثيرين،تأخذهم العزة بالإثم،لأنهم ببساطة لم يتعلموا " فن " الاعتذار.

سكة السلامة

ذات مرة، ولا أحكى عن زمن مضى، فأبدأ بكان يا مكان فى قديم الزمان، وفى سالف العصر والأوان، وإن كانت الحكاية التى سأرويها تذكرنى بالماضى، بأمور نسمع عنها ونقول ياه، هل لايزال هناك أناس هكذا ؟ والحكاية ببساطة.... إن أختى كانت عائدة على طريق الساحل الشمالى ذات يوم مع صديقتها وأطفالها، وتعطلت بهم السيارة فى وسط الطرق... وبما أن أختى مثل معظم النساء لا تفقه شيئًا فى ميكانيكا السيارات، أو تغيير الإطارات، فقد وقفت مع صديقتها حائرة... لاتدريان مالذى يجب عليهما أن تقوما به... وحاولتا إيقاف سيارة للمساعدة إلاَّ أن الأمر كان صعبًا... لم تقف سيارة، وكانتا أيضًا قلقتين، فكيف توقف امرأتان سيارة فى وسط الصحراء لا تعرفان سائقها، فى زمن أصبح فيه كل واحد يخاف من أقرب الناس إليه؟ ويتوقع منه الخيانة أو على الأقل عدم الاكتراث، وعدم المبالاه، فالناس أغلبهم يتبعون مبدأ عش نذلاً تمت مستورًا، المهم، توقفت فجأة سيارة أمام سيارة أختى ودون أن تطلب، ترجل منها شاب فى مقتبل العمر، تاركًا فتاة يبدو أنها خطيبته أو زوجته فى السيارة، وسأل أختى عن مشكلتها، فأجابته ببساطة أن السيارة لا تسير، ولا تعرف

سبب العطل وبكل أخلاق كريمة، عرض عليهما اصطحابهما إلى أقرب ميكانيكى فى سيارته والعودة به كى يتعرف على أسباب العطل، ولم يكن أمام أختى من حلول إلاَّ الموافقة، ركبت السيارة وهى ترتعد خوفًا وتطمئن نفسها أن فى السيارة أمرأة أخرى، إذا لاينوى الرجل بها شرًا، ولمزيد من الطمأنة طلبتنى على هاتفى وحكت لى ما حدث كى أتابعها كل قليل على الهاتف، وسار بها الشاب، وعرفت منه أنه تخرج فى كلية الطب وينوى السفر للخارج لإكمال تعليمه، وأن الفتاة التى معه هى بالفعل خطيبته، ويبدو أن الطيور على أشكالها تقع، فالفتاة لم تتذمر من مساعدة خطيبها لأختى، رغم ما سوف يأخذه الأمر من وقت، كل هذا وأختى لا زالت غير مطمئنة، تكلمنى كل خمس دقائق، وتسألنى هل تعتقدين أنه فعلاً فاعل خير ؟ ألن أجد نفسى بعد قليل فى الشارع مضروبة أو مسروقة وربما أكثر ؟ ألن تجد صديقتها معها أيضًا فى مصيبة، وكنت أردد لها كلمات طمأنة وأنا فى عقلى تدور كل سيناريوهات أفلام الرعب من اختطاف وقتل وتعذيب، المهم أن الأمور سارت بشكل جيِّد، وأصلح لها الميكانيكى السيارة بل وبقى الشاب معه حتى اطمأن أن السيارة أصبحت تعمل، وأنها تستطيع إكمال طريقها إلى القاهرة، هنا شكرته أختى بشدة، وبعد أن اطمأنت أخبرته عن عدم تصديقها وجود أحد يساعد أحدًا فى زمننا هذا، وضحك، وقالت له: هل أنت من كوكب الأرض ؟ هل أنت من عجينة البشر نفسها؟ لأنه والحق يقال لو كان الوضع معكوسًا لما توقفت أختى لمساعدته، ربما لأنها امرأة وهو

رجل، واختلاف القوى فى أوقات كهذه من الأمور التى يجب أخذها بعين الاعتبار، وربما لأن الطبيعى أصبح هكذا، والشاب وما فعله يعتبر استثناء، لست أدرى، لكن الزمن تغير، كنا نسمع عن الكرم الحاتمى نسبة إلى حاتم الطائى الشاعر العربى الشهير، وكان الكرم دومًا مرادفًا للشجاعة ودليلاً على نزاهة النفس وسخائها، والأمثلة كثيرة فى الجاهلية والإسلام، وقد قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف " إن الله تعالى جواد، يحب الجود ويحب معالى الأخلاق " واليوم تراجعت فضيلة الكرم بشكل إجبارى بسبب الظروف الاقتصادية السيئة، وبسبب الظروف نفسها تراجعت فضائل كثيرة أخرى من بينها الشهامة، أصبحنا نقول: شهامة ابن البلد، والمقصود بالتعبير اليوم هو الفلاح أو قاطنى الأرياف، أما زمان فكان يقصد بالتعبير أى شخص يعيش فى بلدى أو حتى فى أى بلد عربى آخر، وكان يقال " أنا وابن عمى على الغريب " أما اليوم فالشعار هو " وأنامالى ياعم، ابعد عن الشر وغنى له "، وكلمة الشر لا يقصد بها المعنى الحرفى للكلمة، بل يمكن استبدالها اليوم " بالمشاكل " أو مايمكن أن يجلب أى وجع دماغ.

والقوانين تساعد كثيرًا على ترسيخ هذا المفهوم فلو عثر شخص على شخص آخر ملقى فى الشارع، ومصاب و ينزف وأخذه إلى أقرب مستشفى وشاء المولى أن يقبض روحه، يتهم المنقذ بل ومن المحتمل أن يسجن، لمحاولته إنقاذ روح إنسان، وإذا ماحاول شخص التدخل وفض مشاجرة لا ينوبه على رأى المثل إلاَّ تقطيع ملابسه،

وابنى من الناس الذين يضعوننى دائمًا فى مأزق، فهو يعتبر أنه ليس من " الرجولة " فى شيء البعد عن مشاجرة أحد أفرادها صديق، والحق يقال: هو محق، ولأننى كنت دومًا من الذين يؤمنون بفضائل مثل الشهامة، لم أمنعه وإن كنت أطلب منه أن يحترس إلى أن كانت ذات يوم مشاجرة فى النادى، فَرَدَ الكبار عضلاتهم على الصغار، وأرادوا تلقينهم درسًا، وكان ابنى فى فريق الصغار، لم يتدخل فى البداية فى المشاجرة، حتى رأى صديقه وهو يضرب ضربًا مبرحًا، فما كان من ابنى الهمام إلاَّ أن جرى للإنقاذ والمساعدة، وكانت النتيجة كدمات سوداء كادت أن تضيع عينه وعين صديقه، وذهبا إلى المستشفى وأجريت لهما الإسعافات اللازمة، المشكلة عندما عاد كانت بالنسبة لى كأم: هل أوبخه؟ أم أنمى فيه روح الشهامة؟ روح الدفاع عن الصديق وعدم الهرب وقت حاجته له؟ واخترت الحل الثانى، المشكلة أننا فى زمن اختفت فيه الكثير من القيم، الكثير من الصفات، الكثير من الشمائل.

أذكر مرة أننى كنت فى لندن وزلت قدمى بسبب الأمطار فوقعت على الأرض، وتناثرت أغراض حقيبتى حولى، وكان المارة يمرون قربى، ولا يعرض على أى أحد المساعدة، وصعبت على نفسى وقلت: لوكنت فى مصر لوجدت عشرات الأيادى تمتد لمساعدتى، هذا الكلام يعود لسنوات مضت، اليوم أصبح أهل مصر يشبهون كثيرًا أهل لندن، اختفى ابن الجيران الجدع، الذى يدافع عن جارته ويحميها تمامًا مثل شقيقته، فى زمن مثل زمننا هذا يصبح شخص مثل

الذى ساعد شقيقتى استثناء، لكنه مثل شراب كوب دافئ فى الصقيع، يدفئنا، ويجعلنا نؤمن أن الدنيا لا زالت بخير، ولو كان الخير قليلاً، فإنه لم يختف بعد، فدعونا لا نفقد الأمل، المشكلة أنه قال لأختى أنه مسافر للخارج، فلو لم يعد، يكون العدد قد نقص واحدًا فى بلادنا، وبقى أصحاب مبدأ: عش نذلاً تمت مستورًا،، دون لوم أوعتاب منِّى لهم، مع تفهم كامل للأسباب والظروف، ففى أحيان كثيرة تكون سكة السلامة أسهل، ونحن فى حاجة لمشاكل أقل، ولكن حذارى أن يتوغل الخوف فينا، فهو كالسوسة تنهش كل شيء فينا حتى أخلاقنا، وتصرفاتنا، فهل من علاج ؟

عن التحرش

فاجأتنى إحدى الصديقات بتعليقها على ما يقال إنه حدث فى وسط البلد أيام العيد، وأطلق عليه " هوس وسعار جنسى " ونعوت كثيرة أخرى، صديقتى بررت لمن فعل فعلته قائلة إن السبب يعود إلى الفتيات وما يرتدينه من ملابس ضيقة، وأخذت تسهب فى وصف حجاب الفتيات المودرن، وكيف أنهن يرتدين الباديهات التى تفصل الجسم، والقصيرة فوق البنطلونات الجينز الضيقة أيضًا، وبغض النظر عن اعتراضى الشديد على هذه النوعية من الحجاب، وعلى طريقة حجاب المراهقات بشكل خاص، وأنا هنا أستخدم الكلمة المتعارف عليها " حجاب "، وإن كان استخدامها خطأ فى موقع كهذا، فالحكاية يمكن اختصارها ب " غطاء الرأس "، أو غطاء الشعر وإظهار مفاتن الجسم، وتتعدد الأحجام أو تختلف المقاسات وطريقة اللبس واحدة، موضة وعادى أن تنتشر موضة بين الفتيات أو الفتيان، المهم أن هذه الموضة مزيج من آخر الصيحات العالمية، أضف إليها غطاء رأس تتفنن البنات فى وضعه، وهو إما أسبانى أو سعودى أو جنسيات أخرى، وإذا ما عدت إلى ما قالته صديقتى، وهو قول أقل ما يوصف به أنه صادم، خصوصًا أنه صادر من سيدة مثقفة خريجة

الجامعة الأمريكية، لذا فهو صادم أكثر، وهذا الاعتقاد، كنت أظن أنه اندثر، إلاَّ أنه للأسف يظهر فى كل مرة يقع حادث مشابه فتعلو أصوات، كنت أظن أنها فى الغالب ذكورية، لكننى اكتشفت مع الوقت أن النساء فى أحيان كثيرة أكثر قسوة على النساء من الرجال.

وحكاية وسط البلد، ربما فيها الكثير من المغالاة، لكنها تحدث بشكل يومى وهو ما يطلق عليه " التحرش "، وكى أكون أكثر دقة أقدِّم للتحرش وصفًا علميًا، فأقول إن التحرش يعنى اقتحام لحميمية الآخر، قد يكون هذا الاقتحام جسديًا، أو اقتحاما للمسافة أو المساحة، يعنى مثلاً عندما يعتبر رجل أنه من الطبيعى أن يلاحق امرأة، يكلمها، أو يضع يده عليها، وقد اقترح البعض أن تكون المسافة 45 سنتيمترًا، احترامًا لحميمية الجسد، وطبعًا هنا لا أقصد أن يمشى كل واحد بمازورة، و مقاس، ولكن أن يحترم المسافة التى من المفترض أن تكون بين الاثنين، وأنا هنا لا أتحدث عن المذكر فحسب، إذ يجب أن نوضح نقطة أن التحرش الجنسى من الممكن أن يكون من جانب النساء للرجال، صحيح أنه يطلق عليه أسماء أخرى، ولكنه فى واقع الأمر تحرش، إذا لا يجب على امرأة أن تستبيح لنفسها اقتحام خصوصية زميل و حميميته على اعتبار أنها امرأة، وتستغرب أو تستنكر لو تطاول عليها بلفظ أو حركة، والقضية فى رأيى تدل ضمن قضايا حقوق الإنسان، على احترام كرامة الجسد وحرمته، والمشكلة فى مصر خصوصًا أن النساء عندما يتعرضن لتحرش ما، يتكتمن تمامًا، فمن الممكن أن يضايقها زميل أو رئيس، وتصمت خوفًا من أن

تتهم، كما فعلت صديقتى، بأنها هى السبب، أو يتم التحرش فى المواصلات العامة والشوارع، ولو ذهبت واشتكت لقيل عنها قليلة الأدب، وأنا هنا لا أخترع أو أبالغ، فقد قالها لى مسئول كبير: السيدة المحترمة لا تشتكى، واستغربت جدًّا قوله، واستنكرته، والقانون هنا لا بد أن يتم تفعيله، على الرغم من أن أحكام الشريعة الإسلامية أو الشرائع السماوية، أو مبادئ حقوق الإنسان تحرمه، فهى تسمى جرائم ضد الآداب والأخلاق العامة وليس ضد شخص المعتدى عليه.

عقبة أخرى تظهر أمام المرأة، و يعتمد عليها الرجل بشكل كبير وهى الإثبات، كيف تثبت أن فلانًا هو الذى قام بملامستها، وإذا لم تستطع الإثبات يبقى الضرر المعنوى والنفسى الواقع عليها، ولست أدرى لماذا اختفت العقوبة التى كانت زمان؟ وهى حلق شعر من تشتكيه فتاة على أنه تحرش بها، كان يسير فى الشارع مفضوحًا، وكان ينظر إليه الجميع على أنه قام بعمل مناف للأخلاق، اليوم إن ذهبت فتاة تشتكى فى أى قسم شرطة من معاكسة أو تحرش، تسمع من المسئول كلامًا ساخرًا، أو يقال لها إن لديهم أعمالاً أهم.

وأسوأ أنواع التحرش تلك المرتبطة بسلطة، مثل تحرش المدير بسكرتيرته، أو تحرش الأستاذ بتلميذته، يستغل خوف الفتاة أو المرأة من نفوذه، وبالتالى اختيارها الصمت لاعتقاد راسخ أنها لن تجد من يأخذ حقها لها، وتخاف أن تفقد منصبها أو تواجه نظرة المجتمع، والعائلة لها، وعلى فكرة: التحرش ليس ظاهرة عربية، بل هى عالمية، ولكن القوانين فى الخارج شرعت بشكل يضمن للمرأة الحصول على حقوقها، وعادة يكون تعويضًا ماديًا كبيرًا، ولو أننا أخذنا

هذه الفكرة من الغرب ووضعنا غرامة مالية على كل من يثبت تحرشه بواحدة، وأنا أقول هنا يثبت، رغم صعوبة الأمر لقلَّ الموضوع كثيرًا، ولأصبح هناك رادع، ولا مبرر على الإطلاق لأى رجل فى عدم الزواج، أو عدم سعادته فى الزواج، أو أزمة منتصف العمر أو آخر العمر، وأنها تسمح له بانتهاك خصوصية المرأة، ولا مبرر لأية فتاة ترغب فى الحصول على وضع أفضل فى العمل، أو فراغ عاطفى، أو مشاكل زوجية فى الاعتداء على خصوصية الآخر. نتحدث ليل نهار عن الدين، ولا نفهم أن أساس الدين الأخلاق، لا أريد أن أبدو هنا كواعظة و لكن ما حدث فى العيد أيقظ لدى، ولدى كل واحدة سمعت بما حدث، مخاوف عديدة تأتينا فى كل مرة نوجد فى زحام، شارع أو مصعد أو وسيلة نقل عام، أصبحنا نحن النساء نخاف الوجود فى أماكن عديدة خوفًا من أى تحرش يسعد الرجل لحظة، ولا أفهم أى سعادة هذه، بل من المفترض على العكس أن يحتقر دنو نفسه، وتؤذى المرأة نفسيًا، ولو أنها بادرت برد فعل عنيف تجاه الرجل، تعانى من نظرات الآخرين لها، وأعود إلى ما بدأت. الحجاب ليس له علاقة بالموضوع، فهناك حالات اعتداءات كثيرة على المحجبات.

الفضيلة كلمة غابت عن قاموس حياتنا، وأصبحنا بحاجة إلى تهذيب غرائزنا، ومن يريد التأكد عليه سؤال موظفة من الجنس الناعم تستقل باصًا مزدحمًا، أو تسير فى شارع مزدحم، هذا إن رضيت أن تتحدث، فالسكوت فى أحيان كثيرة جريمة، ولكنه فى غياب القانون ترتكب كثير من الآثام، ويفر الجانى وتبقى الضحية تعانى قهرًا وإرهابا من نوع مختلف.

المساجد وأهلها

لا تعجبنى أحوال المسلمين، بقدر اعتزازى وفخرى وحمدى لله على نعمة الإسلام، بقدر غضبى من أحوال المسلمين اليوم، نتحدث عن الدين ليل نهار، ولا نفعل ما يأمرنا الله به، نهتم بصغائر الأمور ولا نتقى ربنا فى أعمالنا، نطلب المال ونسعى إليه دون اكتراث، بالأجر العظيم من عند الله، ندخل المساجد دون استعداد، فنجد بيوت الله والناس يفترشونها ويأكلون على الأرض، نسجد فنجد السجّاد وكأنه لم ينظف منذ زمن، أما خدام المساجد كما يحبون أن نطلق عليهم، فيستقبلونك باليد الممدودة، وبالنظرة الثاقبة، وكأنه يجبرك على دفع إتاوة زيارتك للمكان المقدس، ويقطع أية علاقة روحية تحاول أن تصلك بربك، دخلت مرة مسجدًا فى تركيا، وكان داخل زقاق صغير وسط سوق كبيرة، إلاَّ أننى خشيت أن تفوتنى الصلاة، وتركيا بلد علمانى الدين فيها فى القلب لو صح التعبير، ووجدت المسجد يشع نظافة ورائحة البخور تنبعث من كل مكان، وكأنه نظف للتو واللحظة، صليت ودعوت وسجدت وسعدت باللحظات القليلة التى قربتنى من خالقى، والدنيا تلاءٍ كما يقال، ولم يضايقنى أحد أو يمد يده لى أو يزعجنى برائحة الطعام المطبوخ، وأنا أحب

كثيرا آل البيت، وكنت فى الماضى أحرص كثيرًا على زيارة مسجد السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن أبى طالب، إلاَّ أننى فى الفترة الأخيرة قل ذهابى، ورغم شعورى بالاشتياق للمكان، والرغبة فى الجلوس هناك وقول الدعاء الشهير الذى يقرأ لصاحبة المكان، فإن وجود عشرات السيدات طوال الطريق يلححن عليك بالسؤال ويمسكن بك ويدخلن وراءك، ثم الدخول لتبدأ مرحلة أخرى من العاملين داخل المسجد، يطلبون منك الصلاة على النبى، وهم يمدون أيديهم، وكيف يقرنون عملاً قد يشفع لنا يوم القيامة بالتسول، واعتذر إلاَّ أننى لم أجد كلمة أفضل، وقد يتهمنى البعض بالغلظة، وبعدم تقدير ظروف الناس أو أحوالهم، إلَّا أن القرآن الكريم قال ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ .

وفى المسجد، نجد نساء ورجالاً لم تعرف المياه طريقها إلى ملابسهم أو أجسادهم منذ فترة، وهنا أيضًا سأتهم بالمظهرية، ولكن من قال إن هذا يتعارض مع الدين، النظافة من الإيمان، قول يجب أن ينفذ، والله تعالى لم يفرض علينا الوضوء خمس مرات إلَّا لأهمية النظافة، فتجد نفسك مستغرقًا فى الصلاة، وقربك طفل ممسك بالطعام، ويجرى، وقد يمسح يده فى ملابسك أوملابس من حولك، والأم مبتسمة تعلق " معلهش، ده طفل "، وهى جالسة باسترخاء وكأنها تجلس

فى حديقة عامة، أما خطباء المساجد فحدث ولا حرج، أصوات عالية وصراخ وخطب جمعة تنصب دومًا حول أهل النار وما أكثرهم، بل كلهن لو أخذنا كلام المشايخ صدقًا، سمعت مرة شيخًا يحدث الرجال فى المسجد طالبًا منهم إبقاء النساء فى المنازل، وجزاء المعصية ومصير المرأة، التى لا تصل طاعتها لزوجها لمرحلة ما قبل السجود، ولم يذكر كلمة عن المودة والرحمة، عن حسن العشرة والمعاملة، وأطفالنا بالطبع يذهبون للمساجد فصلاة الجمعة فرض، والجمعة للجمعة كفارة لما بينهما، وإن نجحوا فى فهم ما يقوله إمام المسجد بصوته العالى الحاد، فأى رجال سبصبحون، وكيف سينظرون إلى دين يحكم على أمهاتهم بأنهن سيدخلن النار لا محالة؟ كيف سيتربى طفل اليوم، رجل المستقبل؟ وهو لا يسمع من رجال الدين إلاَّ كل ترهيب وتخويف، كيف لرجال المستقبل أن يفخروا بدينهم ويواجهوا به العالم وهم محاطون دومًا بما يخيفهم ولا يرغبهم فى دينهم؟

المساجد من أحلى الأماكن والعلاقة ما بين الإنسان وربه ليست بحاجة إلى مكان، صحيح، إلاّ أن المسجد يبقى مكانًا مقدسًا تذهب إليه لتشحن روحك ونفسك، والإنسان دائمًا فى حاجة لمكان مقدس، حتى قبل الرسالات السماوية وجدت المعابد، و يعتقد الناس أن صوتهم يصل أعلى لو كان من داخل مسجد، وأن الله يستجيب أسرع لو أن الدعاء كان تحت قبة المئذنة، وأنا منهم، أشعر بالراحة حين أردد الدعاء فى المسجد، أشعر بلحظات قليلة من السلام النفسى لكن ما يحدث من عدم خشوع وعدم احترام الرغبة الإنسانية

البسيطة فى الخصوصية يمنع أية راحة، ويدفعك للهرب من المكان، لن أعود لمثال تركيا، فأقول: لم يحدثنى أحد وكان المسجد الصغير داخل الزقاق فى أحد الأسواق نظيفًا لامعًا، وأننى سعدت بصلاتى ودعوت، ولكننى فى كل مرة أدخل مسجدًا أذكر المساجد الأخرى، سيقول لى البعض إنهم من المريدين، طبعًا كلنا نريد مرضاة الله تعالى، ويقول لى آخرون: هم يعيشون فى حمايتها، ومن يحمى عبدًا غير الله سبحانه وتعالى، ويقولون لى رفقًا هم يبحثون عن لقمة العيش، والذين دومًا هو الحل، حتى لو تحوَّل المسجد إلى مقر للعمل، أرد فأقول: ونحن ؟ من نريد دخول المسجد آمنين؟ من يحب أن يعتبر زيارة المسجد عيدًا ؟، ومن يريد تعليم أولاده أن أماكن العبادة نظيفة وتحلو الصلاة فيها؟ ومن يعطينى أنا ما أحتاجه من سلام داخلى حين أزور مسجدًا وأصلي؟، أخشى أن يرد على قارئ بقوله " قرن فى بيوتكن "، ناسيًا أن الكلام كان لنساء النبى عليه الصلاة والسلام، أو ينتهى الوضع بتعليقات مشابهة، فأين أنتم أيها المسئولون عن المساجد؟ رفقًا بعباد الله الصالحين، وأتمنى أن أكون واحدة منهم.

حاضر

فى كل مرة يطل علينا عيد الأضحى، أتذكر حكاية سيدنا إبراهيم مع ابنه الذبيح عليه السلام، أعلم أن الرد سيكون " أمر طبيعى "، فكلنا نتذكر الحكاية خصوصًا يوم الوقفة، ونحن نسلم " سعد " إلى مصيره، و" سعد " هو الاسم الذى اصطلح إطلاقه على الخرفان. لا أعرف السبب إلاَّ أنه من المؤكد أن للاسم حكاية، لو عرفها أحدكم ليته يحكيها لى.

بالنسبة لى أذكر الحكاية لأسباب مختلفة، ولأكن أكثر دقة فأقول إن القصة أصبحت أكثر إلحاحا بعد زواجى، وإنجابى ابنى الأول مروان، فابنى مثل كثيرين من أبناء جيله، ممن يؤمنون بالحرية وممن يرددون شعارات عنها، يتحدث عن الاستقلال عنَّا وحلمه بالسفر إلى الخارج، وهو لا يعلم أنه بكلماته هذه يدمى قلبى كأم، يعاندنى ليل نهار، وعندما نتبادل من حين لآخر حوارًا هادئًا، وأسأله عن أسباب عناده الشديد يرد قائلاً: لست أدرى ولكننى أكره الانصياع لأوامر، أكره الشعور بأننى مقيد بقوانين خارج البيت و داخله، أنا باختصار عاشق للحرية، وندخل فى حوارات طويلة عن حدود الحرية، التى تنتهى عند بدء حرية الآخرين وأن أول بنودها الالتزام، وليصل جدلنا

إلى موضوعات دينية وواجب المسلم فى طاعة والديه، ويجيبنى ابنى بسؤال عنِّى: هل عندما كنت فى سنه كنت طفلة مطيعة ؟ فأصمت قليلاً كى لا أكذب، وأطلب منه عدم الإجابة عن سؤال بسؤال، باختصار: جدلى مع ابنى يتكرر يوميًا فى معظم البيوت فى العالم أجمع، وفى أمريكا وأوروبا فى سن معينة يقرر الأولاد ترك البيت والاستقلال، بل الأهل أنفسهم يطالبونهم بالعمل فى أحيان كثيرة لتحمل نفقات دراستهم، وتتوه العلاقات الإنسانية وسط خضم الحياة اليومية، هذا الجدل ليس له جواب أو حل، إلَّا أننى أنظر دومًا فى قصة سيدنا إسماعيل، إلى طاعته، وإلى الآية الكريمة التى جاء ذكرها فى سورة الصافات والتى تقول ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ** ﴾ .

وسيدنا إسماعيل ـ حسب ماذهب إليه الجمهور من العلماء ـ هو الذبيح، ويستندون إلى أنه إسماعيل وليس إسحاق على أكثر من أمر، أولها أنه ابنه البكر، والامتحان يكون بالابن البكر الذى جاء بعد شوق طويل، وأن إبراهيم عليه السلام قد عاش سلسلة من الامتحانات، أكثرها يتصل بالسيدة هاجر، وولدها إسماعيل حيث أسكنهما بوادٍ غير زرع مسلِّمًا أمرهما إلى الله، وعاش بعيدًا عنهما فى الشام ليزورهما على فترات، المهم أن الامتحان كان بأحد ولديه إسماعيل أو إسحاق، وسنذهب مع جمهور العلماء إلى أنه إسماعيل، ورأى أنه يذبحه، ورؤى الأنبياء أوامر، وأطاع الابن الذى

اختاره الله تعالى أن يكون هو الآخر نبيًا، ولعل فى طاعته لوالده ولربه قبله أهم ما رفعه إلى هذه المرتبة، طبعًا حاشا لله أن نشِّبه أولادنا بالرسل والأنبياء، أو نشبه أنفسنا بهم، فنحن جميعًا بشر خطاءون، نعيش لدنيانا أكثر مما نعيش لآخرتنا، إننى كأم وكبشر لا أستطيع إلَّا أن أتوقف عند صفة الطاعة، وهى حميدة عندما تكون للرب والأهل وأولى الأمر، حسبما ذكرت الآية الكريمة فى سورة النساء، وخبيثة عندما تكون صفة لصيقة بالإنسان فى حياته اليومية، تقتل شخصيته وآراءه وتخنقها.

أعود إلى ابنى وإلى سيدنا إسماعيل " الفتى الحليم "، أما سيدنا إسحاق فقد كان الفتى العليم، وأتمنى لو أن ابنى أخذ بعضًا من الطاعة، وهو الأمر الذى يردده كثير من الآباء معى، لو أننى بين الحين والآخر أسمع كلمة حاضر بابتسامة، حتى ولو لم يكن مقتنعًا لمجرد إسعادى، ثم أعود وأقول لنفسى: لكنك أنت من أردت دومًا أطفالاً بشخصية مستقلة وليست تابعة، لتعود كلمة حاضر لتصبح أحلى الكلمات وقعًا على نفسى وأتساءل: هل أطلب الكثير، قد تكون الإجابة فيما قاله جبران خليل جبران **" أولادكم ليسوا لكم، أولادكم ملك للحياة "** فأجد فى العبارة، رغم عشقى الشديد لجبران، الكثير من الظلم لنا، للآباء والأمهات، وأعرف أننا مهما وصلت قناعاتنا وثقافتنا كآباء تبقى بعض الأمور بالنسبة لنا أساسية، وعلى رأسها كلمة " حاضر"، وسأكتفى بها بين الحين والآخر.



3

أحوالنا ومشاعرنا

أنا شاب لكن عمرى ألف عـام

وحيد لكن بين ضلوعى زحـام

خـايـف ولكن خوفى منِّى أنـا

أخرس ولكن قلبى مليان كلام

وعجبــي

صـلاح جـاهيـن

رائحة المكان والزمن

تفوح من الأماكن روائح، وترتبط فى أذهاننا بالذكريات، وللكاتب الفرنسى مارسيل بروست رواية شهيرة، من المفترض أنها عبقرية، لكننى لم أنجح رغم مرور السنوات فى حبها، اسمها " **من ناحية سوان**" و سوان هو اسم شخص، ومع أننى أحب الرواية إلَّا أن عبقريتها بالنسبة للنقاد تكمن فى فكرة واحدة، هى المحور الأساسى الذى دارت حوله كل تفاصيلها، كيف أن رائحة فنجان قهوة أو شاى من الممكن أن تعيد إلينا ذكريات مختلفة لأماكن وأشخاص مختلفين، سواء بالسلب أم بالإيجاب، شعرناها مع محمود درويش، أحد أكثر الشعراء قربًا من جيلى، وأكثرهم عبقرية فى شعره السياسى والثورى بشكل خاص، وغناها مارسيل خليفة بصوته " **أحن إلى خبز أمى وقهوة أمى** " نشم رائحة الخبز تنبعث بين الأبيات، ونتمنى لو شاركناه القهوة المصنوعة بيد والدته، والغريب فى حكاية الرائحة والذكريات أنها فى الغالب، ترتبط بذكريات جميلة، وبحنينٍ ما إلى أمرٍ ما، أو شخص ما، أو مكان ما، مخبأ فى منطقة ما فى عقلنا الباطن، ونشعر - و هذا هو الغريب أيضًا - أن لا شىء فى حلاوة الذكرى، القهوة من يد والدة درويش أكيد أنها كانت مصنوعة من بن

محوج و مغلية على النار، إلاَّ أن اليد التى قدمتها أضافت إلى طعمها الكثير، وأنا أعتقد أننا نظلم حاسة التذوق فى مجتمعاتنا فنحن شعوب " تزلط "... نأكل و نأكل وكل لقاءاتنا على طعام، وكلها حول الموائد... لا نمضغ ونأخذ وقتنا، بل نبلع وبسرعة، مع أنه من أجل حياة صحية لا بد من الأكل بهدوء والمضغ طويلاً ومرات عديدة حتى يذوب، وصحيح نحن شعوب تعيش لتأكل، لا تأكل لتعيش.

وأعود إلى الذكريات، فأماكن طفولتنا ترتبط بالروائح بشكل كبير، أذكر جيِّدا الإسكندرية فى السبعينيات.. حى ستانلى الشهير حين كنت أقضى الصيف، وكان يأتينا يوميًا من يبيع الخبز بالسكر، كان يأتينا ساخنًا فنأكله فورًا ونشعر بسعادة غامرة، لا زلت أذكر طعمه، وأذكر المنزل وأذكر السعادة، إلَّا أن الطعم تغير اليوم، لم يعد الطعم نفسه، وأتساءل: لماذا لا ينفعل أطفالنا مثلنا بما كنا ننفعل به ؟

ومن الأماكن التى ارتبطت عندنا جميعًا برائحة: المدينة المنورة ومسجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، رائحة مسك.. تشم مثلها فى الكعبة الشريفة.. والقهوة فى باريس طعمها مختلف عن أى مكان آخر.. والشوكولاتة فى سويسرا هى الشوكولاته نفسها، الماركات نفسها، إلاَّ أن الطعم هناك مختلف.. ورائحة الزعتر حين تقترب من بعض الأفران فى سوريا مع الخبز يجعلك تقف وتسأل وتتذوق.. لماذا يتغير الطعم بتغير المكان ؟ وهل حالتنا النفسية هى التى تنعكس حتى على ما نأكل ونشرب ؟ وهل إحساسنا بالمكان يختلف من سن لأخرى ؟ يقال إن الإنسان عندما يتقدم فى

السن يقف أمام التفاصيل الصغيرة التى لم يكن يقف أمامها فى طفولته.. للأطباء النفسيين دائمًا تفسير للأمر ونقيضه.. أما نحن فنركض ونركض ونقول ياه.. " لسه حاندوق " مع أننا بركضنا هذا نفقد جزءًا من استمتاعنا بالحياة.. وعيشوا معى هذه التجربة للحظات.. أغمضوا أعينكم وتخيلوا مكانًا ما تحبونه، واستغرقوا فى التأمل مع مراعاة عدم فتح الأعين.. سوف تكتشفون أنكم ستنجحون فى العيش فيه.. بتفاصيله.. ورائحته... و سوف تعود إليكم الذكريات.. ابتسموا.. واحكوا لى.

عدو أم حبيب؟

لست أدرى إن كانت الصفة مصرية أو عربية؟ فأنا أحب أن أرجع الأمور إلى أصولها... ولو تحدثنا عن الأصول، وبحثنا فى أجدادنا لوجد كل واحد منا له جدًّا عربيًا أو تركيًا أو فرنسيًا أو حتى قوقازيًا... فقد خلقنا الله سبحانه وتعالى قبائل لنتعارف ونلتقى وننجب... وتختلط الجينات والألوان، لكن هناك بعض الصفات التى أصبحت تسيطر على الشعب المصرى، فى مفرداته اليومية والحياتية من بينها إطلاق الاحكام.. وأصبحنا جميعًا قضاة وجلادين، نتلذذ بإطلاق الاحكام على الآخرين، ونستمتع حين يشاركنا الآخرون الحكم، ولو لم يشاركوا نبذل كل جهودنا لإقناعهم، وكأننا نحارب من أجل قضية مصيرية، نطلق الأحكام ونصدقها.. ونرفض إعطاء الأخرين فرصة، بل ونصطاد الفرص لإثبات أننا على حق. فتجدنا نقول فلان فاشل، أو فلان بخيل، أو فلان سىء، بأية درجة. ونشيع عنه الصفة أو العيب، حتى يصدقنا الآخرون... و لأن الشائعة دائمًا تصل، فإن المتهم يعرفها ويبدأ مرحلة الدفاع عن نفسه، لنفى التهمة فيثبت للجميع أنه سخى حتى لو أرهقه الأمر ماديًا، أو يغير معاملاته مع الآخرين كى يقولوا لا والله إنه ليس على درجة السوء التى يصفونه بها... وهكذا.

وما بين الاتهامات والدفاع عن النفس نعيش، والناس يبنون حولنا سجونًا من الكلام والاتهامات، والأمر يصبح أسوأ حين يكون الإنسان مشهورًا.. فمن الأمور التى أصبحت لصيقة بالمشاهير أنهم متكبرون. صحيح أن الكثيرين متكبرون، ولكنك قد تجد إنسانًا عاديًا قد ضربه الغرور، كأن الشهير من المفترض أن يكون مغرورًا فى نظر الآخرين، ومتعاليًا وفى أحيان أخرى، مرتشيًا أو منافقًا أو متسلقًا... يعنى صعب أن تلصق صفة حميدة بالمشاهير، ولكن مايقال وهو أضعف السيئين: إذ يقال مثلاً: رغم شهرته فهو متواضع.. وكأن من أساسيات الشهرة الكِبْرَ.. ونحن لا نحاكم البشر على أساس أنهم بشر، بل نحاسبهم على حسب درجة غناهم، ومستواهم الاجتماعى وشهرتهم.. ونطلق أحكامًا عامة، ونقول كل الفنانين يشربون الخمر.. مع أننى أعرف فنانات يصلين الفرض فى وقته.. كل لاعبى الكرة لايقرأون وعلى درجة ثقافة محدودة.. مع أن الكثير من لاعبى الكرة قد حرصوا على الحصول على مؤهل جامعى.. وتطلق الأحكام وتسود.. فتقول الأم أنا لا أزوِّج ابنتى لمشخصاتى على طريقة أفلام يوسف بك وهبى، الذى كان ينهى أفلامه دائما بحكمة يصدقها المشاهدون ويشهدون له.

الناس أنفسهم الذين يطلقون الأحكام هم الذين يستاءون، قد يتعرضون لموقف مشابه.. وتجدنا من ناحية أخرى نبخل بالكلمة الطيبة.. فنخاف أن نعلن صراحة حبنا لفلان أو علان، كى لا نحسب عليه.. ونفضل أن نغلق على مشاعرنا الأبواب بالضبة

والمفتاح.. والكارثة أن هذا يؤثر على على مشاعرنا مع المقربين منا.. فنخجل من البوح عن حبنا لأصدقائنا ونتوقع دائمًا الغدر منهم.. ونطلق شعارات مثل: "لاتثق بأحد حتى لو كان أقرب المقربين إليك" و"عدوك ابن كارك و " ياءامنة للرجال ياءامنة للمية فى الغربال. وقد يساعدنا موروث الأمثلة الشعبية على التصديق.. أننا لايجب أن نثق فى الزوج أو زميل العمل أو المقربين... فكيف نعيش؟ ونفتح صفحات الجرائد فنجد عناوين مثل: إرهاب فلان، وديكتاتورية علان، ونحن هنا لانتحدث عن بوش أو شارون.. بل أتحدث عن أناس عاديين من أمثالى وأمثالك، ولكن شاء حظهم العثر أن يكونوا من المغضوب عليهم.. فكيف نعيش؟ولماذا هذا الكم من الغضب المكبوت داخلنا ؟ لماذا لا نفترض أبدًا حسن النية ؟ قد يكون السبب فى الزحام؟... قالها يوما " سارتر " " الجحيم هو الآخرون. "... فهم الذين يسطرون لنا حياتنا ويكتبون سطورها ونحن فى النهاية من البشر، ومهما بلغنا من قوة.. ضعفاء، صحيح أنه فى النهاية لايصح إلَّا الصحيح.. ولكن حتى يصح الصحيح تكون الخسائر قد تعددت والثقة ضاعت، وأصبح كل واحد يلتفت حوله.. خائفًا من إعطاء الثقة.. ويسأل نفسه دومًا.. ياترى.. عدو ولا حبيب؟

السعادة

يقول الأمير" عبدالرحمن الثالث "، وهو أحد أمراء الأندلس " لقد حكمت حوالى خمسين عامًا وكانت بين انتصارات وسلام ، كنت محبوبًا من شعبى ويهابنى أعدائى ويحترمنى حلفائى ، غنى ومجد وسلطة ومتعة كانت بانتظار إشارة منِّى، وعلى الرغم من كل هذا فقد اجتهدت فى عدّ الأيام التى شعرت فيها بالسعادة الحقيقية، ووجدت أنها أربعة عشر يومًا"، عبد الرحمن الثالث أشهر أمراء قرطبة وأشهر الأمراء الأمويين فى أسبانيا أو الاندلس، وصل إلى الحكم عندما كان فى الثانية والعشرين من عمره، وحكم مدة خمسين عامًا تقريبًا، وبدأ حكمه والعرب منهكون بالصراعات، وعاش يبحث عن معنى السعادة، وهو فى هذا ليس وحده، فمنذ الأزل وكل البشر يتساءلون عن معنى السعادة، واهتم المفكرون والفلاسفة بالموضوع، وعلماء النفس والاجتماع، والبشر العاديون السائرون فى الطرق.

قيل... السعادة لا تشترى بالمال... ولكن تصرف أموال كثيرة على دراسات فى الغرب للتعرف على أسباب السعادة... وقد قام أخيرًا أستاذ علم النفس فى جامعة هارفارد ويدعى البروفيسور "دانيال جلبرت" بتأليف كتاب حول السعادة، وبدأه بقوله إن

السعادة ليست بالبساطة التى يظنها البعض... وعندما سئل عن سبب اهتمامه بالموضوع لدرجة تأليفه كتابًا أجاب: "حوالى مئة بالمئة من التصرفات البشرية تقوم على أساس الوصول إلى السعادة، بمعنى آخر هذا هو جوهر معظم تصرفاتنا، ويقول البروفسور جلبرت إن العالم كله يتآمر علينا كأفراد، للتقليل من ذرجة سعادتنا.... ونحن نصارع كى نرفع الدرجة، ويمكن النظر للحياة على أساس أنها صراع ما بين القوتين.

والقرآن الكريم يقول ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ ... صحيح منذ اللحظة الأولى ونحن نحاول البحث عن السعادة... والنفس الإنسانية غاية فى التعقيد، ومع الدراسات النفسية ووجود علم للنفس، أصبحنا نرجع كل شىء للأمراض النفسية المتراكمة... نقص حنان، عنف من الوالدين أو أحدهما، أو اليتم... ويأتى الفقر أيضًا كأحد أسباب التعاسة... الاَّ أن الدراسات تقول إن الأغنياء ليسوا أسعد من الفقراء، قد يكونون على درجة أعلى من الطمأنينة إلاَّ أنهم ليسوا أسعد، وما يسعد شخصًا لا يسعد شخصًا آخر، وإن كان علماء النفس يقولون العكس، وهم أكثر علمًا منِّى بالموضوع، فلو كنت جائعًا وأكلت فأنت سعيد للحظات، ثم نشعر بالتخمة فيبدأ التوعك... وإن ذهبت فى أجازة فقد ترتاح وتسعد فى الأيام الأولى ثم تمل قليلاً بعد مضى فترة من الوقت، ثم تشعر بقيمة ما كان بين يديك عندما تعود إلى العمل... و يقول أحد المفكرين " النجاح ليس الطريق إلى السعادة... إنما السعادة هى مفتاح النجاح فإن أحببت

ما تعمله فإنك ستنجح فيه"، ويقول مفكر آخر " السعادة هى عبارة عن صحة جيِّدة وذاكرة سيئة "... أما جورج صاند – الكاتبة الفرنسية الشهيرة، واتخذت اسم رجل وارتدت ثياب الرجال(اسمها الأصلى أورو دوفان) وهى أحد أشهر كتاب القرن التاسع عشر، واشتهرت بتحررها الشديد ودفاعها عن قضايا ـ المرأة فكانت تقول "إن السعادة فى أن تكون محبوبًا " ويبدو أن جورج صاند كانت تبحث حقًا عن السعادة، لأنها أحبت الكثيرين وكانت علاقاتها العاطفية متعددة، أما هيلين كيلر وهى واحدة من أشهر المعاقين على الاطلاق، فقد كانت صماء وكفيفة إلَّا أن هذا لم يثنها عن الدراسة ، فقد درست الألمانية والفرنسية واللاتينية واليونانية وألفت كتابين ، كانت شديدة التفاؤل وتبحث أيضًا عن السعادة وقالت: " عندما يغلق باب للسعادة فإن غيره يفتح، إلاَّ أننا نستمر فى النظر إلى الباب المغلق لدرجة تمنعنا من رؤية الباب المفتوح أمامنا "... وأنا كنت دومًا أعتبر نفسى من الشخصيات التى تميل أكثر إلى الحزن... والمشكلة الأكبر... أننى لا أعرف التمثيل... وأشياء كثيرة تحزننى.... ولكن مع الأيام وهذه إحدى الحسنات التى نكتسبها مع السنين... أصبحت أبحث عن سعادتى فى أشيائى الصغيرة... فى ابتسامة طفلتى أو فى حديثى مع أولادى... فى كتاب أقرأه واستمتع به، وأتعجب من قدرة كاتبه على إيجاد عبارات تمتعنا... أجدها فى صلاة خشعت فى سجودى فيها... فى عمل أتقنته ووجد استحسانًا.... ولو أمعنا التفكير لوجدنا أن عدم إحساسنا المستمر بالسعادة، أو لأقل إحساسنا النادر

بالسعادة نعمة، فلو كان الجو معتدلًا مشمسًا طوال الوقت لافتقدنا الأمطار... ولوكان حارًّا لافتقدنا البرد... لكنَّ كلامى كله لن يمنع أن أظل أنا و بنو البشر أجمعين من المتسائلين عن معنى السعادة.... من الباحثين عنها... وأفضل ما قرأت من تعريفات عن السعادة ما قاله أرسطو منذ آلاف السنين: السعادة تنتمى إلى الاكتفاء الذاتى... أما أنا فأضيف: السعادة تكمن فى الرضا.... ولكن من يرضى... وعلى رأى شاعرنا صلاح جاهين

إيش تطلبى يا نفس فوق كل ده
حظّك بيضحك وانت متنكده
ردت قالت لى النفس: قول للبشر
ما يبصوليش بعيون حزينة كده
وعجبى

عدوك ابن كارك

فى سنوات عمرى هذه.. لم أنجح فى تكوين صداقات عديدة، فصديقاتى الحميمات لايتعدى عددهن أصابع اليد الواحدة.. بل أقل وهن درجات.. أولى.. وثانية... وثالثة.. حسب الظروف والجهود المبذولة من الطرفين، وحسب درجة اختلاف الرأى. فأنا لست من المدرسة التى تقول إن الإنسان يصادف من يشبهه فى كل شىء... بالتأكيد تكون هناك أمور أساسية، مثل الخلفية الثقافية والظروف الأسرية والحالة الاجتماعية.. هذه العناصر مؤكدة ولاجدال فيها.. ثم تختلف الأمور الأخرى، بمعنى أنه لا يجب على ربة الأسرة أن تكون صديقتها ربة أسرة.. فالمرأة العاملة قد تشعر بأنها تحقق مع صديقتها مالم تحققه فى نفسها، والعكس صحيح، تشعر المرأة العاملة أن ربة المنزل أكثر هدوءًا واستمتاعا بالحياة، وعطاء للأولاد.

وصديقة عمرى صاحبة المرتبة رقم واحد، ربة منزل متفرغة لزوجها وأولادها، إلَّا أنها مثال لحب الإنسان للحياة.. مفعمة بالحيوية وتشيع البهجة فيمن حولها أينما ذهبت، وتعيننى على أمور الحياة بحكمة أفتقدها فى كثير من الأحيان.. فرغم أننى الطرف العامل فى العلاقة فإنه يبدو أن الإنسان يولد بصفات (أو عيوب)

لا تتغير مع الزمن ولا تختفى.. واعترف أننى لاأزال أحمل الكثير من السذاجة التى لم تغيرها الأيام. أصدِّق.. وأتفاعل.. دون أدنى شك فى أية شبهة كذب أو ادعاء قد تكون موجودة... ونحن بشر وكلنا عيوب.. وهذا طبيعى.. صديقتى تقوم بدور الحكيم" (وليس المقصود هنا من يعطى حقن.. من وقت لآخر.. بالمعنى المجازى للكلمة بالطبع)، الذى ينصح وينبه.. ويستغرب من عدم اختفاء السذاجة رغم مرور السنوات.

من ناحية أخرى.. حاولت تكوين صداقات فى عملى.. ونجحت فى خلق علاقات طيبة.. علاقات ود لاتصل إلى حد الصداقة.. إلاَّ مع واحدة. جازفت واعتبرتها فى منزلة أعلى.. أو ربما الظروف هى التى هيأت ما كان.. فقد بدأنا فى الإذاعة معًا وكنا "حامليْن" فى الوقت نفسه، وسافرت وعدت.. وكانت المصادفة دومًا تجمع بيننا.. فبذلت معها مجهودًا قد لايكون كبيرًا، إلاّ أنه أكبر من أى مجهود بذلته مع أية زميلة أخرى. فأدخلتها حياتى وبيتى.. وهى أمور عادية لا أفعلها إلَّا مع من أرغب فى خلق علاقة بها شىء من الخصوصية.. إلى أن كان يوم.. اختلفت فيه مع قريب لى فى العمل.. فحاولت التقريب بين وجهتى النظر وكانت النتيجة.. هجوم حاد وغضب استغربته ولم أفهمه حتى يومنا هذا.. خلطت كل الأوراق وبعثرتها ونسيت علاقة سنوات فى لحظة.. ورغم تحصيناتى الكثيرة وترديدى المستمر أنه لا صداقة بين من يعملون فى مجال واحد، فإننى كنت أظن أن للقاعدة استثناء.. التجربة أعادتنى إلى أرض الواقع.. وكالعادة

ضحكت صديقتى ربة المنزل حين حكيت لها ماحدث متألمة.. حزينة وقالت: " أمر متوقع" وضحكت كعادتها من سذاجتى.. مرددة: "عدوك ابن كارك".. والأمر.. قد لايصل إلى حد العداء.. إلّا أنك تجد فى أية مهنة غيرة وتنافسًا، وكأن الآخر يأخذ كل حقوقى رغم أننى لو اختفيت من وجه الدنيا، فإنه لن يأخذ إلّا نصيبه.. نجامل بعضنا البعض، ونبتسم فى وجوه بعضنا البعض ونتبادل القبلات ونقيم حفلات أعياد الميلاد وحفلات الوداع والمعاش، نرسل باقات زهور ورسائل موبايل فى علاقات معظمها سطحية.. علاقات زجاجية أى حجر من الممكن أن يحطمه أو يخدشه، أو يحوله إلى فتافيت صغيرة يستحيل جمعها.

أشكر الله على وجود صديقة تعيننى وتعزز إيمانى بقيمة كبيرة مثل الصداقة.. وشكرًا صديقتى على تحملى كل هذه السنوات.. أما تجربة زميلة العمل التى كنت أعتبرها صديقة، فقد علمتنى رغم أنها آلمتنى درسًا مستقبليًا.. فإن كان لايزال فى العمر بقية.. فلن أردد ما قالته لى صديقتى الحكيمة عن عداء أبناء الكار الواحد.. فالعداء كلمة أرفضها.. والعداء عملية أيضًا من طرفين لن أشارك بها أو فيها أو فى صنعها.. زميلتى التى كانت صديقتى علمتنى أمرًا آخر بمنتهى البساطة أقوله: " من تلسعه الشوربة.. لابد أن ينفخ فى الزبادى".

نظرة وابتسامة

لماذا أصبحنا أكثر غضبًا.. لماذا أصبحنا أكثر تشاؤمًا؟... لماذا أصبحنا أكثر حزنًا ؟ نضحك ونخاف فنقول اللهم اجعله خير... فاجأتنى ابنتى منذ يومين حين قالت لى.. أحب ضحكتك هذه ياماما كثيرًا فلماذا لا تضحكين دائمًا؟... وأنا التى كنت اعتبر نفسى من المبتسمات المقبلات على الحياة... توقفت أمام العبارة وتساءلت: هل أنا وحدى من يشعر بضغوط الحياة ؟ ونظرت حولى فوجدت الجميع مثلى.. مرهقين متعبين خائفين من الابتسام، إلَّا فى حدود المجاملة أو التقرب واللطف.. لم أعتقد أن أحد أهم أسباب انتشار أفلام الكوميديا هى هذه الحالة العامة للناس، ولا أستطيع أن أحدِّد إن كانت هذه الحالة حديثة أم أننا نحب الحزن منذ الأزل.؟ القراءات تقول إن الفراعنة اهتموا كثيرًا بالطقوس الجنائزية، وبالحياة الأخرى والرحلة إليها عبر نهر النيل... والرسوم على الجداريات الأخرى ملأى بتخيلات الفنان القديم عما تكون عليه الحياة الأخرى... لا نجد أعراسًا أو ابتسامات بقدر مانجد حزنًا... ويقال عن الشعب المصرى إن دمه خفيف.. وهذا صحيح.. فأول النكات وآخرها تخرج من مصر.... وعلى الجنازات ننكت وعلى أنفسنا ننكت...

حتى انفلونزا الطيور بكوارثها... يوم إعلانها كانت مصحوبة بمجموعة من النكات... حتى على أعدائنا ننكت... " شارون الذى يرفض الموت خوفًا من لقاء عرفات وإجباره على تقبيله" .

ويقال إن استطلاعات الرأى تهتم كثيرًا بالنكات وتحللها لمعرفة نفسية الشعوب والحالة العامة... ما علينا.. فليحللوا كما يشاءؤن والنكات ستستمر... ولكن ما أستغرب له.. هو هذه الازدواجية مابين الحزن والميل له واستحضاره، وما بين انتشار النكات بشكل يومى... حتى فى علاقاتنا الشخصية... بخلاء... نبخل بالابتسامة ونبخل بالكلمة الطيبة... ومقارنة بسيطة تعطى مثالاً على ما أقول... علاقات المتزوجين ببعض... ادخل أى نادٍ... ستجد الرجال يقرأون الصحف أو يتحدثون إلى بعضهم البعض، والنساء مهمومات بالأطفال والجرى وراءهم... بينما الصورة المقدمة إلينا فى كل المجلات والصحف الأجنبية للعائلة بأن الرجل يحمل الطفل والأم قربه تبتسم، أو أن العائلة كلها تجلس فى حديقة توزع ابتسامات، ولست أدرى إن كانت حالة التجهم وبالتالى البخل المشاعرى قاهرية فقط أم أنها حالة عامة؟ إلَّا أن للتلوث الشديد الذى يحيطنا تأثيرا بالتأكيد على حالتنا النفسية، وعلى نفسنا (بفتح الفاء) فلقد ضاقت أنفاسنا من قلة الأوكسجين، والدليل أننا خارج القاهرة نتنفس ملء رئاتنا... والنتيجة... أن ضيق النفس يؤثر على السلوك.. ولكن مع هذا... ما دخل الابتسامة؟... صحيح أن العلماء أكدُّوا وجود 18 نوعًا من الابتسامات... إلَّا أن الابتسامة الصادقة هى الابتسامة

الحقيقية وسط هذه الأنواع... ويقال إنه لمعرفة مدى صدق الابتسامة يجب قياسها... فالصادقة تدوم أربع ثوانٍ بحد أقصى.. وإذا أردت معرفة مدى صدق ابتسامة الشخص الذى أمامك ما عليك إلَّا النظر فى عينيه... فعندما تكون زائفة فإن العضلات التى لايمكن التحكم فيها تبقى كما هى... وديننا يحض على الابتسامة... إذ يقول رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام" تبسمك فى وجه أخيك صدقة".. فقد كان ولايزال ويبقى دومًا لنا فى رسولنا الكريم أسوة حسنة... ويقول أبو الدرداء رضى الله عنه" ما رأيت أو ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا إلَّا تبسَّم ".

وفى حديث آخر عن عبد الله بن الحارث بن جزاء قال: " ما رأيت أحدًا أكثر تبسُّمًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم "... لكننا كعادتنا نأخذ من الدين القشور... حتى عندما نقوم بتدريس مادة الدين فى المدارس، يكون الأساتذة متجهمين ويسهبون فى الحديث عمَّا ينتظر أطفالنا من عذاب فى الآخرة، عملاً بمبدأ الترهيب، ويعتمد البعض على أن "كثرة الضحك تميت القلب" وهو حديث صحيح حسبما أعلم، إلَّا أننا لا نتوقف أمام " كثرة " ونستبدلها بأى ضحك... صحيح أن الحياة صعبة بضغوطها اليومية، وأننا لانعرف كيف نستمتع ونعيش فى فوضى... ولا نعطى لبدننا ولا لأهلنا ولا لأقرب المقربين إلينا ولا لأنفسنا حقوقها... نركض ونلهث فنتعب... ومع التجهم المستمر تبدأ علامات السنين فى الظهور بشكل واضح على وجوهنا.. ونصل إلى درجة أننا نتساءل إذا ما ابتسم أحد فى

وجهنا.. مالذى يريده منا بالضبط.. ما وراء هذه الابتسامة؟ ولنبدأ بالمحلات العامة... وهناك مثل صينى يقول: " الرجل بوجه غير باسم لا ينبغى أن يفتح دكانًّا".... ادخلوا دكاكين مصر ومحلاتها ومطاعمها... ولوطبقنا المثل لأغلقناها كلها... فالبائعون فى المحلات شديدو التجهم.. يلومونك أنك دخلت وأجبرتهم على القيام من مقاعدهم... يطفشّون بدل البيع... وكأنهم ينتقمون من صاحب المحل وزبائنه... ادخل أى مطعم... ولو اعترضت... وهذا حقك فأنت تعبان بالمال الذى سوف تدفعه... فسوف يحملك النادل الذنب، وأنك أنت من أساء الاختيار، ويرسل لك نظرات نارية تجعلك تأكل ما لايعجبك وتدفع فى النهاية.

يبدو أننا حائرون فى نظريات اقتصادية عن سبب تراجعنا اقتصاديًا، وتحول الصين إلى غول صناعى كبير... قد تكون الابتسامة أحَد هذه المفاهيم والنظريات... إلى كل أصدقائى... رجاء ورفعًا للروح المعنوية المسيطرة... وخروجًا من حالة التجهم العامة.. إضافة إلى الابتسامة التى طلبتها.. هل لى بمعرفة آخر نكتة؟

هلا أسقطنا الأقنعة ؟

لماذا نضع جميعًا أقنعة على وجوهنا ؟ لماذا لا يتصرف أى منا بشكل طبيعى كما يشعر ؟ لماذا نقيس ردود أفعالنا بالقلم و المسطرة و نخاف أن نطلق العنان لمشاعرنا.. ؟ نرد بحساب و نخاف أن يظن أو يعتقد أو.. أى فعل آخر بالمعنى نفسه، المهم أن الآخر الذى نتحدث إليه يأخذ علينا.. أو يصادقنا زيادة، و بالتالى قد يتطور الموضوع و يطلب منا شيئًا.. نخاف أن نبتسم فيرد الآخر الابتسامة ثم يستغلنا بشكل أو بأخر.. أو على العكس يتهمنا بالابتسام فيقول: يا بخته ماعندوش مشاكل و قادر على الابتسام.. و كأن الابتسامة أصبحت تهمة فى زمن كثر فيه التجهم بشكل كبير.. و حتى فى حياتنا اليومية نتحدث عن صداقاتنا، فنجد أنها ليست تلك التى قرأناها فى الكتب، خصوصًا كتب المطالعة عند الأطفال" .

الصداقة هى إحدى ضروريات الحياة " و أن أهم صفات الصديق " كتمان السر و مشاركته فى أى محنة ".. أما عن كتمان السر فلا أحد أصلاً يثق لدرجة إطلاع على السر، ولو فعل لندم و خاف حتى من أقرب الأصدقاء أن يفشى سره فى يوم من الأيام.. و المشاركة فى المحن تحدث، و لكن المشاكل تأخذ الناس.. أنا لا أنفى وجود

الصداقة.. بل على العكس أتحدث عن ندرتها، وإن وجدتها تصبح أمرًا وجب الحفاظ عليه بكل الطرق و الدفاع عنه تمامًا، كما لو كان لديك كنز أثرى نادر، وأنا أقصد كلمة أثرى التى تعنى من الماضى، و لكن قيمتها موجودة حتى اليوم.

و حكاية الأقنعة قديمة جدًّا.. و اكتشفها الإنسان الأول بفطرته.. فنجد أن الفن الإفريقى يركز على الوجوه و الأقنعة، و لهم فلسفة فى ذلك.. فهم يعتبرون أن الشخص بتفاصيل وجهه العادية لا يمثل الحقيقة، فالقناع يمثل الوجه الحقيقى للإنسان، حيث هو الوجه الذى لا يتغير،فالإنسان الطبيعى تتغير ملامحه و تتبدل و لكن القناع يبقى ثابتًا وهو يحتل مكانة خاصة لديهم.. و فى الصين قديمًا كانوا يضعون مساحيق على وجوههم تمامًا كالأقنعة، تجعل الرجال يقومون بأدوار النساء بسبب التقاليد التى كانت تمنع النساء من التمثيل.

وحكاية الأقنعة هذه تؤرقنى.. فأنا دائمًا أحاول فهم من أتحدث معه، وأجدنى دائمًا أسأل نفسى.. أى قناع يضع؟ وهناك فرق بين الرجال و النساء فى نوع الأقنعة المستخدمة.. فالرجال فى العمل يرتدون قناع الجدية و الحزم، و فى المنزل قناع الصمت أما أمام سيدة جميله فتتبدل الأقنعة و تتغير و فيها كلها عنصر واحد.. ابتسامة عريضة قد لا تفوز بها الزوجة فى المنزل، إلَّا فى المناسبات الرسمية والأعياد.. أمَّا النساء فأقنعتهن مختلفة.. تتراوح ما بين أقنعة التجميل من كريمات و مواد طبيعية، كالخيار و الجزر إلى الماكياج لإخفاء العيون المتعبة، والجفون المرهقة أو لمجرد إضافة تحسينات.. أما

الأقنعة التى أتحدث عنها ففى اعتقادى إنها أكثر تعقيدًا من أقنعة الرجال.. فعلى الرغم من أن المرأة دائمًا مهتمة بأنها صعبة الفهم على الرجل فإنها أكثر وضوحًا.. فهى أكثر تعبيرًا عن انفعالاتها و ردود أفعالها أكثر صراحة.. و إن كانت هناك نساء كالرجال.. يصعب اختراقهن.. من الداخل.

أعترف أننى ممن يضعن أقنعة.. و لكن ليس على وجهى.. بل على مشاعرى.. فأنا أحيط نفسى بتحصينات قوية تمنع أى اختراق شديد إلاَّ بإرادتى.. أما وجهى فهو مرآة لما بداخلى، وإن كنت لا أنفى استخدام الأقنعة.. لكن مشكلتى أننى أحب التصرف بعفوية رغم أننى أفاجأ بنظرات لائمة.. أشعر بأن داخلى طفلة لم تستمتع بطفولتها لذا فهى حزينة.. تقبع و تنظر إلى بلوم.. فأخرجها بين الحين و الآخر واضعة على جنب كل الأقنعة.. المشكلة أنه فى أحيان كثيرة.. أقرب الناس يستخدمون الأقنعة.. و أحاول تمزيقها.. أحاول فهمهم وعندما أفشل.. أحبط.. فأضع على وجهى قناعا من الثلج و البرود.. تمامًا مثل بقية البشر.. وأحزن.. أليس من الأفضل لو تركنا وجوهنا فى الشمس.. و دفء المشاعر لتذيب كل الأقنعة الباردة؟ أليس من الأفضل لو تصرفنا على سجيتنا دون اعتبار لنظرة أو كلمة عتاب؟ وأكمل كغيرى تغيير الأقنعة التى تسقط عادة بسهولة.. مع لحظة صدق حقيقية أعيشها؟ و تعود كلمات الشاعر محمود درويش لترن فى أذنى: " **سقط القناع عن القناع عن القناع** " و أخرج يوميًا مرددة لنفسى.. ترى أى الأقنعة يرتدى من سوف أراهم اليوم؟..

و عندما أنجح فى إسقاط قناع عن وجه، و تظهر الملامح الحقيقية سواء أكانت ابتسامة أو دمعة أو قوة أو ضعفًا.. المهم أنها لحظة صادقة.. أشعر بالانتصار وتسقط من على وجهى كل أقنعتى.. و من يدى ونفسى.. كل أسلحتى الدفاعية.. فهلا أسقطتم الأقنعة.. هلا تحركتم بقلوبكم لا بأقنعتكم ؟.. هلا كنتم أنفسكم.. لا ما يريده الآخرون منكم؟ أنا أفعلها كثيرًا.. صدقونى.. و ساعدونى، و ساعدوا أنفسكم كى نفعلهادائمًا.

عادى... ؟!

اذا سألت أحدًا ما عن أخباره اليوم أجابك "عادى"، وإذا سألته لماذا هو مكتئب.. رد " عادى "، وإذا سألـته لماذا هو سعيد، رد أيضًا "عادي".

"عادى ": هى أكثر الكلمات انتشارًا هذه الأيام، إذا انتقدت تصرف أحد، أجابك المدافعون عن تصرفه " عادى "، وإذا انفعل مراهق ودخل فى مشاجرة وأتيت أنت ولى الأمر لوجدت سيلاً من الهجوم عليك، ودفاعًا مستميتًا عن تصرفه "العادى"، وإذا أطال شاب شعره أطول من الفتيات، وحاولت إشعاره بأن الأمر منتقد، لنظر إليك مستغربًا ومستنكرًا ومرددًا لماذا؟ "عادى"، أما إذا شاهدت فتاة مراهقة أيضًا ترتدى بودى ضيق فوق بنطلون جينز تحتار كيف دخل فيها أو دخلت فيه، وفوق كل هذا غطاء للرأس أو حجاب، ودخلت معها فى نقاش عن مدى صحة حجابها لأجابتك "عادى".

"عادى " هى أكثر الكلمات انتشارًا فى حياتنا هذه الأيام.. كل شىء"عادى"، و اللفظ فى حد ذاته لا يشكل لى شيئًا، لا بل قل.. إنه يشكل.. فأنا من الناس الذين لايزالون يستنكرون وينددون ويفرحون ويحزنون ويملون الأمور العادية.

أستغرب كيف أثرت الكلمة على حياتنا بشكل كبير.. فأصبحنا نرضى بحياة عادية وبعلاقات عادية.. نرضى بما هو بين أيدينا فلا نحاول تغييره.. مهنتنا لا تعجبنا فنقول عادى.. كل الناس لاتحب مهنتها.. وهذا غير صحيح.. نشعر بأننا لانملك صداقات حقيقية، وأن علاقاتنا بمن حولنا أقل ماتوصف به هو السطحية، فنردد "عادى".. كل الناس هكذا، وهذا ليس صحيحًا، فبعضنا يمتلك صداقات قد تكون قليلة وتصل إلى أرقام مفردة.. إلَّا أنها حقيقية وليست.. عادية.. ننظر إلى الازواج فى أى مكان عام وهم يجلسون فى صمت، أو يحاورون أطفالهم فى محاولة لكسر حاجز الصمت، الذى يبنونه بينهم ويرتفع مع الأيام، ويتحول إلى جبل عالٍ يختبئ كل واحد من الزوجين خلفه خوفًا من سهام، أقصد نظرات غضب الآخر.. ويتعود الزوجان على الصمت، وعند السؤال عن الحالة تكون الإجابة "عادى".

على الرغم من أنك لازلت تستطيع أن تجد أزواجًا يتحاورون ويتحدثون ويتحدون ملل السنين.. فإن الأمر بالطبع بحاجة إلى جهد.. غير عادى.. حتى نشرات الأخبار.. ومشاهد الدماء والشهداء فى فلسطين والعراق أصبحت بالنسبة لنا.. عادى.. شاب يموت فى عز شبابه تقول: ياحرام.. بس عادى.. طلاق كل ست دقائق خبر عادى.. فيضانات وكوارث.. عادى.. شباب فى عمر الورد يدمن مخدرات.. عادى.. حتى نسبة المشاركة فى التصويت على الانتخابات كانت أقل من العادى، كل شىء أصبح " عاديًا".. لانندهش.. لانفاجأ.. مع أن الدهشة من المشاعر الإنسانية المهمة.

ولغويًا وضعت علامة استفهام وأدواتها درست فى المدارس ولم نتعود عند سؤال مثل " هل ذهبت إلى المدرسة اليوم؟ " أن تكون الإجابة عادى.. فمن المفترض أن تكون بنعم أو بلا.. وعلامات التعجب درسنا أنه يجب أن تصاحبها نبرة صوت تنم عن التعجب.. لا أن نتعجب تمثيلاً.. ثم نسخر قائلين.. عادى.. الكلمة حقيقة مستفزة.. لو قررنا التخلص منها قولاً وفعلاً لشعرنا بفرق كبير.. ولو رفضنا العادى والمعتاد.. لعادت إلينا الدهشة.. لأيقظنا مشاعر داخلنا كانت نائمة طويلاً.. لاكتشفنا علاقات كانت فى حاجة إلى جهد كى تنمو.. لتعبنا أكثر، هذا صحيح ولكنه التعب البعيد عن الرتابة والملل، التى تخلق حالة ركود تسببها كلمة عادى.

دعوة منى لنسف الكلمة والتخلص من تأثيرها السىء على حياتنا، وعلى حوارتنا ومشاعرنا وعلاقاتنا... دعوة إلى صداقة غير عادية.. وحب غير عادى، وزواج غير عادى ونجاح غير عادى، وباختصار حياة غير عادية،هناك شعار أعتبره عبقريًا وأردده دائمًا لأولادى ولمن هم حولى: لاتقلد... ابتكر.. أى باختصار لاتأخذ من الدنيا ما هو عادى، بل جدد. وطلب أخير إن كان لديكم أى تعليق أو وصف بعد قراءة مقالى.. أرجو أن يكون بأية كلمة تختارونها إلَّا "عادى".

Happy New Year

هل نحن شعوب محبة للنكد ؟هل نخاف من الفرحة فنضحك لنعقبها بعبارة "اللهم اجعله خير".. لست أدرى... إلَّا أن السؤال يلح على دائمًا فى مثل هذا الوقت من العام.. فترة أعياد الكريسماس ورأس السنة.. ففى الغرب يأخذ الاحتفال شكلاً رسميًا، إذ يوقد العمدة أو إحدى الشخصيات المهمة شموع شجرة الميلاد.. وأنوارها.. يتبادل الجميع كروت المعايدة المكتوبة باليد، ويضعونها تحت الشجرة فى منازلهم أو على مكاتبهم.. ويتحدث الجميع عن "روح الكريسماس "، وكيف أن الإنسان فى هذه الفترة يجب أن يتحلى بالأخلاق الحميدة، تمامًا كما كان السيد المسيح.. لدرجة أننى تعرفت أثناء زيارتى لألمانيا على شاب مصرى، قال لى إنه يحرص كل عام على تسوية أوراق الضرائب الخاصة به، فى فترة أعياد الكريسماس، لأن الناس تكون أكثر تسامحًا وابتسامتهم أوسع، وقدرتهم على التفهم أعلى، إضافة إلى إحساسهم بالسعادة لاقتراب موعد الأجازة... تأخذ البلد كلها أجازة ويتزاور الأهل ويلتقون.. وهى من المرات القليلة التى يلتقون بها... لأن الكريسماس يذكرهم بالروابط العائلية ومن لايلتقى عائلته طوال العام لابد وأن يلتقيها فى هذه

الأيام... الدنيا كلها تتحول إلى عيد بمظاهر وإنارة وإضاءة ولعب أطفال، وأحلى مافى الموضوع الهدايا.. يتبادلونها مرددين أن بابا نويل هو من أتى بها.

لو فكرنا فى التفاصيل الكثيرة التى ذكرتها، لوجد البعض أن السبب يكمن فى اختلاف الثقافات.. ربما هذا صحيح.. ولردد البعض الآخر إنهم شعوب مرفهة، لايعانون مشاكل مادية مثلنا.. وأبسط ردودى على الموضوع: رسائل الموبايل.. نحن ننفق أموالاً باهظة على رسائل الموبايل، فى كل المناسبات حتى فى "فالنتين" عيد الحب، رغم أنه قديس مسيحى تحول إلى رمز لعيد الحب.. فإننا مسلمون ومسيحيون نحتفى بالعيد، ونرسل الرسائل، وهو فرحة لكل شاب لكى يعرف عدد المعجبات به.. أو فرحة للتقرب من الحبيب.. ماعلينا.. نعود للكريسماس ورأس السنة.. الفرق بين رسائل الموبايل والكروت المكتوبة بخط اليد أن الثانية أكثر حميمية.. والأولى إلكترونية. أى خالية من العواطف.. ونحن بدلاً من أن نحول الأعياد إلى فرحة للقاء الأهل.. حولناها إلى فرصة للخروج والسهر. لأن حياتنا جميعًا غير منظمة أو مرتبة.. نلهث وراء العمل، فيستغرقنا ويأخذ حياتنا دون حتى أن نعطيه حقَّه علينا.. لأننا محبطون مجهدون نلقى باللوم دائمًا على الآخر أنه لم يبادر بالعطاء.. لدرجة أننى لاحظت أن رسائل الموبايل التى تصلنى تكون فى معظم الأحيان ردودًا على رسائل بادرت أنا بارسالها.. وأقول هذا عن تجربة.. ففى إحدى المرات قررت ألّا أرسل لأحد "مسيجات" وكانت

النتيجة عددًا قليلاً جدًّا من الرسائل.. "زعلت". ثم كعادتى أرجعت الأمور إلى أسبابها وقررت أن أكبِّر دماغى.. وأبادر بالإرسال وأفرح بما يأتينى من رسائل.. وأنا أعيش وسط عائلة تعودت أن تأخذ الطقس السعيد دون السؤال عن ديانته.. وهذه حال اللبنانين وأهل الشام.. وأمى منهم.. فورثت جيناتها فى هذا الموضوع.. فعشت طفولتى وفى بيتنا شجرة الكريسماس.. مع الحرص على الذبح فى العيد الكبير، وأكل البيتفور والكحك فى العيد الصغير.. حتى لايفهم من كلامى أن تأثيرات الغرب علىَّ أكبر.. وعندما كبرت وتزوجت وأنجبت.. حرصت على فانوس رمضان... وشجرة الكريسماس فى بيتى... وأولادي يسعدون بها كثيرًا.. ويفرحون.. وطوَّرت الأمر إلى تبادل هدايا رمزية.. بيننا.. سيقول البعض إنها بدعة.. وأنا أقول.. وهل يريد الله لعباده إلَّا الفرح والرضا ما المانع من أن آخذ أى تقليد مفرح وأقوم به؟ وماالمانع من أن أشرك الآخرين فى فرحى؟ ما المانع فى ألَّا نعطى للفرح جنسية أو هوية أو ديانة؟.. ألسنا كلنا نعيش باحثين عن لحظات سعادة قليلة تضىء حياتنا؟ عبد الحليم اختصرها فى عبارة " اديك عمرى بحاله وادينى الفرحة ياعين"... فى كلمات الأبنودى.. أيًا كان شكل هذا الفرح... ومهما قصرت مدته.. فهو مباح ومسموح به بل ومطلوب.

عن الكلام

لفت نظرى صديقى الشاعر الشاب، الذى يحرص مشكورًا على قراءة مقالاتى فى " المصرى اليوم " أننى أكرِّر استعمال عبارة " حتى لا يساء فهمى "، وكأنها أصبحت أشبه باللازمة لدى، والحقيقة أننى لم أنتبه للأمر، ولم أكن أعيه، لكنه دعانى للتفكير، ما الذى يجعلنى أكرر عبارة كهذه ؟ فاكتشفت أن تاريخ سوء الفهم الذى يسيطر على علاقاتنا وحواراتنا هو السبب، وأنا الذى كنت أعتقد أننى أستطيع أن أقول ما فى رأسى فى أى وقت، فى الواقع: أنا أفعل هذا طوال الوقت، ولكن فى أحيان كثيرة أصطدم بردود فعل من يحيطوننى حتى أقرب المقربين إلىَّ، وأسمع عبارات مثل: الوقت ليس مناسبًا، وهنا يبرز عنصر آخر: التوقيت، هل ما يقال فى وقت ما لا يصلح فى وقت آخر؟ والمجتمع كله فى حالة من حوار الطرشان كما يقال، وإن تحدث أحد وأسيء فهمه، فهذا لأن كل إنسان يفهم الآخر حسب نيته هو، أى: نية المتلقى، فلو أننى افترضت حسن النية لفسرت كلام المتحدث بما يحمله من معنى، ولو افترضت سوء النية فى محدثى لبدأنا مشادة قد تنتهى بخصومة، وما حدث لوزير الثقافة فيه الكثير مما أعنى، الرجل قال رأيه، حتى ولو كان ضد الحجاب، وهو حر، كفنان عبر عن

أن النساء زهور فاصطاده المتشددون برفض تشبيه النساء بالزهور، وبين شد وجذب، دفعوه للخطأ وجرجوره إليه، بل وقرر نواب مجلس الشعب جميعًا تنصيب أنفسهم حكامًا وقضاة، الغريب وعلى رأى صديق آخر شاعر، أن جلسة " الحجاب " حضرها كل النواب والوزراء، وتباروا فى الهجوم على الرجل والدفاع عن الحجاب، إلى حد اعتبار من هم ضد الحجاب ضد الأمن القومى، وفى اليوم التالى كانت جلسة مجلس الشعب الخاصة بمناقشة البرنامج النووى، ولم يحضر أحد، إلّا وزير واحد وعدد قليل من النواب، وإذا ما عدنا للكلام، فهناك العديد من الدراسات التى أجريت فى العالم كله حول هذا الموضوع، لدرجة أن بعض الأطباء النفسيين، نصحوا الإنسان أنه يجب عليه من وقت لآخر أن " يصوم عن الكلام "، بمعنى أن يختلى الإنسان بنفسه ليريح عقله الذى يعمل طوال الوقت، ما بين إيجاد عبارات منمقة لرئيسه فى العمل، وإيجاد العبارات الآمرة لأولاده فى المنزل، واللوم لزوجته المقصرة دومًا، وإيجاد النكات الطريفة لأصدقائه من الرجال دائمًا.

و للسكوت أو الصوم عن الكلام فوائد عدة، لذا تجدها فى كثير من الفلسفات الشرقية والأديان، وفى قرآننا الكريم قالت السيدة مريم ﴿ **إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا** ﴾ أى صُمْتُ عن الكلام إلى حد وجود حركة فى أميركا تسمى " **حركة الصوم عن الكلام** "، يتعهدون بالصمت يوميًا لبعض الوقت، بحثًا عن الاستقرار النفسى والهدوء، أعتقد أن حركة كهذه من الصعب جدًّا أن تنجح فى مصر،

فنحن شعب محب للكلام، فى كل وقت وفى أى موضوع، ولا أحد يقول أبدًا " لست أدرى "، ولو سألت أحدًا عن عنوان لاعتبر أنه من العيب ألَّا يدلك، حتى ولو دلك خطأ، وحكاية سوء الفهم هذه تجدها بسبب الفوضى المنتشرة فى المجتمع، فليس هناك " سيستم " على رأى إخواننا الإنجليز، الذين احتلونا ولم ينجحوا فى أن ينقلوا إلينا حبهم الفظيع للنظام، ونقلوا إلينا تمسكهم الشديد بالبيروقراطية، والمشكلة أيضًا أن سوء فهم الآخر لكلامى يعطيه الحق فى أن يحكم علىَّ، ويحاكمنى ويصدر أحكامه، بل وينقلها إلى الآخرين، ويبدأ الآخرون فى النظر إلىَّ بعيون من أساء فهمى، ويحاسبوننى على خطأ الآخر، الذى نصب نفسه قاضيًا وحاكمًا علىَّ.

ويبدو أن هذه الأمور قد أثرت فىَّ بشكلٍ كبير، بسبب ما أقرأه أو أعانيه فى حياتى اليومية من تعاملات يغلب عليها الافتراض، فكل من يفترض أن رأيه هو الصحيح، يفرض عليك رأيه هذا، وتكون المشكلة أكبر عندما يتعلق الموضوع بالدين، وتنصب المحاكم المكارثية، ويصبح كل واحد قيِّمًا على الدين و مدافعًا عنه، والدين عادة أفضل طريقة لجمع أكبر عدد من الأشخاص، حتى الذين لا يقيمون الفرائض أو يرتشون أو يكذبون، أو حتى لا يميطون الأذى عن الطريق، وربما من الأفضل السلامة، بمعنى اختيار سكة السلامة، وعدم الخوض فى موضوعات شائكة " حتى لا يساء فهمنا "، ولكن أية حياة هذه التى نغلِّف فيها أنفسنا بجدار من الصمت، ونضع أمام من هم حولنا حواجز وقيودًا، صحيح أن هنالك ما لاً يجب

أن يقال، وكنت أتحدث مع صديقتى فى هذا الموضوع منذ أيام وسألتني، ما الذى نقوله وما الذى لا نقوله ؟ ما الحدود المرسومة بين الأصدقاء ؟ واتفقنا على أمر أنه مع الأيام نكتسب خبرة بها نقوله، ونفرمل انفعالاتنا حتى لا نعطى من لا نريده أن يأخذ مساحة أكبر فى حياتنا، ونضع حدودًا لتعاملاتنا معه، ففى أحيان كثيرة، تكون الكلمات الطيبة فخًا، ففى إطار المجاملة نفتح أحيانًا أبوابًا مغلقة، وأخيرًا، وباختصار وبعد كل ما قلته، الحقيقة أن الإنسان أسير طبعه، قد يهذبه مع الأيام، بمعنى يغيِّر بعض خصاله السيئة.

الكلمة نور، وبعض الكلمات قبور، كما قال الشرقاوى فى مسرحية " الحسين "، إلَّا أن الكلمة مسئولية، والمشاكل الناتجة عن الكلام كثيرة، والمشكلة الأكبر عندما يعمل الإنسان فى مجال الكلمة، ويعتبر أن فى يده سلاحًا يستطيع استخدامه كيفما يشاء، ويفرح بنفسه وبقلمه ويبدأ فى الحديث عن خلق الله كيفما يشاء، إلى هؤلاء نقول فى حال كونهم لا يعلمون، فى سورة البقرة الآية 83 تقول " ﴿ **وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ وقال تعالى أيضًا ﴿ **مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ لو أننا التزمنا بهاتين القاعدتين لارتحنا من الكثير من سوء الفهم، ولا نعتبر أنفسنا قضاة، ونصدر أحكامًا على الآخرين، أما أصحاب القلم الذين يحولون أقلامهم إلى " بمب " يؤذى القلوب قبل الأعين فنقول:

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت ".

هتلر وراسبوتين وما بينهما

من أصعب الأمور فى الحياة التعامل مع الشخصيات الشريرة، مع أن كل الناس فى نفوسهم الخير والشر، وقد كتبت من قبل أننى عندما التقيت " بعزت حنفى " المتهم فى قضية النخيلة، أو امبراطور النخيلة كما يطلق عليه، وأجريت معه حوارًا بعد إلقاء القبض عليه قال لى: " إن الله تعالى هو خالق الخير والشر " و أنه ـ أى عزت ـ أحد مخلوقات الله الضرورية لاستقرار الكون واستمراره، لذا يجب أن نتقبله كما هو، وقتها توقفت طويلا أمام فلسفته، ومع اقتناعى بأن لله تعالى حكمة مؤكدة فى خلق الشر، إلَّا أننى يوميًا ومهما تقدم بى العمر لا زالت فى داخلى دهشة، لا تكل ولا تمل فى كل مرة أتعامل مع أشخاص شريرين أو أقرأ عنهم.

ولفظ " شرير " يذكرك بالسينما، "بمحمود المليجى" الذى يقال إنه كان طيِّبا للغاية فى الحقيقة، أو بكمال الشناوى فى المشهد الشهير فى فيلم الكرنك، أو بأفلام الهنود الحمر التى تغسل أدمغة الأمريكيين عن أصحاب الأرض الأصليين، ويصر الأمريكيون على إظهارهم فى صورة المجرمين و "الشريرين "، أعود إلى اللفظ، ومن أشهر شريرى التاريخ المعاصر هتلر، حاكم ألمانيا و المؤمن بالجنس الآرى،

والذى أدخل العالم كله فى حرب عالمية ثانية، هتلر، كان فنانًا فاشلا، يهوى الرسم، ورومانسيًا أحب "إيفا براون"، وتزوجها فى آخر أيامه وانتحر معها فى مشهد يذكرنا بروميو وجولييت، هذا المحب الرومانسى والفنان الفاشل، هو نفسه من تسبب فى مقتل أكثر من ستين مليون إنسان، هم ضحايا الحرب العالمية الثانية.

والسياسة هى دومًا الباب الواسع والذى يسمح بكل الشرور، لذا يقال فى الحب والسياسة كل شيء مشروع حتى غير المشروع، أنا ضد المقولة طبعًا، ولكن حياتنا و صحفنا مليئة بما يثبت صحة الشعار، فرافعوه كثر، ولعل "أشر" شخصيات التاريخ، أو أحد أكثرها شرًا، وأنا هنا أقدم أفعل التفضيل نظرًا لمهنته لا لجرائمه فحسب، هو راسبوتين واسمه بالكامل **"غريغورى يافيموفيتش راسبوتين"** ولد فى قرية ريفية فى سيبريا فى روسيا، ظهرت لديه قدرات خارقة فى مراهقته، إذ كان يستطيع أن يبرئ حصانًا من لمسة، لكنه اكتسب اسم راسبوتين ومعناها الفاجر، بسبب علاقاته الجنسية الفاضحة، تزوج وأنجب أربعة أطفال وكان كثير الشرب، وذات مرة اتهم بسرقة جواد ففر ولجأ إلى أحد الأديرة، حيث اتخذ صفة الرهبنة التى لازمته طيلة حياته، وبدأ جولاته وذاع صيته، وبدأ يكوِّن حوله مجموعة من الحواريين و الأتباع، وأصبح صديقًا لملكة روسيا وتوغل فى البلاط، وبدأ صراعاته مع قيصر روسيا و أقاربه، وقرر اثنان من أقرباء القيصر قتله، فدعياه إلى القصر للقاء واحدة من أجمل نساء روسيا، مدركين ضعفه الشديد أمام شهواته، وقدما له الكعك و الخمر

المحشوين بالسم، وقاوم الرجل الجبار، فأطلقا عليه النار و ألقياه فى النهر، وبعد كل هذا عندما انتشلوا جثته وجدا فى رئتيه ماء، مما يعنى أنه كان لا يزال على قيد الحياة عند إلقائه فى الماء.

وراسبوتين وهتلر شخصيتان مثيرتان للجدل، إلَّا أن أطماعهما كانت هى المحرك الرئيسى لكل ما حدث لهما، وأشباه راسبوتين على الأرض كثر، انظر حولك فى محيط عملك، ستجد المتملقين وهم ينتشرون فى كل المهن والمجالات، وهم أكثر من الهم على القلب، أما الأشرار، فعددهم والحق يقال أقل بكثير، فمن يتخلى عن ضميره ويبث سمومه لإيذاء الآخر، عددهم أقل، فهذا النوع من البشر يحتاج إلى عدة عناصر كى تتوافر فيه، أولها: نسيان الضمير، ويكون هذا إما عن طريق تخديره وإقناعه، أى إقناع ضميره، أن ما يفعله صواب، بل ويصل الإقناع أحيانًا إلى درجة إقناع النفس بأن ما يفعله هو لخير الأمة الإسلامية، و المسيحية، بل لخير البشرية كلها، وكأن البشرية توقفت أصلاً عند أمثاله، الأمر الثانى: الذكاء، وهذا أمر يجب أن نعترف به، فالأشرار عادة من الأذكياء، إلَّا أنهم يوظفون ذكاءهم فى تدمير الآخرين، بدلاً من بناء أنفسهم معتبرين أن صعودهم على أكتاف وجثث الآخرين انتصارًا، ومن هنا يشبهون هتلر.

الأمر الثالث والأخير أن الشرير عادة يصاحب الشرير، حتى يتحقق له ما يريد، فقد يعاديه قبل أو بعد اصطياد هدف، المهم أن يكون رفيق المرحلة، ويكون هناك فى العلاقة ذكى وأذكى، أو ذكى وغبى، والثانية تكون فى الأغلب لأنه يتحول إلى منفذ

لأوامر الأول، الذى يقنعه أن المصلحة واحدة بينهما هو فى حقيقة الأمر تابعه "قفة" فى الشر.

نظريات كثيرة كتبت حول الخير والشر، حول الصراع بينهما، حول غرائز الإنسان وكيف تتحكم فيه، إلَّا أننى مقتنعة بأمر واحد، عندما يسيطر الشر على الإنسان،على تصرفاته، يتحول إلى شخص مريض، لا يستطيع أن يتحكم فى غضبه وغيرته وحسده ورغبته فى تدمير الآخرين، صدقونى أنا لا أبالغ عند وصفى لهؤلاء، فقد صادفتهم فى حياتى، ليس كثيرًا فى الواقع، ولكننى عندما أجدنى أتعامل معهم لا أستطيع أن أمنع نفسى من التساؤل: هل من الضعف أن أتمنى لمثل هؤلاء الشفاء ؟ هل يجب أن أفقد ثقتى فى بنى البشر؟ و أعتبر أن بعضهم من أصدقاء إبليس، قد انتصر وسيطر على مقاليد الأمور؟

تصبح الأمور أقسى حين يرتدى الشر عباءة الغدر، ما الذى أقوله؟ الغدرمرادف للشر ولصيق به، حتى ولو اتهمت بالضعف، ليس من عادتى الدخول فى حروب صغيرة، و لمن يعانون من أمراض مماثلة، أقول: ربنا يشفى.

الدنيا ربيع

يحكى فى الأسطورة الإغريقية القديمة عن " بيرسفون " ابنة كبير الآلهة " زيوس" و "ديمتر " أو الأرض- أن "بيرسفون " كانت إلهة الربيع وتساعد أمها الأرض فى نمو الزرع.... الإنسان " هاديس " سيد العالم السفلى رأى " بيرسفون " وأعجب بجمالها الأخاذ فطلب يدها من أبيها زيوس، الذى رفض لخشيته من عصبية وعنف "هاديس"، فما كان من " هاديس" إلاَّ أن أخذها عنوة إلى العالم السفلى، ليجعل منها ملكيته... وحزنت " ديمتر " حزنًا شديدًا على رحيل ابنتها وتوقفها عن مساعدة الزرع على النمو، وبدأت تجوب الأرض بحثًا عنها... وبدأ الناس والحيوانات تشعر بالجوع... وأصرت " ديمتر " على عودة " بيرسفون " لها... وبدأت بممارسة ضغوطها على زوجها " زيوس " الذى اضطر للذهاب إلى " هاديس " يرجوه إعادة " بيرسفون " إلى الأرض، لمساعدة والدتها ثانية على زرع الأرض كى لايموت الناس جوعًا... إلَّا أن " هاديس " أعرض.. ورفض... فما كان من زيوس إلَّا أنه استشاط غضبًا وقرر ممارسة سلطانه وأعلن أن زواج " بيرسفون " لن يكون ساريًا إلَّا لو أكلت شيئًا من حديقة العالم السفلى... وعاشت بيرسفون أيامًا فى حزن شديد... وكان " هاديس " حزينًا لحزنها.. فأعطاها ثمرة

رمان وعندما أكلتها اعتبر زواجها من هاديس سارى المفعول وربطها بالعالم السفلى... وسمح " هاديس " لزوجته بالذهاب للأرض مع بداية كل ربيع ولأنها أكلت " الرمانة " كان لابد لها من العودة إلى زوجها فى موسم الحصاد ومع بداية فصل الشتاء.

كل مرة يبدأ الربيع، ومع أغنية سعاد حسنى الشهيرة الدنيا ربيع أتذكر هذه الأسطورة، حكاية حب وحرمان، وفيها الكثير من العناصر الدرامية، التى تصلح فيلمًا سينمائيًا، طبيعة جميلة، قصة حب وحرمان أم من ابنتها وهلعها عليها، ونهاية يمكن أن نعتبرها سعيدة بالزواج، رغم أن لى تفسيرًا آخر لست أدرى إن كان يسمح المختصون به "فبيرسفون" بين عالم سفلى فيه من الشر والظلام أنواع وأشكال... وما بين الربيع والزرع والورود وهى رمز للجمال.. تكون "بيرسفون" بالنسبة لنا رمزًا للإنسان بما يحمله داخله من صراع يومى، بين الشر والخير، وإن كانت آلهة العالم السفلى أيامها مقسمة مابين شهور تحت وشهور فوق الَّا أننا فى حياتنا اليومية نمر بمحاولات مزاجية أشبه بالفصول الأربعة، نبتسم ونسعد ونحن نوزع ابتسامات لمن هم حولنا، خصوصًا زملاء العمل والغرباء تمامًا مثل فصل الربيع.. وإن كان الربيع أصدق منَّا... ولا يحتوى على نفاقنا ومجاملاتنا.. وروده وأزهاره فيها من الجمال ما من شأنه إدخال السكينة إلى النفوس.. ونعود إلى منازلنا مختنقين من الأعباء ومن الزحام ومن التلوث... مثل حر الصيف... وترطب حياتنا كلمة حانية أو مثل النسمات التى تهب علينا على شواطىء بحر الاسكندرية، ومعها يجف العرق

ونأخذ نفسًا عميقًا مع ابتسامة رضا... أما الخريف ـ بتغير درجات حرارته ـ فهو ما أصبح معظمنا عليه.. كبرنا قبل الأوان.. وتساقطت أوراق كثيرة كانت تزين حياتنا.. أما الشتاء بزعابيبه فهو حالنا.. نصرخ فى الشارع لو توقفت سيارة أمامنا لتنزل سيدة عجوز تمر، وبدلاً من إلقاء تحية الفاعل نهب عليه بزعابيبنا.. ونصرخ فى أولادنا وفى أقرب الناس إلينا... نفرض على حياتنا مع الآخرين أحوالاً من البرودة والصقيع.. نضع الحدود لأننا نخاف أن يقترب منا أحد كثيرًا.. نكره أن نفصح عما بداخلنا.. نمتلىء بالعقد النفسية ونعتبر الآخرين مرضى ونحن وحدنا الأصحاء... البشر يشبهون الفصول الأربعة.. فى تقلباتهم المزاجية، إلَّا أن الشتاء والخريف أصبحا أهم فصلين... فقدنا إحساسنا بالجمال... لم نعد نتوقف أمام لوحة جميلة... أو شجرة مزهرة ونرى قدرة الله سبحانه وتعالى... لم نعد نبحث عن قطعة موسيقى نطرب لها ويحملنا خيالنا إلى أماكن أخرى... نركض ونلهث دون الاستمتاع بنعم كثيرة أنعم الله علينا بها... ننسى أن صغائر الأمور نعمة... قدرتنا على التذوق... نعمة قدرتنا على الشم والنظر والسمع... كل حاسة نعمة... قدرتنا على المشى... نعمة الركض.. نعمة أكبر... إلَّا أننا نترك كل هذا ونستنفر طاقاتنا فى التأفف والزفير.. ناسين النفس العميق والشهيق.

الدنيا ربيع... الجو ليس بديعًا مع درجات الحرارة المتفاوتة، والتراب المسبب للحساسية... ومع قلة الأشجار فى العاصمة واختفاء الزهور تقريبًا إلّا من المحلات.. وبأسعار ليست فى متناول

الجميع.. فحتى الورود أصبحت أغلى من مقدرة الإنسان العادى، وأصبحنا نغنى " ياورد من يشتريك " كثيرًا.. مع أن الدنيا ربيع... والربيع حيكت من أجله الأساطير.. رمز للفرح والجمال، لن أكتب عن الزهور فى الشوارع... والأشجار المزهرة... لأننى لم أجدها... إلاَّ أننى سآخذ من الربيع تفاؤله... وإحساسه المرهف... لن أبحث عن سماء صافية فى العاصمة... ومن أجل عملية الإقناع الذاتى بأن الدنيا ربيع... سأكتفى بأسطورة "بيرسفون " للتذكرة.. وتكملة عملية الشحن... سأضع موسيقى تصويرية... من ذهب... تردد الأغنية الشهيرة وأبحث فى الكتب عن صور "لفان جوخ" و "مانيه" وبقية الفنانين الانطباعين... لأن الفصول كلها فى القاهرة تتشابه... فأنا أريد أشجارًا وزهورًا... وجمالاً.. وحتى يتحقق هذا.. إن تحقق فى حياتى... سأعيش فى الأساطير... والخيال كان دائمًا فى حياتى نعم الرفيق.

النجـاح

معظمنا يسعى للنجاح... ولكن قد يصل إليه دون أن يعلم أنه قد وصل بالفعل، ويكمل حياته وما يبحث عنه بين يديه ولا يعرف... والإنسان دائمًا لايشكر ربه على النعم الكثيرة التى بين يديه، بل وينظر إلى مابين أيدى الآخرين متسائلاً متى سيحصل عليه؟ وقد قمتُ بجمع مجموعة من العبارات التى قيلت حول هذا الموضوع، لمجموعة من الكاتبات البريطانيات، فى تحقيق أجرى حول الموضوع... وأطرح عليكم النتائج المختلفة.... وأنا متأكدة من أن الكثيرين سيجدون أنهم يملكون أكثر من عنصر، وبالتالى يندرجون تحت بند الأشخاص الناجحين... وهم لايدرون.

النجاح لايقاس بحجم المال الذى يجنيه الإنسان، ولكن بحجم قدرته على اتخاذ القرار الصائب... تعتقد كاتبة بريطانية تدعى " تيرى ماكميلان " أن النجاح يقاس بقدرتك على أن تصبح شخصًا أفضل.. وقدرتها فى الإقلاع عن التدخين جعلتها شخصًا أفضل، فهى بالتالى إنسان ناجح.

الكاتبة "جين سميلى" الفائزة بأفضل جائزة أدبية فى بريطانيا "بوليترز" وهى تعادل الأوسكار بالنسبة للسينما تقول:

"النجاح هو أن تكون لك تطلعات عالية حتى لو بدت لك عند التطلع إليها مستحيلة" وتحكى كيف أنها منذ عشرين سنة التقت بناشر شهير وقالت له وكانت مجهولة وقتها... سأصبح كاتبة شهيرة... ووضعت حلمها نصب عينيها... فحققته.

كاتبة قصصيه تدعى (لورا هليونبرابند) وصفت النجاح بأنه يكمن فى عمل يمنحك السعادة... وتقول: "عرفت معنى النجاح بسبب رجل كان ناس كثيرون يصفونه بالفاشل... كان يعمل كجوكى أى فارس فى سباقات الخيل، التى تشتهر بها إنجلترا... كان طويلاً على غير العادة لمن يقومون بهذا العمل، وإمكانياته محدودة... لم يكن فارسًا همامًا أو متفوِّقًا، ونتيجة حوادث عدة تعرض لها كان يعانى عمى فى عين واحدة... رغم هذه المعاناة الشديدة فإنه أصر على الاستمرار فى عمله... عندما رأته الكاتبة وكانت هى أيضًا تعانى من الآم شديدة فى الأصابع تمنعها من عشقها الأوحد... التقطت صورته وقررت تعليقها أمامها وبدأت بكتابة قصة حياة الفارس رغم آلامها الشديدة".

كاتبة آخرى تدعى (آمى تان) قالت: عندما بدأت بالكتابة تصورت أن النجاح يعنى ألاَّ يوجه لى أحد انتقادًا... إلَّا أننى اكتشفت أنك لاتستطيع أن تتحكم فى آراء البشر... وبدأت أعتبر عملية الكتابة نفسها والقدرة عليها نجاحًا... القدرة على نقل ما بداخلك والتعبير عنه... والصدق والشفافية... فقطعة من روحك تنقلها على الورق المهم تجد معنى لما تقوم به.

كاتبة آخرى تدعى (كاترين هارسون): قالت رغم نجاحى فى العمل والزواج، ورغم تمتعى بصحة جيِّدة فإن أكثر ما أعتبره إنجازًا حققته فى حياتى آراه فى أطفالى... وتحكى الكاتبة كيف أنها لم تكن تنوى إنجاب أطفال، إلَّا أنها عندما فعلت ذلك وجدت أنها تحقق نجاحًا طيبًا فى تربيتهم... اعتبرت هذا الأمر هو أفضل إنجازاتها على الإطلاق، وأى نجاح آخر لايساوى كونها أمًّا جيِّدة.

فكرة النجاح... عند النساء تغيرت مع الزمن... فى الماضى النجاح عند المرأة كان يعنى زيجه مناسبة وعريس لقطة... صحيح أن المفهوم لم يتغير كثيرًا.. فالمرأة تحلم دومًا بزيجة مناسبة وبعريس مناسب... ولكن مع تذبذب فى المعايير بمعنى أن المرأة أصبحت فى العقود الأخيرة، تحلم بالحب وبعلاقة شراكة وتفاهم... كانت المرأة فى الماضى مطالبة بالتضحية بأحلامها وطموحاتها، من أجل أحلام وطموحات زوجها... أصبحنا اليوم نسمع عن رجال يكيفون ظروفهم مع ظروف عمل أو دراسة زوجاتهم... وإن كانوا أقلية... وشرط ألاَّ يتعارض هذا مع متطلباتهم الأساسية... يعنى تضحية كبيرة إلاَّ أنها تضحية بحدود وشروط نعم.

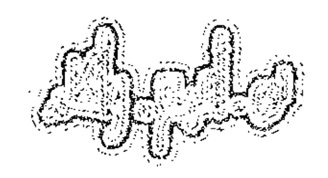
من ناحية آخرى نجد أن المرأة تلام لو لم يحقق أطفالها النجاح المرجو، مع أنها من الممكن أن تكون أمًّا صالحة، تقضى وقتها معهم إلاَّ أن المحيط كله بتأثيره الأقوى يجذبهم لتتهم الأم فى النهاية بالتقصير... المهم أن نجاح المرأة دومًا يقاس بنجاح من هم حولها... فهى مسئولة عن نجاح زوجها... فوراء كل رجل عظيم امرأة أشهر

المقولات... لم يخبرنا أحد عمن وراء نجاح المرأة... وكأن الأمر ليس بالمهم.. مطلوب منها أن تكون أمًّا ناجحة وزوجه ناجحة، ولو نجحت هى فإن إنجازها يعتبر من أعمال الرجل... صحيح أنه أخيرًا وربما لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى تغيرت النظرة... فالمرأة فى بلادنا فى أحيان كثيرة لا تعمل لتنجح، بل تعمل لتعول نفسها وعائلتها، وبالتالى قد تكون طبيبة ناجحة أو مهندسة متفوقة، إلاّ أن المطلوب منها هو أن تكون مسئولة عن بيتها وزوجها وأولادها، وإلاَّ فإنها تتهم بالتقصير... أضف إلى ما قلت يجب طبعًا أنّ تدلع وتطبطبً على رأى الجميلة نانسى عجرم... تربية الأولاد... نجاحهم أو فشلهم فى رقبتها، وكأن الأسرة اختصرت بالأم فقط... أعتقد أن جزءًا كبيرًا من نجاح المرأة سيتحقق لو أنها نجحت فى تغيير المجتمع.

أمور آخرى أعتقد أنها تعتبر نجاحات، والأمر هنا للزجل والمرأة على السواء... ولعل أهمها أن يقتنع الإنسان بما يجب أن يتنازل عنه، فليس من الممكن تحقيق كل شىء والنجاح فى كل الأمور... فليس من المعقول أن يكون الإنسان ناجحًا فى كل شىء... ويجب عليه تقديم تنازلات فى أوقات كثيرة كى يحقق المعادلة... ولكن ما يحدث عادة... أن الإنسان عندما ينجح فى مجال، يفقد قدرته على العطاء فى مجالات أخرى... خصوصًا الناجح فى عمله... يركز لدرجة أنه يهمل أسرته حتى لو ادعى العكس... يهمل واجباته الأسرية وإن قام بها فالجميع حوله يشعرون أنه يقوم بواجب ليس إلَّا... يفقد قدرته على التواصل مع شريكه سواء كان رجلاً أم أمرأة... وأنا أقصد هنا

شريك الحياة... مع أننى أتحدث عن العنصر الناجح من الاثنين... دون تحديد... والأهم يفقد قدرته على الحب... فعندما لاترى فى الحياة إلاَّ طموحك... تصبح ذاتك هى المحور، وتفقد قدرتك على الحب أو العطاء... تحذير لكل الناجحين والناجحات... التفتوا إلى شركائكم وإلى أولادكم... وإلى أصدقائكم وحاولوا أن تخرجوا من نطاق أنفسكم وطموحاتكم.

أما أنا... فأعتبر أننى حققت المعادلة بشكل كبير... أستمتع بكل لحظة أقضيها فى حديث عادى مع أولادى... فى مشاكلنا البسيطة... فى رؤيتهم يكبرون أمام عينى، والحب يعنى أن أقبلهم وأبحث بنرجسية أعترف بها عما أخذوه منى... أما العمل فأستمتع به أيضًا شرط ألاَّ يكون على حساب حياتى اليومية.... وعلى قبرى هل أود أن يكتب كانت أشهر لاعبة تنس؟ (السؤال للاعبة التنس الشهيرة مارتينا نافراتيلوفا) أجابت... " لا.... أود أن يقال عملت يوميًا بكل جد وأحبت بإخلاص... وكانت عادلة" . وأنا أيضًا... مع أننى لست أشهر لاعبة تنس فى العالم، ولا أشهر مذيعة إلاَّ أننى أيضًا عملت بجد وأحببت بإخلاص، وهذا هو النجاح... فالحمد الله.



4

شئون عربية

مين ياترى يسألهم
عن سلام الجبناء؟
لاسلام الأقوياء القادرين
من ترى يسألهم
عن سلام البيع بالتقسيط
والتأجير بالتقسيط
والصفقات والتاجر والمستثمرين؟
من ترى يسألهم
عن سلام الميتين؟
أسكتوا الشارع
واغتالوا جميع الأسئلة
وجميع السائلين

نـزارقبـانى
من قصيدة "المهرولون"

حزينــة أنــا

حزينة أنا لما يحدث فى لبنان.... أشعر بالأسى... ولست وحدى فى هذا.... أنا متأكدة. وفى كل يوم أشعر بانكسار أكبر... أخجل من نظرات أطفالى وأسئلتهم التى تقول لى: هل إسرائيل تفعل هذا كله من أجل تحرير جنديين أسيرين؟ والعرب صامتون على عشرات القتلى اللبنانيين، الذين يتساقطون الواحد بعد الآخر ومعظمهم من المدنيين؟ عائلة من اثنى عشر فردًا تحاول الفرار فتفر إلى قدرها ومصيرها والأعمار بيد الله... علَّه سبحانه يحسبهم شهداء دون أن نعلم إن كانوا مسلمين أم مسيحين... حزينة أنا... أفكِّر فى الرجل... فى حسن نصر الله... الذى يقف وحيدًا أمام عالم أجمع يدينه فى قضية هو مؤمن بها إيمانًا مطلقًا بعدالتها وبالظلم الواقع عليه، إدانات وتملُّص وتحميل مسئولية والرجل يقف متفرجًا، ساخرًا، مصرًّا، وأسأل نفسى، ما الذى يفكر فيه هذا الرجل؟ وكل ما يملكه فى الحياة بضعة آلاف ممن اتبعوه؟ وباعوا الدنيا واشتروا الآخرة؟ مؤمنين أن تحرير الوطن هو أسمى درجات الجهاد... مقتنعين أن الدنيا متاع زائل وأن الآخرة خير وأبقي؟.

التقيت منذ سنوات بعدد من قادة حزب الله، بعد تحرير

الجنوب، ولم تتح لى للأسف وقتها فرصة لقاء زعيمهم حسن نصر الله... كانت زيارتى قصيرة وكان وقتها متوعكًا... عرفت عنه الكثير، وأشهر حكاياته... أن ابنه مات شهيدًا أثناء عمليات التحرير... وقتها وقف أمام الجنود قائلاً: الآن أستطيع أن أضع يدى فى يدكم رافعًا رأسي، لم أعد أخجل من نظرات أمهات الشهداء فقد أصبح حالى من حال كثيرين منكم... ابنه كان شابًا يافعًا... يستعد للزفاف... لم يبخل به، وقدمه للوطن، أى أب هذا؟ أى قلب هذا؟ قلب رجل قرر وآمن ونفذ... فصدقوه، اتبعوه... وأتباعه كثيرون.

على الجهة الأخرى... نجد إسرائيليين... مؤمنين أيضًا وإيمانهم كبير بأنه يجب الحفاظ على إسرائيل دولة قوية، وعلى رأى بوش الذى تثير عباراته استفزازنا. من حق إسرائيل أن تدافع عن نفسها... من حقها أن تحارب من أجل أمان إسرائيل، من حقهم أن يعملوا جاهدين من أجل التمسك بما وصلوا إليه، دولة أقرب إلى الدول العظمى، محمية بدولة أعظم، و"الرك والباقي" ـ كما يقال فى العامية ـ على الذين لا طالوا عنب الشام ولا بلح بغداد، أو اليمن، لا أذكر المثل جيِّدًا، الرك والباقى كما يقال على من رقصوا على السلم، لا طلعوا فوق ولا نزلوا تحت، يحاولون التشبث بقوى واهية ويقدمون فروض الطاعة لها ويحاولون استرضاء شعوبهم المتعاطفة مع الشعوب الأخرى فى فلسطين والعراق، واليوم فى لبنان، وغدًا فى سوريا، وبعدها الله أعلم. وأستغرب ممن يؤمن أنه لو ربى فى منزله ثعبانًا سيكبر ويصبح خروفًا أليفًا ولن يقرصه، أستغرب ممن

يؤمن حقًا أن إسرائيل لا تحلم بإسرائيل الكبرى، وحلم من النيل إلى الفرات!! سألتنى ابنتى بخوف وهى تشاهد نشرات الأخبار: مصر قوية يا ماما، أليس كذلك؟ إسرائيل لن تضربنا كما فعلت مع لبنان؟ لبنان التى كنت أعد ابنتى لزيارتها قريبًا وأحكى لها عن جبالها وشعبها المحب للحياة والعمل، وعن طعامها وشرابها، لبنان الذى يذكرنى دومًا بشابة جميلة يأبى الزمان إلاَّ أن يجعلها تدفع ثمن جمالها غاليًا، حروب وراء حروب، أهلية بالاسم، دولية فى الواقع، أصابع وأصابع تدخل وتحرك وتدمر، والشعب يقع ويقف ويكمل مقدسًا العمل، مستمتعًا بالحياة، وهذا، بالمناسبة، جزء من تكوين الشخصية اللبنانية، فهم يقدسون العمل ويجتهدون إلاَّ أنهم أيضًا يعطون للبدن والنفس حقهما، يخرجون والطبيعة حولهم تساعدهم على تقدير الجمال.

وأجبت ابنتى إن مصر مرتبطة بمعاهدة سلام مع إسرائيل، فهذا على الأقل سوف يحميها، وإن كنت أعلم أن حكوماتهم لا تحفظ العهود، وأن بيريز مثل شارون وأولمرت وبيجين، سياسة مرسومة منذ زمن بعيد، أناس يخططون، يعرفون طريقهم جيِّدا، متماسكون، يعتبرون أن إسرائيل والولاء لها من الولاء لله،وتخطيط وتخطيط، ولمن لا يعرف فإن التخطيط عكسه الهرجلة، عدم التخطيط، والحجة بسيطة وسهلة، سيبها على الله، وبكرة ربنا يفرجها، وخلينا فى النهاردة، نسمع عن خطط خمسية أو بعيدة المدى، ونردد مصطلحات مثل الشفافية، وأنا هنا أتحدث عن أحوال كل البلاد العربية، فيا أخى كلنا فى الهم سواء، حكومات وراء حكومات تنظِّر ولا تعمل، ترفع

شعارات أوقات الانتخابات ولا نعرف بالضبط وأتحدى أن يعرف أحد أى توصيف سياسى عملى لأحوالنا.

حزينة أنا، إسرائيل تضرب لبنان، والسياحة هكذا ضربت فى لبنان، وحزب الله يقف وحيدًا، يلام لأنه بدأ، ولو كان، لو بدأ، فهل يستحق الشعب اللبنانى كله أن يتخلى عنه العالم العربى والأمم المتحدة ومجلس الأمن؟ باختصار العالم كله، إلى أن يجتمعوا ويدينوا ويشجبوا، سيكون العشرات قد ماتوا، ليتنى عشت فى زمن آخر، كان العربى يردد بفخر أنا عربى يعلِّم الهمج وقتها أوالأوروبيين والهنود الحمر أو الامريكيين الطب والعلوم والآداب، ما الذى حدث للعرب؟ ألم تؤثر فيهم قراءتهم للشعر عن الرجولة والفروسية، آه، نسيت أنهم لا يقرأون، أمة لم تعد تقرأ فكيف لها أن تعتبر من التاريخ أو الأدب؟ والتعليم فى أمتى فى الحضيض فكيف للأطفال أن يتعلموا؟ والمناهج حذفت منها قصص البطولات فكيف لأبنائنا أن يعتبروا؟ أبطالنا هم أبطال الأفلام الأجنبية وموسيقانا هى موسيقاهم، لا نتمسك بالتراث بل نضيعه فى وقت تحاول فيه دول اختلاق تاريخ لها، نسيء استخدام مفردات ديننا، ونقبل أن ننعت بالإرهابيين مطأطأى الرأس.

حزينة أنا لما يحدث فى لبنان، صور الرجال والأطفال وكبار السن وهم يركضون، يحملون الرضع،والضحايا يتساقطون، ومجلس الأمن لم يتحمل بعد مسئوليته الرئيسية طبقًا للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، فى اتخاذ الإجراءات لوقف العدوان، وبعد سنوات

من إعادة البناء من سيدفع للبنانيين التعويضات اللازمة لإعمار ما تم تدميره فى المطار والموانئ والجسور والمباني؟ أى ظلم هذا الذى يصمت العالم عليه؟ أى معايير تحكمنا؟ وهل أصبح أمثال السيد حسن نصر الله دون كيشوتات يحاربون طواحين الهواء؟ زمن عجيب، ليتنى لم أشهده، عرفتم لماذا أنا حزينة جدًّا اليوم.

أضغاث أحلام

ما الفرق بين المقاومة وأية حركة أخرى؟ أى زمن نعيشه؟ زمن الصامتين المتفرجين الذين يكتفون بمشاهدة التلفزيون مع تعاطف كبير وفقط؟ كل يعيش فى وادٍ... ويخرج الزعماء يخطِّئون من بدأ... حزب الله اختطف جنديين إسرائيليين.... خطأ كبير... أما هجوم إسرائيل على لبنان وتدمير المنازل وتشريد الأسر وتيتيم الأبناء فهو رد فعل طبيعى.... إسرائيل من حقها أن تدافع عن نفسها... بل وتزودها أمريكا بالصواريخ والأسلحة... والمعادلة محسومة حسب النظريات العسكرية... أمريكا وإسرائيل أقوى قوتين عسكريتين أمام مجموعة البشر... اختاروا المقاومة.... أسلحتهم ـ مهما وصل تعدادها ـ مؤكد أنها أقل بكثير من تعداد الترسانتين المسلحتين... ومؤكد أنها أضعف... إلاَّ أن الإيمان لدى الطرف الثانى أعلى.

أمام نشرات الأخبار.... وجدت نفسى فجأة أحلم... وقد حلمت وعيونى مفتوحة ولا يُسْتكثر علىَّ الحلم... أم أنه أصبح كثيرًا على بنى البشر الغلابة أمثالى... حلمت أن الدنيا أحوالها تغيرت.... فجأة عرف الرئيس بوش أخطاءه واستيقظ صباح يوم وهو المتدين الذى يقضى ساعات يقرأ كتبا عن المسيحية، فعرف أن الصهيونية

تحض على هدم المسجد الأقصى، لإيجاد هيكل سليمان، وتحض على إراقة دماء ودماء... استيقظ بوش ذات صباح... وقد أحس بأخطائه الفادحة فقرر اعتزال الحياة السياسية، والاعتذار للعالم أجمع.... ولأفغانستان والعراق وأخيرًا لبنان، فيداه ملطختان بدماء شهداء لبنان وأسرهم.

بل وتصل أحلامى فى أحيان كثيرة إلى أن شعوره بالذنب قد أصابه بالاكتئاب فيحاول الانتحار... إلاَّ أنه يتم إنقاذه فى اللحظة الأخيرة.... وهو يردد عذرًا.... عذرًا... وينحى كونداليزا رايس عن منصبها... وتقبل وهى تستشيط غضبًا متخلِّية عن ابتسامتها المعهودة التى تحتفظ بها، حتى وهى تقول تصريحاتها النارية، التى تكهرب الأجواء فى عالمنا العربى، والتى تتسم بالأوامر الصارمة.

وأكمل حلمى وكما اتفقنا لا يلام الإنسان على أحلام اليقظة... أو أى نوع من الأحلام... فالأحلام انعكاس لرغبات داخلية، صحيح، ولكنها مادامت تقف عند حدود الأحلام، فهى مسموح بها، وقبل أن أكمل أتوقف عند ما قاله السيد حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله فى حواره مع غسان بن جدو على قناة الجزيرة، قال له: أعلم أن زوجات الزعماء العرب وأبناءهم يشعرون بالتعاطف معنا، ومعنا الشعوب، وهى حقيقية، كل قلوب الشعوب العربية متعلقة بلبنان وبأهل الجنوب، والضاحية الجنوبية، وكل الأماكن التى تعرضت للقصف والضرب، كل قلوب الشعوب العربية تحلم، ومن هنا... أنا أقوم فقط بنقل أحلامهم وتحويلها إلى كلمات على الورق...

نحلم جميعًا... بالنصر.... بانسحاب إسرائيل... باعتراف العالم كله أن فى لبنان التى يصفها البعض بأنها نقطة على الخريطة شعب عرف كيف يتصدى... كيف يلقن الأعداء درسًا... كيف يأخذ بثأر الفلسطينيين والعرب جميعًا؟ وحكت لى شابة عائدة من بيروت كيف أنه فى كل مرة تمر طائرة فوق سماء بيروت، تهتز البيوت وتجفل القلوب ويشعر الجميع بالرعب وبأن الساعة حانت... وأن النهاية اقتربت... ويكتب لهم عمر جديد... إلاَّ أنهم لا يهنأون.... الأطفال على صرخة واحدة... وعائلات بأكملها تم تهجيرها فنزحت إلى بيروت، واستقرت فى المدارس والساحات.... والصليب الأحمر يوجه نداءات عبر برامج التلفزيون مطالبًا الأهالى بكتابة عناوينهم وأسمائهم على قطعة قماش، يربطونها على أيدى أطفالهم، لأن الكثيرين فقدوا وسيلة الاتصال بذويهم... ففى وسط المعمة والركض.... أصبح يقفز ويجرى من يجرى... ووسط الفوضى العارمة يضيع أطفال... صبيان وبنات... وأى ذاكرة سوف تحتمل كل هذه الذكريات المؤلمة؟ أى رجل سيصبح إذا تم خلعه من أهله بهذه الطريقة؟ أى نظرة للحياة نتوقعها من طفلة كانت تعيش سعيدة آمنة وفجأة استيقظت على أصوات انفجارات ودوى تُصَمُّ له الآذان وأمها تحملها؟ أو تحمل أخاها الأصغر وتهرع لا تعرف إلى أين؟ أى قانون فى العالم يسمح بما يحدث؟... مظاهرات فى أنحاء متفرقة... "وياجبل مايهزك ريح" على رأى الرئيس الراحل ياسر عرفات، ولو كان الاستخدام هنا مختلفًا.

إسرائيل مستمرة فى ضربها والآتى أسوأ حسب

التوقعات.... والأطفال الإسرائيليون يكتبون فوق الصواريخ الموجهة للجنوب... إلى أطفال حزب الله... وكأن الصاروخ سيفرق بين طفل سنى أو شيخ شيعى أو امرأة مسيحية أو حتى درزية؟ أى كره هذا الذى يتربى عليه الأطفال فى إسرائيل؟ فى الوقت الذى تضغط فيه على الحكومات العربية لعدم تدريس آيات الجهاد الموجودة فى القرأن الكريم فى المدارس؟ بل وفى وقت من الأوقات طلبوا حذفها من القرآن الكريم... فى الوقت نفسه الذى يطلبون فيه هذا منا... يقومون بتدريس أولادهم كل الآيات أو السور التى تحكى عن حقوق اليهود شعب الله المختار، والذى من أجله يجب أن تمحى الشعوب الأخرى، أو على الأقل تعترف بعظمتهم وبتفوقهم العسكرى والأيدولوجى والفكرى... إلخ... إلخ.

وفى الوقت الذى نتحدث فيه نحن عن دول عظمى تعلم أمريكا أولادها الاعتزاز بوطنهم وبالأرض الحلم.... وما الذى نعلمه نحن لأولادنا؟... الخضوع والمعونات والخلافات.... أحلام الوحدة العربية كلها لم تتحقق، وما تحقق منها لم يعش، فقد كان ابن موت، مكتوب عليه من البداية أن يفشل.

وأكمل لكم حلمى... فقد عدت إليه... أحلم بفرسان شجعان ينتصرون ويهزمون الجيوش الجبارة... يعيدونهم إلى أرضهم منكسى الرؤس.. وتقوم قومة العرب... ويشعرون بعد المرارة والانكسار بالفخر وياخوفى.... ياخوفى أن تأتى الهزيمة منّا فينا... بدلاً من مساندة المقاومة... نساند من يعاديها... نصالح من

يعاديها... نقدم السبت خوفًا من الأحد... يا خوفى... من انتصار يحوله العرب إلى هزيمة... ليس لدى إلا طلب واحد... أتى على لسان حسن نصر الله: إن لم يستطع الحكام العرب المساعدة أو على الأقل ليقفوا على الحياد... لا أكثر ولا أقل... أرأيتم... إلى أى درجة وصلنا؟ ومن أجل هذا فإن أمثالى... وهم كثير... يقتاتون بالأحلام... حتى يتغير الواقع... نصر الله لبنان... رددوها معى... فمع الحلم نملك الدعاء... وهو أضعف الإيمان... لعل الله سبحانه وتعالى يستجيب.

كلام قديم بمناسبة العيد

نتحدث هذه المرة عن موضوع قديم جدًّا، لدرجة أنه أصبح مكررًا ومملاً ومع ذلك لابد من الحديث عنه، لابد من الكلام حتى ولو كان فى صيغة التأفف، حتى ولو كان فى صيغة الاستنكار، حتى ولو قيل هذا الكلام مرارًا وتكرارًا لدرجة مملة، حتى ولو غامرت بألاَّ يكمل القراء المقال، ولكن فى كل عيد إسلامى نعيد ونكرر، والسبب فى الاختلاف، نحن العرب لا نتفق إلاَّ على أمر واحد: أن نختلف، وقد أصبحت هذه المقولة نكتة يرددها كثيرون ونرددها معهم، بل ونضحك أحيانًا ونحن نقولها، مع أن ترجمتها كارثة، ولكن شر البلية ما يضحك.

فى كل عيد نختلف لدرجة أننا نصوم فى بلد ونعيِّد فى بلد آخر، ونرفض الاعتراف بأى علوم مكتفين برؤيا العين ناسين التلوث والسحب، ذات الألوان الأخرى وثقب الأوزون وضعف البصر، الذى يتراوح مابين قصر نظر أو العكس، ولا زالت بلاد تأبى إلاَّ أن تعتمد على العين المجردة، والاعتماد فى هذا الإصرار على حديث نبوى شريف يقول: "صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته" مع أن الرؤية من الممكن أن تكون فى بلد دون آخر، ولو عدنا إلى الوراء

لاكتشفنا أننا عدنا إلى الوراء، بمعنى أن علماء الفلك والرياضة فى عصر الحضارة الإسلامية، من القرن الثالث الهجرى إلى القرن السابع الهجري، قد وضعوا قواعد ومعايير دقيقة للتنبؤ بالأهلة، أى بدايات الشهور العربية عند ظهور الهلال، واعتمدوا فى علومهم على تطوير المعايير البابلية القديمة، ولكن، ومع الضياع التدريجى لهذه المعرفة، عندما سقطت الدولة الإسلامية والعربية فى عصور الجهل والظلام، بدأت العديد من الدول الإسلامية فى الرجوع إلى تقويماتها التقليدية، كالتقويم الميلادى أو الصينى أو الهندي، مما أدى إلى حدوث خلل فى أسلوب التنبؤ بالتقويم الهجري.

وقد عرفت الحضارات القديمة علم الفلك، وصار لهذا العلم موقع خاص فى العصر العباسى إبان خلافة الأمين، بن هارون الرشيد، الذى كان شديد الاهتمام بالعلوم المختلفة وبالثقافة بشكل عام، وأثرى مكتبة بغداد عندما حرص على تزويدها بالكثير من المراجع والكتب المهمة.

وبعد زمن الأمين بحوالى قرن ونصف القرن، ظهر المرصد الإسلامي، وكانت مهمته إقامة الجداول الفلكية لكل الكواكب، ويعد القرن السابع الهجرى أهم حقبة، إذ تم بناء مرصد المراغة بالقرب من مدينة تبريز فى بلاد فارس، ولا تزال بقاياه موجودة حتى اليوم، ويقال إن من أنشأه هو "مانجو" شقيق هولاكو، وعهد إلى البخاري مهمة إنشائه وأسس حفيد تيمور لنك "أولغ بك" مرصدًا آخر فى سمرقند، سنوات من العلم والاستنارة، وبعدها

بدأت عهود الظلام، ولا زالت مستمرة، الإسلام فى عز حضارته اهتم بعلم كعلم الفلك، واحترم قواعده العلمية، وفى وقت من الأوقات كنت تجد فى المساجد عالم فلك، يقوم بتحديد مواعيد الصلاة من خلال إحدى الآلات التى ابتكرها العلماء المسلمون، لم يعد العلماء يبتكرون ولم يعد المسلمون يهتمون بالعلم أصلاً، وأصبح البعض يصوم فى يوم ويفطر إخوانهم فى بلاد أخرى.

وفى أحيان تتدخل السياسة خصوصًا إذا كان العيد يوم جمعة، والعام قبل الماضى 2005 استعددنا جميعًا أن أول أيام العيد سيكون الجمعة والوقفة الخميس، وفوجئنا بعد بداية شهر ذى الحجة بخمسة أيام أن العيد الخميس، والوقفة الأربعاء، وتضاربت التصريحات مابين مجلس القضاء الأعلى بالمملكة العربية السعودية، ودار الإفتاء المصرية، وارتبك الناس، وتغيرت الخطط، واختلاف الرؤية من مكان إلى مكان على سطح الأرض أمر طبيعي، بل ويؤكد عليه علماء الفلك، والتقويم الإسلامى أو الهجري، هو طريقتنا كمسلمين فى التأريخ، وبدأ مع هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، غير أن ما لا يفهمه كثيرون هو أن معظم التقويمات التقليدية تعتبر أن بداية الشهر القمرى هى الوصول إلى نقطة التزامن أو الاتزان ما بين الأرض والقمر والشمس، أى وقوعها على خط واحد مع وجود القمر بين الأرض والشمس، حيث يصبح القمر فى هذه الحالة غير مرئى تمامًا، وهو أمر يطلق عليه فلكيًا المحاق، وبالتالى لا يمكن رؤية القمر بالعين المجردة إلاَّ بعد سبع عشرة إلى عشرين ساعة من الوصول إلى

المحاق، أى حوالى ثلاثة أرباع يوم، وفى عام 1998 تقدم مفتى مصر السابق الشيخ نصر فريد واصل، بمشروع لبناء قمر صناعى إسلامى يهدف إلى التغلب على مشاكل رصد الهلال من فوق سطح الأرض، التى يتسبب فيها تلوث الجو والسحب وغيرها، وبالتالى يصبح من الممكن رصد مطالع الهلال بدقة، ويتحقق توحيد المواقف بين أنصار الرؤية الشعية أى بالعين، وأنصار الحساب الفلكى وبالتالى توحيد مطالع الشهور العربية، ولم يتحقق المشروع حتى اليوم على حد علمي، لا زال العرب يختلفون، والدنيا تسير، ونحن نعود إلى الوراء.

وكحال العرب جميعًا أجدنى أردد الكلام نفسه وأتساءل كما يتساءل كثيرون عن سبب ما نحن فيه، وأجدنى لا أرغب فى الدخول فى تفاصيل، فالحال لا تسر حبيبًا، بل تفرح قلب العدو، وسواء أكنا اليوم فى ثانى أيام العيد أم ثالثها أم نهاية العيد، فكل عام وأنتم بخير.

ختامًا، سأفاجئكم العام القادم، لو كتب لى عمر، وأكتب مقالاً عن الموضوع نفسه فأنا متأكدة من بقاء الوضع على ما هو عليه، أو فكرة أخرى، أحتفظ بالمقال وأنشره على حاله، فالأوضاع ستكون على ما هى عليه اليوم، إن لم تكن أسوأ، تفاءلوا.

صدام الإنسان

لا يستطيع أى متابع للنفس البشرية، إلاَّ أن يتوقف أمام شخصية الرئيس الراحل صدام حسين، ظروف حياته وتفاصيلها ليست بالعادية، ومن تابع نشأته سيكتشف كم المعاناة التى عاشها هذا الرجل، والتى شكلت وجدانه بمساوئها ومحاسنها، أنا دائمًا أهوى علم النفس وأحاول تطبيق قراءاتى وتحليلاتى فى حياتى العادية، وسأحاول اليوم أن أنقل صورة صدام حسين الإنسان، كما أراها من خلال استعراض ظروف حياته الشخصية ومحاولة فهمها، فالشخصيات المعقدة فيها نوع من التنوع، لا تجده فى الشخصيات المسطحة العادية المنتشرة حولنا، وإن كنتُ من المؤمنين أن من معجزات الله سبحانه وتعالى، خلق كل هذا العدد من البشر بمشاكلهم وعقدهم واختلافاتهم.

ولد صدام حسين فى قرية "العوجة" التابعة لمقاطعة تكريت لعائلة تمتهن رعاية الأغنام، وهذه المهنة تعلِّم صاحبها الصبر، والبقاء ساعات بانتظار غروب الشمس، لم يعرف صدام والده قط، إذ توفى قبل ولادته بخمسة شهور، ولحقه أخوه ذو الاثنى عشر عامًا، والذى توفى جراء إصابته بالسرطان، تاركًا والدته تعانى فى فترة

حملها الأخيرة، وكانت النتيجة أنها حاولت إجهاض جنينها "صدام"، وقتل نفسها، والأبحاث الآن تقول إن العوامل الوراثية ليست فقط، هى ما يحدد الطباع المزاجية للطفل، ولكن الأهم هى البيئة التى توفرها الأم لجنينها، وهو ما زال فى رحمها، وإذا ما تعرض فى هذه الفترة لضغوط نفسية مستمرة، فالأغلب حسبما تقول الدراسات، إنه سيكون طفلاً عصبيًا، تهدئته صعبة ولا ينام بسهولة.

وولد صدام وعاش طفلاً يتيمًا، وعانى مما يعانيه الأيتام من نظرات الشفقة أو العكس، الاستقواء على من لا ظهر له، وبعد ولادته تخلت عنه والدته وتركته لخاله خير الله طلفاح ليرعاه، ونتوقف هنا للحظات لنتخيل حياة طفل شعر أنه منبوذ منذ اللحظة الأولى، والدته التى من المفترض أن تعوضه فقد الأب، تخلت عنه فأصبح يتيمًا من الطرفين حتى ووالدته على قيد الحياة، كيف لطفل أن ينمو وهو يشعر أنه أشبه بمن قطع من شجرة وألقى فى صحراء جرداء، لا مشاعر دفء، بل رفض لوجوده أصلاً، وزادت معاناة الطفل عندما تزوجت والدته صبحة طلفاح للمرة الثانية، وأنجبت له ثلاثة إخوة، وكان زوجها إبراهيم الحسن يعامل صدام بقسوة شديدة عند عودته للعيش معها، أى طفل هذا الذى يتربى فى مثل هذه البيئة؟ لم يحتمل الطفل كثيرًا وانتقل وهو فى العاشرة إلى العاصمة بغداد للعيش مجددًا مع خاله، والذى كان سنيًا متدينًا، وكان له تأثير كبير عليه، لذلك فقد أعطاه هو وأقارب كثيرين من تكريت ممن أحاطوه فى سنينه هذه مناصب استشارية ودعمهم بشدة عندما وصل إلى الحكم، والتحق

صدام بالثانوية الوطنية فى بغداد، وفى سن العشرين وبدعم من خاله مرة أخرى التحق بحزب البعث الثورى القومى العربى، لتتغير حياته وإلى الأبد، وبدأ صعود صدام بعد أن قرر البعثيون اغتيال رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم، وأصيب صدام بطلق نارى فى ساقه ولاذ بالفرار إلى سوريا، ومنها إلى القاهرة ليعيش فترة فى حى الدقي، ثم يعود إلى بلاده ويصبح الرجل القوى والحاكم الفعلى للعراق، قبل أن يصل إلى الحكم بشكل رسمى عام 1979، والعراق من البلاد صعبة الحكم، تاريخه حافل بقتل الزعماء خصوصًا فى تاريخه الحديث، وحافل بالانقلابات العسكرية المتعاقبة، التاريخ يذكر الإطاحة بالنظام الملكى العراقى على يد عبد الكريم قاسم عام 58، وقتل الملك فيصل الثانى والعديد من أفراد العائلة المالكة، وبعد يوم واحد قتل قادة الانقلاب رئيس الوزراء نورى السعيد بعد فشله فى الهروب، ثم انقلاب عبد السلام عارف عام 63، وقتل قاسم فى غرفة فى مبنى الإذاعة والتليفزيون رميًا بالرصاص، ثم وفاة عارف فى حادث طائرة، وتسلم أخيه الحكم ثم الانقلاب عليه وانتخاب أحمد حسن البكر رئيسًا للجمهورية.

تاريخ مليء بالدماء لذلك كان لا بد لمن يحكم أن يتوقع الانقلابات فى كل ثانية، وأن يدير شئون البلاد بيدٍ من حديد، سمعت كثيرًا عن جرائم ارتكبها صدام حسين كانت أشبه بالأساطير، مثل قتله لمعارضيه وإعدامهم أو حتى قتله لصهريه بعد فرارهما إلى الأردن، وعودتهما بعد أن وعدهما بالأمان، وحنث الوعد، حروبه

الكثيرة والتى يعلم الكثيرون أن أمريكا كانت وراءها لكسر شوكة إيران والمد الشيعى فى المنطقة، زيارة السفيرة الأمريكية له و تطمينه أن باستطاعته غزو الكويت، لتلقى له بهذا أمريكا الطعم الذى أدخلها الشرق الأوسط بعد أن استغاث للأسف الحكام العرب بها، فهى المنقذ الوحيد، رسمت الخطة بإحكام ووقع مع صدام فى الفخ الكثير من الحكام العرب، على كل هذه قضية أخرى.

أعود إلى تحليلى لشخصية صدام، اعتماده على أمريكا القوة العظمى وثقته فيها، وهو الذى لم يثق فى أحد، دليل على سيطرة منطق القوة على حساباته، وما لم يأخذه بعين الحسبان، أن الأقوياء أيضا يمكرون ويخونون، فأصبح دمية بين أيديهم بعد أن وعدوه بالمساندة، وهنا يبرز إحساسه المستمر بعدم الأمان، بعدم الاستقرار، لو أنه اكتفى بإدارة شئون شعبه الداخلية لأصبح العراق اليوم واحدة من أقوى دول المنطقة، ولكنه الخوف من انقلاب أو إطاحة ومن تربى على عدم الأمان، لا ينجح مهما وصل إليه من قوة أو سلطة أن يتخلص من سيطرته عليه، ووقع العراق، ووقع بعدها صدام الذى رفض مغادرة بلاده، وهنا نجد أكثر من تفسير.

الأول: أنه خاف من خيانة.

والثانى: أنه احتمى بقريته وأهلها، وهم أهل تكريت الذين أحاطوه بعنايتهم فى شبابه الأول، وبدأت المهزلة التى أسميت بالمحاكمة، والتقيت بمحاميه الذين قالوا لى إنه كان يتصرف دومًا وكأنه لا يزال رئيسا لبلاده، لم يروا دمعة، واعتبرت الأمر

مبالغة منهم إلى أن شاهدت إعدامه على شاشات التلفزة، يحادث جلاديه بجلد، لم يهتز، ولم ينحن، وآخر ما ردده: فلسطينٍ عربية، وقلت لنفسى: تراه بعد كل ما ارتكبه وما ارتكب فى حقه لا يزال مؤمنا بما بدأ عليه حياته كبعثى ؟ وتساءلت: تراه كان يردد فى قلبه: هذا ما جناه أبى وأمى على ؟ ربما، والمؤكد أنه شخصية تستحق الدراسة، رحم الله موتانا جميعًا.

هوامش على محاكمة صدام

" مضت قرونٌ خمسةٌ

مذ رحل "الخليفةُ الصغيرُ" عن إسبانيه

ولم تزل أحقادنا الصغيرة

كما هي

ولم تَزَلْ عقليةُ العشيرةِ

فى دَمِنَا كما هِيَ

حوارُنا اليومى بالخناجرِ

أفكارُنا أشبهُ بالأظافرِ "

أذكر جيِّدا عام 91. كنت أحضر لرسالة الماجستير فى الشعر، واخترت وقتها موضوع شعر المقاومة فى مقارنة بين ما كتبه بعض الشعراء العرب من قصائد فى الموضوع، خصوصًا بعد حرب 67، وبين بول إيلوار، ولوى أراجون الشاعرين الفرنسيين الشهيرين، وما كتباه أيام احتلال فرنسا فى الحرب العالمية الثانية على يد النازيين، كنت أجد الفكرة رومانسية، وكنت شديدة الحماسة لفكرة العروبة واعتقدت أننى بمقارنتى سوف أبرز مشاعر حماسية،

واعتقدت أننى برسالتى سأسجل موقفا بطوليًا، ورومانسية شديدة بالطبع، أعترف أننى لم أتخلص تمامًا من رومانسيتى رغم مرور السنوات، المهم، أدركت وتعبت وكتبت وقرأت إلى أن كانت حرب الخليج، ودخل صدام حسين بقواته الكويت، وبدأ عبد الله الرويشد يغنى "بيتى وبيقول بيته" أشهر أغنيات الفترة، والكويتيون يقفون فى جامعة الدول العربية أمام محل ومبي، فى ذلك الوقت يبيعون الدنانير بتراب الفلوس، وفتحنا لهم بيوتنا وبدأنا نسمع عن قصص التجاوزات التى حدثت من جانب العراقيين، والغضب ينتشر فى كل العالم العربى من الرئيس العراقي، الذى استباح لنفسه بلدًا آخر، واعتبره محافظة جديدة يضمها إلى محافظاته، وأعلن صدام وقتها فى وسط هذا الغضب العارم أنه سيضرب إسرائيل ويمحوها من الوجود، ونسى الناس وقتها غضبهم منه ونسوا الكويت والكويتيين والتمسوا له كل الأعذار، وانتظروا، وكانت النتيجة صاروخ يتيم فى الهواء، فبدأنا نقول مع نزار:

" إذا خسرنا الحَرْبَ لا غرابة

لأَنَّنا نَدْخُلُها

بكل ما يملكُ الشرقى من مَواهِبِ الخَطَابَةْ

بالعنترياتِ التى ما قتلت ذُبَابة

لأننا ندخلها

بمنطق الطَّبْلة والرَّبَابةَ"

واتفق العرب ضد العراق، ليستدعوا الأمريكيين ويدخلوهم المنطقة ليعيثوا فيها فسادًا، ويستقروا فيها ويعيشوا فيها فى تبات ونبات، ويقسموها كما يشاءون ونقول لهم "آمين"، وكانت النتيجة أننى كرهت الشعر، وقطعت علاقتى به، وحتى يومنا هذا لم أستعد حبِّى لهذا الفن الجميل، لم أعد قادرة على الجلوس ساعات دون ملل وفى يدى ديوان، لقد ارتبط شعر المقاومة عندى بإحساس فظيع بالخزى من الموقف العربى من احتلال أو من جلب لمحتل.

وقلت مع نزار:

"يا وطنى الحزين

حوَّلْتنى بلحظةٍ

من شاعِرٍ يكتبُ الحُبَّ والحنينْ

لشاعرٍ يكتبُ بالسِّكِينْ

لأنَّ ما نحسُّه أكبرُ من أوِراقِنا

لابدَّ وأنْ نَخجَلَ من أشْعارِنا"

وأحسست أن ما حدث فى أفغانستان مسئولية العرب، وما تكرر فى العراق مسئولية العرب أيضًا، والحكم بإعدام صدام حسين مسئولية العرب أيضًا، وكى لا يساء فهمي، أنا هنا لا أدافع عن الرئيس العراقى السابق، ولو أن لى تحفظًا حتى على كلمة سابق، على اعتبار أن قوة أجنبية هى التى أزاحته عن منصبه، وليس شعبه، والقوة الأجنبية هى التى شكلت المحكمة التى قضت بإعدامه، وبالتالى فالحكاية أشبه بمن يذهب لإلقاء القبض على حرامى متلبسًا

إلاَّ أنه ينسى أن يجلب معه أمرًا نيابيًا، فيخرج المتهم بريئًا لعدم صحة الإجراءات، أو اكتمالها، وهذا ما يشعر به الناس جميعًا اليوم، أن محكمة صدام حسين ليست صحيحة، بل هى أمريكية أمريكية أمريكية، وبالتالى باطلة باطلة، ولو أُعْدِم سيتحول مع الوقت إلى بطل، لا أريد الدخول فيما حدث فى الدجيل أو الأنفال، فأنا لست ضد محاكمة صدام ولكن ضد محكمته الأمريكية، حتى ولو كان حكم القاضى صحيحًا فإنه لن يستطيع أبدًا أن يمحو شك الناس، وريبتهم من أن قراره كان بإيعاز أمريكي

"مالحة فى فمنا القَصائِدُ
مالحةٌ ضفائرُ النِّساءْ
والليلُ والأستارُ والمقاعدُ
مالحة أمامنا الأشياءْ"

والمشكلة ليست فى الوقت الحالي، ولا فى الحكم الذى صدر، المشكلة فيما ينتظرنا، فى الازدواجية فى المعايير فى بلادنا العربية، الكل يعتقد أن ما حدث لن يتكرر، فالدرس لم يُسْتَفَدْ منه، وكأن ذهاب بوش سيجعل المستقبل مشرقًا، المشكلة فينا كعرب أننا لا نخطط، ونعتقد أن الكون كله مثلنا، يعيش بفوضى وعنترية، وكأننا لا زلنا فى العصور القديمة

"خلاصة القضية
توجز فى عبارة
لقد أُلْبِسْنا قشرة الحضارة

والروح جاهلية"

أتساءل دومًا، لماذا نحن أقوام تتحدث ولا تفعل؟ نتألم كثيرًا ونستعمل كل الآلات الموسيقية من أبواق وطبول، آلات عالية الصوت، وفى الحزن نلجأ إلى الناى الحزين، ونبكى قربه، ما بال العرب دوما يسلِّمون ويرفعون الراية؟ لا أريد أن يفهم من كلامى على الإطلاق أننى أدافع عن صدام، فما حدث فى سجونه يضعه فى قائمة الطغاة الجبارين؟ وجر شعبه إلى حروب طويلة تستنزف الرجال والمال مع إيران ثم الكويت، أمور لا تغتفر، ولكن الشيء لزوم الشىء كما يقال، والأوجاع تصحو فنعيش على أمجاد الماضي، ونردد أيضًا مع نزار

"ومضتْ قرونٌ خمسةٌ

ولا تزالُ لفظةُ العروبةِ

كزهرةٍ حزينةٍ فى آنِيَةْ

كطفلةٍ جائعةٍ وعارِيَةْ

نصلبُها على جدارِ الحِقْدِ والكراهِيَةْ".

رحم الله نزار قبانى ورحمنا معه.

العراق

لم تتح لى حتى الآن فرصة زيارة العراق، فهى من المدن الحافلة دومًا بالأحداث.. ورغم وجودها فى نشرات الأخبار بشكل يومى منذ سنوات طويلة، فإن الفرصة لم تأت لزيارتها.. والتقيت أخيرًا فى لبنان بصحفية عراقية وكنا فى أحد المؤتمرات، وطلبت منها الكلام عن أحوال المرأة فى العراق.. وبدأت الكلام مجاملة دون تحضير أو تجهيز استجماع أفكار، وكانت النتيجة أن انفجرت فى البكاء حين تحدثت عن الموت الجاثم على قلوبهم، والموجود عند مفترق أى طريق وبدون ترتيب دخلت على الرقابة والمنع.. ثم حوادث الاختطاف، ورغم أنها لم تقدم ورقة بحث بالمعنى المتعارف عليه علميًا من خلال المؤتمرات.. بل قدمت مجموعة من الانطباعات الشخصية، فإنها بدموعها الحقيقية نجحت فى انتزاع تعاطف شديد من الحضور المتعدد الجنسيات.. والتقيتها وجلست معها.. سألتها عن الأحوال فى العراق فحدثتنى عن عمليات الاختطاف المستمرة، التى تحدث على يد الميليشيات المنتشرة.. تخرج فتاة صبية فى طريقها إلى المدرسة فلا تعود.. تختطف.. تغتصب.. وتقتل.. تخاف من العودة بعد أن أطلقوا سراحها فتكون النتيجة ضياعًا وعمرًا يذهب هباء.

سألتها عن زوجها.. فترددت فى الإجابة وكأنها توجست خوفًا منى.. ثم قالت لى إنه قابع فى المنزل.. لا يجد عملاً. لم آخذ إجابتها بالكامل على أساس جدى، فقد يكون الرجل مسجونًا، أو قد يكون متوفيًا أو على قيد الحياة.. ولكن أحوال الرجال والنساء فى بلد كالعراق كل الافتراضات فيها مجتمعة، وفى لقاء أخيرًا ما بين بلير رئيس الوزراء البريطانى، وبوش رئيس الولايات المتحدة الأمريكية اعترفا معًا بأخطائهما فى العراق وأبرزها أبو غريب..

كما اعترف بوش فى لحظة وصفت بأنها لحظة "ضعف" بأن من بين أخطائه لهجة رعاة البقر الفظة التى دأب على استخدامها فى أثناء حديثه عن المتمردين فى العراق.. وأردف قائلاً إنه أصبح يحاول استخدام ألفاظ أكثر رقيًا، والقول دائمًا سهل حين يقترب الرئيس من فترة حكمه الثانية والنهائية، وحين يكون رئيس الوزراء فى أسوأ مراحل حياته السياسية، لدرجة أن هناك توقعات بتنحيه عن منصبه لمصلحة جوردون براون وزير المالية الحالى.. والاعتراف بالخطأ لن يفيد العراقيين شيئًا.. إذ لم يتحدد بعد أى جدول زمنى لانسحاب القوات من العراق.. والعراقيون يعيشون مرحلة فوضى فظيعة.. سنة وشيعة.. سنة وسنة.. شيعة وشيعة.. مما يذكرنى بالحرب الأهلية فى لبنان، التى بدأت بصراع فلسطينى لبنانى، فتطورت إلى صراع مسيحى مسلم، ثم مسيحى مسيحى، ومسلم مسلم، حتى كان الأخ يقتل أخاه.

والاتجاهات، شعب قديم، شعب حمورابى صاحب الشريعة التى تحمل اسمه، وما أحوج العراقيين اليوم إلى أى شريعة تنظم العلاقة بينهم، شعوب بابل وآشور والكلدانيين ونبوخذ نصر، الذى يكرهه اليهود كراهية التحريم لأنه قام بإجلائهم من فلسطين فى السبى الأول عام 597 ق. م... وفى السبى الثانى الذى قاده بنفسه سنة 568 ق. م... العراق الذى كان العاصمة الثقافية والعلمية للعالم بعد الفتح الإسلامى لها، وكان مركزًا سياسيًا وعلميًا مهمًا. وأشهر خلفائها هارون الرشيد، الذى كان يحج عامًا ويغزو عامًا آخر.. وكان يصلى مائة ركعة فى اليوم.. ونسج عنه العرب الأقاويل، ولم يذكروا له إلاَّ أنه متعدد العلاقات النسائية وهو أمر مشكوك فيه تاريخيًا، إلاَّ أن هذا هو حال العرب دومًا، يصنعون الأساطير ويصدقونها، يميلون أكثر إلى الهجاء، ويعتبرون الثناء أمرًا خاصًا بالنساء.

العراق هو أول بلد عربى ينشئ انقلابًا عسكريًا فى تاريخ المنطقة العربية الحديثة، وهو انقلاب رشيد الكيلانى سنة 1939.. وحاول العراق الدخول فى وحدة مع سوريا ومصر، وفشلت ويبدو أن قدر العرب ألَّا يتحدوا، ووصل حزب البعث إلى الحكم ليعيش العراق ويذوق مرارة حربين من أكبر الحروب التى شهدها الشرق الأوسط، وكان غزو الكويت الذى أفقد العراق ما كان أنجزه فى مجال التنمية البشرية والاقتصادية، كما أفقده دوره الإقليمى الذى كان من الممكن أن يلعبه فى المنطقة.

سنوات من الانقلابات المتتالية والحروب؟ لماذا كان الاحتلال دائمًا يحوم ويجثم فوق قلب العراقيين بأشكاله المختلفة.. المعاصرة والقديمة؟ إلَّا أن الأحوال اليوم أسوأ بكثير، وصلت الأمور إلى حد ـ وهو أمر موثق من شهود عيان ـ أن أى إنسان من الممكن أن يتعرض للقتل، أى إنسان صادفه حظ عثر أو لنكن أكثر إيمانًا فنقول انتهى عمره، حتى فى لحظة خطأ فى مكان فيه قناص، ومن الممكن أن يقتل.

ولم يعد هنا من يعد أو يحصى مفقودين أو مقتولين لا يعرفون، ضحايا بالعشرات يتساقطون وأمريكيون ينفذون أوامر، وسيعودون إلى بلادهم من فيتنام أخرى، تقض مضاجعهم وتؤرقهم، وما الذى سوف يحكونه لأولادهم عن ذكرياتهم فى العراق؟ وكيف أنهم اعتقلوا أناسًا وعذبوهم وجرجروهم.. وعروهم.. سعداء بقتل أكثر ما يملك الإنسان.. الكرامة.. وخرج بعدها حكامهم يعترفون بأخطائهم فى العراق.. ومن سيخفف عذاب رجل أطلقوا عليه الكلاب أو امرأة قتلوا رجلها أو أم اغتصبوا ابنتها؟.. من يعوض على الشعب ما فقده أو ما سرق ونهب من مقدساته الدينية؟

كنت قد بدأت التعود على نشرات الأخبار المليئة بالتقارير من العراق.. لم أعد أتوقف أمام الجرحى والقتلى، لقائى بالسيدة العراقية ـ وأنا أقصد عدم ذكر اسمها ـ أيقظنى من ثبات تعودنا النوم فيه، وكم من الجرائم ترتكب بأسماء متعددة ومسميات مختلفة، هذه المرة.. الديمقراطية. وسلم لى على الديمقراطية.

حكاية لبنانية

بابتسامة على الوجوه، بترحاب شديد أحاط بنا الدرك اللبنانى... والدرك اللبنانى هو المرادف للشرطة... وسط إجراءات أمنية شديدة قمنا بتسجيل حلقتين من برنامجى الأسبوعى " القصة ومافيها " ولأننا أردنا أن نكون وسط بيروت اخترنا ساحة الشهداء... ساحة كبيرة اختارها قبلنا الشعب اللبنانى، كى تصبح نصرًا للحرب الأخيرة عليهم... وكعادتهم حولوا الدمار إلى جمال... أقاموا شجرة تشبه أشجار عيد الميلاد، فى إشارة كما فهمتها أنا إلى أن لبنان يولد من جديد... والحق يقال... أصبح لبنان يذكرنى بطائر الفينيق الذى كتب عنه الشاعر اليونانى هيرودوت، وقيل إنه عاش فى بلاد العرب وهو طائر رائع ونبيل عاش ما بين 500 إلى ألف سنة، وعندما أحس بالموت بنى محرقة جنائزية وغنى بشكل رائع أغنية سمعت فى جميع أرجاء الأرض... لدرجه أن الآلهة أنفسهم ـ حسب ما تقول الأسطورة ـ ابتسموا بسعادة من روعة الأداء، وبدأ صوت الطائر يخفت بسبب الآلم وجسده يتبدد فى المحرقة.

وأصبح الفينيق والعنقاء كما يطلق عليه العرب رمزًا للخلود والبعث... ويقال إن أسطورة الفينيق تعود إلى المصريين

لأن حضارتهم مرتبطة بفكرة الأبدية والبعث.. والطائر موجود فى حضارات عدة مثل الصين حيث يرمز إلى الاتحاد والسلام... وفى فلسطين موقعه كنعانية قديمة ترمز إلى الأرض التى سلبت وأبيد شعبها أو أخرج من أرضه... وعاد ليجدد انتماءه بدم شهدائه... وسواء أكان العنقاء أو الفينيق، فإن لبنان يولد من رماده فى كل مرة تحرقه نيران الحروب... فى كل مرة تقرر أيد أجنبية أن تعبث به وبأقدار أهله.

وإذا ما عدنا إلى الدرك... أو الشرطة فى لبنان أقول: شباب فى مقتبل العمر... يقف لحراستك دون إزعاج... دون أن تشعر به... دون أن يشكل عبئًا عليك... ملابسه نظيفه وشعره مهندم، وكأنه خارج لتوه من حمام بيتهم إلى العمل... وأثناء رحلتى إلى الجنوب... كانوا يقفون عند الحواجز، خصوصًا بعد هبوط الظلام يسألونك بكل أدب عن أسباب ذهابك أو عودتك، وعندما تقول لهم تلفزيون... لايسألون حتى عن أوراقك مكتفين بالكاميرا كمعيار للصدق... لم نسمع كلمه خارجة أو نرى تجمهرًا للسيارات بسبب حاجز

. باختصار لم نشعر بوجودهم... وأثناء التسجيل كان هناك شاب يصر على الظهور فى البرنامج... إصراره كان غريبًا تعامل الدرك معه بكل أدب دون شد ملابس، أو جذب أذرع أو دخول فى " احترم نفسك يا مواطن "... فالاحترام متبادل بين الطرفين المواطن يحترم الدركى... والدركى يحترم المواطن... والشعب اللبنانى قليل العدد... بمهاجريه إلى أفريقيا وأمريكا لايزيدون على خمسة

ملايين... ولبنان كله بقعة صغيرة على الخريطة، إلاّ إنه واحدة من أجمل بقاع الأرض... والناس هناك محبون للحياة... محبون لبلادهم... يعيشون طوائف بتجانس غريب لايخلو من بعض الحساسية التى قلَّت كثيرًا مع الحرب... فتجد المصور الذى كان معنا شيعيًا متزوجًا من سنية... ومساعده يحكى لنا عن قريبته المسلمة الشيعية التى أحبت مسيحيًا وقررت الزواج منه... أما هو فقد أحب بدوره سنية وتزوجها، نماذج غريبة علينا... نحن الذين تعودنا التعامل بحساسية شديدة مع هذه الموضوعات.

ووسط هذه الأمور التى كانت بالنسبة لى أمورًا شديدة التعقيد... يعمل الناس وبأقل عدد... دون وجود الأعداد الكبيرة التى لاتنجز وتطلب من الحكومة فى آخر الشهر راتبًا تعتبرة حق الدولة عليها... وهو حق طبعًا ولكن يجب أن يقابله عمل وأن يقابله إنجاز... وفى الضاحية الغربية شاهدت شبابًا مثل الورد قرروا مساعدة هيئات الإغاثة الدولية والدفاع الوطنى... وبهدوء شديد... قدموا يد المساعدة... شبان وفتيات... محجبات مثل معظم قاطنات الحى المعروف بأغلبيته المسلمة... وعمل دؤوب لإخراج الضحايا ومتعلقاتهم من تحت الأنقاض... الخلاصة هذا شعب أحب بلاده بصدق... عمل من أجلها والعمل هو كلمة السر، والمفتاح والباب والسرداب وكل متعلقات النجارة والكتابة... والعبادة... هذا شعب لم ينتظر.. بادر.. وما يأتى بعدها فهو خير... والحب يبدأ بابتسامة... ابتسامة الدركى أو الشرطى فى وجوه الناس... ويمر

بأزمات كثيرة وكوارث بدلاً من أن تضعفه تزيده قوة... فينيق أو عنقاء عصرية... تأبى الأيادى الغاشمة إلاً أن تحطم رقبتها... فيحترق الطائر ويولد من رماده... مغنيًا... متحديًا بالحب... ليحترق المعتدى مكتويًا بنار الكراهية التى تأكله... قبل أن تأكل غيره... باختصار قالتها فيروز على لساننا جميعًا... بحبك يا لبنان... بحبك يا لبنان.



5

العلاقة مع الآخر

هكذا الحالُ فى حرَيَّتِكُمْ
إذا حُلَّتْ قيودُها
أمستْ هى نفسُهَاقيدًا
لحريةٍ أعظَمَ مِنْهَا

جبران خليل جبران
" النبى"

حكاية عمر و طوم

عشت حوالى سبع سنوات ونصف السنة فى لندن، عاصمة المملكة المتحدة، أو الامبراطورية التى كانت زمان لا تغيب عنها الشمس أبدًا.. الإنجليز شعب حلو المعشر، فرغم ميلى لكل ما هو فرنسى، بحكم الوراثة فإن الفرنسيين رغم طبعهم المعتدل، وطبيعتهم الجميلة و تفوقهم فى الفنون و الأدب، فإنهم أكثر غلظة.. فقد تسأل فرنسيًا عن اسم شارع و أنت تائه وسط باريس فيجيبك بعصبية أو يعطيك نصف المعلومة و يجرى.. أما الإنجليزى.. فيقف لك.. يخرج كتاب الخرائط الشهير الذى لا يستطيع أحد التحرك من دونه، وبابتسامة متحفظة يشرح لك بألفاظ واضحة.. وإن سألت عن معنى كلمة.. يشرحها وإن أخطأت.. يصحح لك.. بالابتسامة المتحفظة نفسها، عشت مع الإنجليز و أحببت احترامهم "للسيستم" أو النظام فكانت الدنيا سلسة.. كل يعرف ما له و ما عليه.

إلاّ أننى لم أشعر يومًا أننى مندمجة بشكل كامل فى مجتمعهم.. فقد كنت أشعر أن الشرق شرق.. و الغرب غرب.. حتى عندما بكت أمامى مرة عاملة سوداء تعانى الاضطهاد بسبب لونها، ونظرت إلى حين حاولت التخفيف عنها قائلة: كيف لك أن تفهمى

وأنت صاحبة بشرة بيضاء ؟.. فى ثانية واحدة وضعتنى فى الخندق نفسه الذى يضم مضطهديها من البيض، مع أننى كنت منذ دقائق قليلة العربية المسلمة التى تشكو لها همومها لأننى أقلية مثلها.. عرفت وقتها و بعد سلسلة من التجارب الحياتية اليومية أن النظرة إلينا دومًا أننا أدنى.

لن أدخل فى تفاصيل الأسباب، أو دور الإعلام الغربى و اللوبى اليهودي، وهو كلام مستهلك لأننا نعرفه و لا نفعل شيئًا لا ثقافة تحسنه أو تحسن أوضاعنا أولاً وأنفسنا، فتكون الصورة عنا أفضل.

سأكتفى بحكاية شخصية أخرى مررت بها أثناء إقامتى هناك.. ذات مساء عاد ابنى عمر من المدرسة باكيًا لأن صاحبه "طوم" لم يرض أن يمسك بلعبته الجديدة التى كان قد أحضرها معه.. حاولت الدفاع عن الولد متعللة بفرحته باللعبة الجديدة، ففاجأنى ابنى قائلا: لقد ترك الآخرين يلعبون و قال لى: "ابعد عنى جراثيمك العربية ".. حتى الآن لا أستطيع أن أنسى هذه العبارة.. اتصلت بالمدرسة، وطالبت بالتحقيق فى الموضوع، فعادت إلىَّ المدرسة معترفة أن طوم قد قالها بالفعل، فطالبت بحق ابنى فى أن يعتذر طوم له.. فعادت إلىَّ الأم التى قالت لها.. ابنى يعتذر ؟ قطعا لا و رفضت.. و لسان حال الأم يقول.. ابنى يعتذر لهذا العربى ؟.. صعدت الموضوع فكانت النتيجة أن المدرسة أخذت صف والدة طوم.. و انكرت ـ بعد أن اعترفت ـ أن طوم قد قال ما يؤذى ابنى.

لست أدرى أين المشكلة فيهم أم فينا؟ إحساسهم بأنهم

أكثر تقدمًا وأفضل لأننا دومًا مبادرون بالاعتذار، نقدَّم التنازلات فى حياتنا اليومية.. لا نحترم الكثير من القواعد، و نعتبر أن كسرها شطارة.. أخذت عمر وأعطيته درسًا فى التاريخ.. فى كيف يجب أن يفخر بأجداده الفراعنة و العرب.. بأننا فى وقت عشنا أزهى العصور وكانوا هم فى الظلمات، وبأننا مع قبولنا الآخر لا يجب أبدًا أن نحس بأننا أقل.. تحدثت كثيرًا.. والتاريخ مرجعي، وهو المرجع الوحيد الحالى للآسف.. فالمقارنة بين حاضرنا اليوم وحاضر الغرب ليس فى صالحنا.. ولا تبدو الأمور مبشِّرة.. وأتساءل فى أحيان كثيرة أى رجل سيصبح طوم؟ والأحداث اليومية والتفجيرات الأخيرة تعطى لأمثاله مئة فرصة و فرصة لإثبات مقولته الشهيرة.. والقوى دائمًا على حق.. كل ما أتمناه أن يكون جيل عمر أفضل من جيلنا.. ألاَّ يكتفى بالبكاء مهما فعل به أمثال طوم.. بل يرد.. بالحجة والبرهان و العمل.. لا بحكايات عن التاريخ الذى.. هو كل رصيدنا الحالى.. وألاَّ نفقد على الأقل.. إحساسنا بذاتنا.. وفخرنا بأصلنا.. وعروبتنا وأول الطريق.. رفض أى نوع من الحساسية فى التعامل.. الآخر هو الآخر لأنه مختلف.. وأنا هو أنا لأننى مختلف.. هو اسمه طوم.. وأنا اسمى عمرو الفيصل بيننا هو مدى اعتزازى بنفسي، وتلك أولى الخطى.. فهل نستعيد هذا الاعتزاز ونعمل على أن نكون مثل أجدادنا ؟ ها قد عدت للتاريخ كما فعلت مع عمر ألم أقل لكم.. هو كل ما نمتلكه؟.

ماذا بعد ؟

أذكر عندما كنت أسير فى لندن، حيث كنت أقيم، فى الشوارع المزدحمة بالسياح، وكنت أجد تى شيرتات غالبًا باللون الأسود تصور السيد المسيح، وهو يتزلج على الجليد، أو يأكل أو يرقص أو حتى يذهب الى هوليوود مع الفنانين. كنت أستنكر الأمر وأتعجب بشدة من عدم اعتراض المسيحيين على هذا التصوير الساخر.. إلَّا أننى وبمرور الوقت تعلمت أن مايلائم شعبًا قد لايلائم آخر.. ولاحظت شيئًا آخر.. أن كل مايخص اليهود.. ممنوع المساس به.. وأنا فى ألمانيا قررت زيارة المتحف اليهودى لأرى كيف يفكرون، ولو أننى كنت أعرف سلفًا إلاَّ أن التجربة استهوتنى.. متحف يهودى فى ألمانيا.. وفى وسط برلين.. أى فى المكان الذى حسبما يقال اضطهدهم فيه هتلر وأبادهم، معتبرهم عالة على البشرية وأحد أسباب مشاكلها.

والوصول إلى المتحف أمر شاق جدًّا.. فعليك أن تصعد سلالم كثيرة و عالية يتعب نَفَسَك ومعه ركبك، مهما كانت لياقتك البدنية عالية، هى الأخرى، الملاحظة عامة وكأن الزائر عليه أن يدفع ثمن عذاب اليهود جميعًا.. نفرًا.. نفرًا.. وتبدأ الزيارة بالعهود القديمة لنتعرف على حكاية كل شخص عبر التاريخ اضطهد من

اليهود.. حتى ولو كان لصًا فهو فى نظرهم برىء إلاَّ أنه اضطهد لأنه يهودى ولو قاتل فهو برىء، حتى لو ثبتت عليه التهمة، ويدافعون عنه لأنه يهودى، مضطهد فى نظرهم، وحكايات ما اصطلح على تسميته بالهلوكوست، أوِ المحارق التى حسبما يقال قضت على الآلاف من اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية، فى غرف للغاز، هذه الحكايات بالصور الشهيرة بالأبيض والأسود، تأخذ مساحات كبيرة بالأرقام والعناوين والأسماء والحكايات.. وكلها تقطع القلب حتى تخرج وأنت تريد أن تخرج ما فى جيبك وتعطيهم.

وفى أثناء الزيارة كان معى مترجم.. ولم أجده أمامى فناديت عليه.. وكان اسمه محمد فوجدته يركض إلىَّ.. مذعورًا وكأنه خاف أن يعرف أحد وسط هذا الجو اليهودى أن اسمه محمد، وكأنه فزع من أن تدب الحياة فى أصحاب الصور أو يركض وراءه زوار المتحف ومعظمهم من اليهود، ليجعلوه يدفع ثمن اضطهادات اليهود عبر التاريخ... ودخلنا فى نقاش حول أحوال اليهود، فى ألمانيا فقال لى عبارة مازالت ترن فى أذنى حتى يومنا هذا... فقال لى " تستطيعين الوقوف وسط برلين والصراخ بأنك لاتؤمنين بالله سبحانه وتعالى، وسيفسر كلامك على أنه حرية عقيدة، أما إن اعترفت لأى شخص بأنك غير مقتنعة بأن محارق الهولوكوست قد حدثت بالفعل فإنك تعرضين نفسك للمساءلة القانونية بتهمة معاداة السامية ".. أفهمتم ما عناه.. أن يسمح لنا بالتشكيك بوجود الله سبحانه وتعالى، ولا يسمح لنا بالتشكيك فى الهولوكوست.. وصلت سطوة اليهود إلى حد

تخويف الناس أكثر من خالقهم سبحانه وتعالى.. فكيف وصلو إلى ما وصلوا إليه؟.. لأنهم ببساطة لم يصمتوا لا على الصغيرة ولا على الكبيرة... قبل أن ينطق أحد بأى أمر يتعلق باليهود، فإنهم يلبسونه تهمة ويقطعون لسانه.

وما يحدث فى العالم كله بعد نشر الصور المسيئة للرسول محمد عليه أفضل الصلاة والسلام أعاد إلى ذاكرتى زيارتى إلى ألمانيا.. وأعاد إلى ذاكرتى مافعلوه من مسح وكنس وسلخ وتقطيع للمخرج والممثل الاسترالى ميل جيبسون، الذى قدم فيلم "آلام المسيح"، وأدان فيه اليهود لأنه قص الحكاية كما حدثت بالضبط، وكيف أن يهوذا هو الذى خان السيد المسيح.. وهو ماعرفناه عمرنا كله عن حكاية السيد المسيح.. إلَّا أن اليهود وصلوا الى حد انتزاع غفران بابا الفاتيكان لليهود، عما اقترفه يهوذا قائلا إنهم ليس عليهم جميعًا أن يدفعوا ثمن خطأ اقترفه شخص واحد... أساتذة والله العظيم.. لايصمتون على حق مهما كان بسيطًا أو صغيرًا.. و القليل مثل الكثير، لا يجب السكوت عليه، أو عدم التعبير عن الغضب منه، وليتنا نتعلم منهم، ليتنا نتعلم كيف نجبر الآخرين على احترامنا، على عمل حساب لغضبنا، على احترام تفاصيل حياتنا وعقيدتنا.

وصل الأمر إلى حد الإساءة لرسولنا الكريم وما الذى فعلناه ؟ أرسلنا "ماسيجات" عبر الموبايل، نطلب التضافر بالدعاء على من رسموا الصور، ونطلب من الله أن يرينا فيهم يومًا، و"إيميلات" تطلب من المسلمين صيام يوم خميس وتكثيف الدعاء،

ورغم احترامى لهذه الدعوات فإننى أعتبرها سلاح الضعيف، و"الولايا" بشكل خاص، وولايا هنا جمع ولية، أى التى تولول فى حالات الحزن والصدمة، ولا تملك غير الولولة وسيلة تعبير.

ونحن أمة تمثل حوالى ربع سكان الكرة الأرضية تؤمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ولا نملك غير الدعاء، المقاطعة كانت أكثر الأمور إيجابية، والمحلات الكبيرة شاركت خوفًا ربما من تكرار تجربة سينسبرى، ربما، أو عن عقيدة، المهم أنهم خضعوا للمطلب الشعبى، وفى كل تصعيد إحساس بالنصر، مع احترامى الشديد لحريات التعبير، لا أستطيع عندما يتعلق الأمر برسولى و حبيبى محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، إلَّا أن أنتفض، وأقول كلمة دفاع وأثور وأغضب، فمن لم يثر لدينه لن يثور لعرضه، ولا لأى أمر آخر، قدمت برنامجًا تليفزيونيًا عن الموضوع وأكتب اليوم مقالتى آملة، أن أنفذ الحديث الكريم عن تغيير المنكر، وبما أن اليد قصيرة ما دامت وحدها فباللسان علَّنا نغير الواقع، الذى أصبح قاتمًا جدًّا.

هو حال المسلمين فى العالم، أصبحوا ملطشة يمينًا وشمالاً فمرة إرهابيون، ومرة متخلفون والقائمة طويلة، ونستحق ما جرى لنا فنحن تعودنا الصمت وعدم الاعتراض طيلة سنوات عمرنا، إلَّا أن الخير فى أمة محمد ومن بعده، عليه السلام، أتفاءل فأقولها مصدقة صحتها، وقد لعن رسولنا الرجل " الديوث" أى الذى لايغار على عرضه.. والدين كالعرض.. فهلاَّ نغار؟.. أو ننضم إلى قافلة الديوثين؟.. لا أعرف إن كان الجمع صحيحًا.. ألاّ أننى متأكِّدة أن المعنى وصل.. وهذا هو الأهم.

حميمية المدونين

كنت دومًا أجد فى الكتابة متنفسًا، فى طفولتى كنت ككثير من الفتيات، أحرص على تدوين مذكراتى من حين لآخر، يومياتى المليئة بالتفاصيل غير المهمة ومشاعرى التى تعودت ألَّا أظهرها أمام الجميع حتى أقرب المقربين، وهو أمر إن كان قد قل بسبب تدريبى لنفسى على ضرورة البوح والاعتراف، إلاَّ أن الكثير يبقى محبوسًا أو رهين المحبسين: النفس واللسان، والكتابة كانت أيضًا وسيلة للخروج من مآزق عدة لم أجرؤ على مواجهتها، مثل مشاجرة أو تأزم علاقة، الأسهل والأجمل لو يتم التعبير كتابة.

وفى طفولتى لم يكن هناك كومبيوتر، واستخدامات الكومبيوتر فى السنوات العشر الأخيرة شهدت تطورًا كبيرًا، وطبعًا أنا هنا لا أقول جديدًا، بل هى عبارة انتقالية لأتحدث عن جيل بأكمله استبدل القلم بالكومبيوتر، والرسائل أو الخطابات بالإيميل، وآخر اكتشافاتى اليوم المدونات، أو ال bloggers، وهى عبارة عن صفحات يكتب فيها صاحبها ما يشاء، كيفما يشاء وكل ما يخطر على باله، ومع المتابعة اليومية للمدونات تكتشف عالمًا جديدًا، شباب فى العشرينات يعبرون عن آرائهم وأفكارهم، يصورون ما يحدث فى الشارع

وينقلونه بكاميراتهم، لدرجة أن صحفًا عديدة أخذت منهم دون أن تنسب الفضل لأصحابه، بعضهم معتقل فيقررون جميعًا وضع هتافات على مدوناتهم، مطالبة بتحريرمعتقليهم، وكأن المسجون أخوهم أو صديقهم مع أنهم قد يكونون لم يروه من قبل، وعلاء أشهر هذه الأسماء، لعدة أسباب أولها: قصة حبه لمنال زوجته، واختيارهما لاسم مدونتهما الذى يحمل حروف اسمهما معًا، وصورهما معًا، ويتحدثان ككيان واحد، لهما آراء سياسية إلَّا أن هذا لم يمنعهما من السفر والتجوال والتقاط الصور، كى يشاركهما من يريد فرحتهما، نعرف خلفيتهما وقصص حبهما التى بدأت مع سنين المراهقة، واستمرت حتى تزوجا، وكأن الأمر قدر ومكتوب وطبيعى، لذا فالجميع شهود عليهما ومتعاطف معهما وكأنه يعرفهما.

ووائل عباس له مدونة تحمل الكثير من الصور، ويضعها على صحيفته أو مدونته ليشاركه الآخرون ما رأى، رأيته شابًا فى العشرينات يتحدث بثقة ويعمل بدأب، يعتقد أن الانترنت مثل الهواء حق لكل مواطن، وما دمت قد دخلت فتحمل ما ترى وتقرأ، تمامًا مثلما يحدث عندما تسير فى الطريق قد تسمع ما يؤذيك، أوترى ما لا تحب، عنصر المفاجأة متوقع لذا لا تضع شروطك وارض بشروط الإنترنت أو الطريق، أما بهية فأشهرهم جميعًا، لا نعرف إن كانت فتاة أو شابًا، اختارت صورة لها إحدى لوحات أحد أجمل نحاتى مصر على الإطلاق فى نظرى محمود مختار، نجحت فى جعل كاتب كبير مثل محمد حسنين هيكل يتحدث عنها ويحرص على قراءة ما

تكتب، والكسندرا التائهة فى المتوسط حسبما تقول، تحكى ذكرياتها فى لبنان فتشعر أنك تزور "جبيل" وتأكل معها السمك وتشرب القهوة، ومدونات كثيرة أخرى وحواديت عن القطط والأصدقاء، عالم مختلف، يتسم بالحميمية مع آخر لا تراه ولا يراك، فلا تخجل من أن يرى ردود أفعالك، من أن يسمع حواديتك، ويتركك تتخيله أو تتخيلها فى الشكل والمضمون، وحوار من طرف واحد تجد نفسك تشارك فيه.

الغريب، وربما الطبيعى أن كل المدونين فى العشرينات من العمر، لا نجد مدونين فى سن الثلاثين أو الأربعين ولست أدرى لماذا؟ ربما مع العمر نفقد قدرتنا على العفوية، على التصارح، على البوح، مع العمر نصبح أكثر جدية، ولعل لفظ جد يأتى من الجدية، وهذا مجرد اكتشاف لى الآن، قد يكون علماء اللغة قد اكتشفوه قبلى أو لم يكتشفوه، المهم أن الجدية أمر يزداد فينا مع تقدم السن، ونفقد حتى قدرتنا على المرح، يضعنا مجتمعنا فى قوالب وننصاع لهم فنتركهم يفصلون لنا القوالب كيفما يشاءون، يصممون لنا ملابسنا ويتحكمون فى كلامنا، وإذا ما عدنا إلى المدونين، نجد أن ماتكتبه كل الصحف القومية وغير القومية، الرسمية وغير الرسمية، أكثر جدية بكثير من المدونين، وأنا هنا لا أقصد تفضيل طرف على آخر، إذ لا مجال للمقارنة بالطبع بين صحفيين محترفين، ومن نستطيع أن نطلق عليهم مبتدئين، وكلنا بدأنا كمبتدئين.

ما يهمنى فى الموضوع هو الحميمية، هذا أكثر ما لفت

نظرى، القدرة على المصارحة، مصارحة آخر لا أعرفه،أجرؤ على إخباره بأمور قد لا أجرؤ على قولها وجهًا لوجه، أمر آخر، الصبر، الصبر على التغيير والتحديث والكتابة لساعات وبدأب ودون أى مقابل، والأهم بالنسبة لمن يكتبون فى الشأن السياسى، اتهام كنت أنا نفسى، على طريقة جدتى وأمى أوجهه للشباب، بعدم الاهتمام بالشأن العام، بعدم فهم السياسة، أو ما يحدث فى الشارع، بالتركيز على الأفلام التافهة والموسيقى الشبيهة برقع الحلل، وأنا هنا أتحدث على طريقة الجدَّات، الطريقة التى كنت أنتقدها دومًا، وإن كنت من عشاق السينما والموسيقى، ولا أعتبر عمرو دياب " رقع حلل "، بل من أذكى مطربى جيله، وأعود فأقول: لماذا يقتصر التدوين على فئة عمرية واحدة ؟ للأسباب الكثيرة التى قلتها، ربما، ولكن الشباب شباب القلب، أليس كذلك ؟

ابسطها ياعم

هناك كتاب مجهول للكاتب والشاعر والمفكر الفرنسي: "الفونس دى لامارتين" تحت عنوان: " حياة محمد "، ومحمد المقصود هو رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، والكتاب يعد مجهولاً لأن صاحبه عانى كثيرًا من الاضطهاد وقتها بسبب ما احتواه الكتاب من دفاع عن الإسلام وقيمه، أفرد صفحات وصفحات للحديث عن نبى الإسلام، وعن الدين الحنيف وعرَّف بالصحابة، وهو ضمن مجموعة من ستة أجزاء نستطيع ترجمتها بتاريخ تركيا، كان يقصد بها الحديث عن الإمبراطورية العثمانية، التى كانت وقتها مقر الخلافة الإسلامية، فكان لابد أن يبدأ بالتعريف بالدين الذى يحكم بلادًا كثيرة، والكتاب يبدأ بلامارتين، وهو يعرف نفسه بأن أصوله العائلية ترجع إلى الدولة الأندلسية، وهو بهذا يبحث عن أى علاقة أو جذور بدين كان شديد الإعجاب به، وصل إلى حد اعتبار اسم عائلته فى الأصل " اللامرتين "أى خدام الله حسبما ترجمتها الشاعرة "فابيولا بدوي" فى مقال كتبته حول الكتاب.

ولامارتين لم يكن الشاعر الوحيد الذى أحب الإسلام ودافع عنه، إلاَّ أننا تعودنا أن نتحدث إلى أنفسنا وأن ننصت إلى أنفسنا

لا إلى الآخرين، رغم دراستى فى كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية فإننى لم أعرف لامارتين إلَّا من اجتهاداتى وقراءاتى الشخصية، الوضع نفسه بالنسبه للمفكر الألمانى جوته، والذى يعتبره الألمان أفضل واجهة ثقافية لهم، لدرجة أنهم أطلقوا اسمه على كل مراكزهم فى العالم، كان جوته مشغولًا بالدراسات الشرقية، وفى عام 1771 بدأ بدراسة القرآن ولا زال الألمان يحتفظون بمخطوطات بخط يده، لدراسته المتعمقة للكتاب الكريم، وفى كتابه " المقعد " يقول جوته:

" هل القرآن كتاب عن الأبدية، لا أناقش هذا الأمر، هل القرآن كتاب الكتب (أى أفضل الكتب) أعتقد هذا من منطلق واجب المسلم ".

كان جوته عاشقًا للأدب العربى، وقرأ المؤلفات الأصلية للعلماء المسلمين، وقرأ تفسير القرآن، ونصوصًا مكتوبة حول تحرير العبيد، والبيع والشراء والفائدة،كان جوته مبهورًا بلغة القرآن وجماله وسموه، وكان على الأخص مبهورًا بمعانيه الدينية والفلسفية، وكان أكثر ما يحبه فكرة التوحيد، ووصل عشقه له إلى حد تقديم أول ترجمة مباشرة للقرآن من العربية إلى الألمانية عام1771، وصل به الحد إلى القول عام 1816 " إن الشاعر جوته لا يرفض أن يشك الناس أنه هو نفسه قد أسلم " وفى موقع آخر من قصيدة الديوان (أعنى: الديوان الشرقى للمؤلف الغربى) يقول:

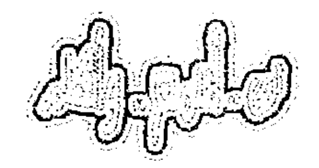
" من الغباء أن كل واحد يدافع عن أفكاره، إن كان الإسلام يعنى الاستسلام لله، فكلنا يعيش ويموت فى الإسلام ".

والكتاب الذين دافعوا عن الإسلام كثر، برناردشو وتولستوي، وأناتول فرانس وغيرهم، وأتساءل لماذا لا يدرس هؤلاء فى المدارس والجامعات، لماذا اختفت معظم هذه الكتابات، لماذا لا يهتم الباحثون بإعادة إخراجها ودراستها وتقديمها للعالم؟ وبدلاً من الحديث ليل نهار عن قشور الإسلام يبدأون بالجوهر.

دخلت على موقع للفتاوى على الانترنت، فوجدت هذه الأسئلة " هل الوقوف للسلام الوطنى حرام " الحمد لله أن الإجابة كانت بلا، وهو ليس دليلاً على الموافقة على النظام الحاكم، وسؤال آخر عن إجراء التجارب على الحيوانات والإسلام قد نهانا عن تعذيب الحيوانات؟ إلَّا أنه من أجل مصلحة العلم والإنسان كانت الإجابة بأن الأمر ليس حرامًا ما دام لغاية أو هدف.

هذه نوعية من الأسئلة قد لا تخطر على بالنا، إلَّا أنها لا يجب أن تكون محور حياتنا، يتحدث الرجال عن القوامة ولا يأخذون منها سوى السلطة، ولا يحتذون بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع أولاده وأحفاده وزوجاته وبناته خاصة، وتكثر كتب الرصيف وشرائطه التى ترهب وتخيف مع أن الدنيا أبسط بكثير، ولدى اعتقاد قد يلومنى المتشددون عليه هو أن معاناتنا فى الحياة تكفي، عذاباتنا اليومية، جهادنا مع أنفسنا، جهادنا من أجل حياة أفضل فى الآخرة،وحياة أفضل فى الدنيا، حروبنا الصغيرة وحروبنا الكبيرة، مخاوفنا، وأحزاننا، خوفنا من فراق من نحبهم، أحزاننا عند موت عزيز، إخفاقاتنا فى العمل، البحث عن فرصة عمل أفضل،

عجزنا عن تحقيق الكثير لأولادنا وحرصنا من أعدائنا، وإيذاء من كانوا يومًا أصدقاء لنا، سفر من أجل فرصة أفضل،غربة فى الوطن وخارجه، قسوة الأبناء أحيانًا، هجر الحبيب للحبيبة والعكس، مذاكرة شديدة قد تعقبها خيبة أمل فى النتيجة المرجوة،والأمثلة كثيرة تمتلئ بها صفحات وصفحاتَ، ألا تعد كل هذه الأمور معاناة، وألا تخفف من عذابنا فى الآخرة ؟ من منَّا يشعر بالسعادة للحظات طويلة ؟ لا أحد، السعادة ومضات، وأنا أؤمن أن الآخرة أفضل كثيرًا من الدنيا التى نتمسك بها، وخوفنا الشديد من تركها، وتعلقنا بها، هو تعلقنا بما نعرفه والخوف مما نجهله، والدنيا شديدة التعقيد، إلاَّ أنها جهاد ومرحلة، فرجاء عدم تعقيدها أكثر، فديننا يسر لا عسر، ولنبسطها كى يبسطها الله علينا.



6

النســـــاء

"كل مايريده الرجل من المرأة
هو أن تفهمه
وكل ماتريده المرأة من الرجل
أن يحبـهــا".

سقـــراط

اذبح لها القطة!!

استغرب جدًّا من منطق الرجال فى مصر، لن أعمم فأقول العالم العربى فالأمور متفاوتة، ففى بعض البلاد تكون الأمور أكثر حدة، وفى بلاد أخرى أقل، إلاَّ أننَّى لا أستطيع أن أنكر أن هناك الكثير من النقاط المشتركة بين الرجال الشرقيين، سواء أكانوا شرق أوسطيين أم من الشرق الأدنى.

مايجمع بينهم هو اعتبار إظهار المشاعر للزوجة ضعف، وأمر لا يغتفر ولا يسمح به للرجال الأقوياء الأشداء، والغريب يا أخى أنك تجده فى فترة الخطوبة مثلاً هائمًا يكتب لها القصائد، أو يرسل لها المسيجات مع تقدم التكنولوجيا والإيميلات الملأى بعبارات الشوق والهيام، وتصبح مشاعره رقيقة، يحيى المحبين ويتعاطف معهم، يشاهد الأفلام العاطفية وهى قربه ويبتسم، يتصل بها كل ساعة ليطمئن عليها، يغار لو نظر أحد غيره إليها، ويتباهى بها معلنا أمام الجميع ملكيته لها وواضعًا بكل الطرق والوسائل لافتات: ممنوع الاقتراب.

ويأتى اليوم الكبير، اليوم الحلم الذى تتربى كل بنت فى العالم على اعتباره أهم حدث فى حياتها، تحلم بتفاصيله منذ الصغر عند اللعب مع العرائس، وتقف العروس سعيدة مرددة أغنية السيدة

أم كلثوم " اد إيه من عمرى قبلك راح وعدَّى يا حبيبى، وابتديت دلوقتى بس أحس عمرى ".

ويقف قربها العريس سعيدًا يفكر فى موعده المسائى مع السعادة، ويردد أيضًا أغنية أخرى لأم كلثوم هى " ليلة حب حلوة " وتبدأ الرحلة، ويتغير الشاب المحب الولهان 180 درجة، خصوصًا بعد أن يرزقا بالطفل الأول، فى أى مكان عام تجد الرجال فى ناحية والسيدات فى ناحية أخرى، فى الشارع كل منهما ينظر فى اتجاه، فى المطعم لو أراد أن ينزع عن كتفيه الإحساس بالذنب بسبب ترديدها المستمر: لماذا لم نعد نخرج معًا، ويجلس صامتًا مفكرًا، هى إن حاولت كسر حاجز الصمت اتهمت بالثرثرة، ويتحول الموضوع والفسحة إلى نكد يتهم فيها الرجل المرأة بأنها تعيد النغمة، وأنه غلطان وستين غلطان لأنه فكر فى الخروج معها، يتكرر هذا السيناريو فى 99 وتسعة من عشرة (مثل انتخابات البلاد العربية) من البيوت المصرية، يندر أن تجد رجلاً يتحدث عن محاسن زوجته، لا أنكر أنه قد يستفيض فى الحديث عن طهيها وترتيبها للمنزل وتربيتها الجيِّدة للأولاد، إلاَّ أنك لا تجد من يتحدث عن الزوجة الإنسانة، وفى الغرب يطلقون على الزوجة اسم partner أى شريك، ولا تجد دعوة فى العمل أو من الأصدقاء توجه للرجل دون زوجته، حتى ولو كانت سيدة منزل لا تعمل، وتجد رجلاً كبيرا فى السن يمسك بيد صديقته الأصغر قليلًا، وقد غطى الشيب رأسيهما والتجاعيد حفرت طرقًا وكبارى على وجهيهما، ولا يخجلان من السير يدًا بيد، ويتسامران، ويضحكان، أما نحن فالرجل الأشد والأقوى هو الأكثر صرامة، سيد البيت الذى يشخط

فتنتفض النساء من حوله، وتتعب زوجته وتشقى فيستخسر فيها كلمة حانية، وكأنه بهذا يعطيها حقًا فتتعود وتطالبه بالمزيد من الكلمات، لن أبحث عن الأسباب وراء معاملة الرجال لنسائهم بهذه الطريقة.

ولن أدخل فى تفاصيل إلقاء التهم، المرأة مسئولة أم الرجل، فهى أمور تستغرق جهدًا كبيرًا، وقد لانصل إلى أى نتيجة. أنا فقط أتوقف، أمام ما أراه ظاهرة إنسانية وأسردها دون تحليل كبير لأنها مهمة علماء النفس والاجتماع، أنا فقط أرفع شعارًا واحدًا أردده فى حياتى هو حديث رسولنا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام " من رأى منكم منكرًا فليغيره، وأنا أغيِّر بأضعف طرق الإيمان دومًا: اللسان، وإن كان اللسان أحيانًا لاذعًا.

وأجد نفسى تقوم بتعليقات لا تعجب الكثيرين، مثل مرة زارنا صحفى صديق لزوجى، وزوجته التى جلست قربى تحسدنى على أننى أعمل وأخرج، وتحكى لى عن تجاهل زوجها لها وإصراره على بقائها فى المنزل، ولما نصحتها بما أنعم الله على به، يبدو أنها ذهبت ونقلت الكلام لزوجها الذى اتصل بزوجى فى اليوم التالي، وحدثه بعتاب شديد عن إفسادى لزوجته التى عاشت عمرها مطيعة ولم تتمرد إلاَّ بعد لقائها بى.

على فكرة، منذ ذلك اليوم لم أر زوجة صديق زوجي، وعرفت أنها أنجبت طفلا رابعًا، وبقية حديث الصديق لزوجى كان – وخصوصًا أننا كنا فى بداية زواجنا – كيف أنه يجب ان يروِّضنى ويذبح لى القطة، وحتى اليوم، كلما سمعت هذا المثل أسأل نفسى: ما ذنب القطة ؟ ولماذا نذبح قطة ولا نذبح قطًا ؟

حكاية عايدة مع براقش

أعترف لكم بأننى انهزمت، عشت حياتى أردد عبارة "المساواة بين الرجل والمرأة "، وأكرر أن القرآن قد كرَّم المرأة وجعل لها مكانة متميزة، ففى معظم الآيات ـ إن لم يكن كلها ـ يذكر سبحانه المذكر والمؤنث معًا: المؤمنون والمؤمنات، الطيبون والطيبات، القانتون والقانتات، إلى آخره.. كنت أقرأ عن كيفية معاملة رسولنا الكريم للسيدة عائشة وحبه الكبير لها، وطلبه دومًا – صلى الله عليه وسلم – من الله محاسبته على ما يملك وعدم محاسبته على ما لايملك، ألا وهو حبه الكبير لها، أقرأ كيف أنه كان يناقشها ويسمح لها بالرد عليه بمنتهى الصراحة، حتى أن أباها يومًا سيدنا أبى بكر الصديق صفعها لأنها ردت على زوجها نبينا الكريم ردًا لم يعجبه، أما هو زوجها – صلى الله عليه وسلم – فصالحها وطيب خاطرها، نقرأ كيف أنه كان يساعد فى أعمال المنزل، ويخيط ملابسه، وكيف أنه عندما استشاطت السيدة عائشة غيرة من إحدى زوجات الرسول عليه السلام رمت بطعامها أرضًا، فكان تعقيبه (صلعم) أمام الصحابة الحاضرين: غارت أمكم، تحمَّل غيرتها وتعامل معها نبينا الكريم برحابة صدر.

ومن ناحية أخرى.. عشت طفولتى أقرأ عبارة " وعاشا

فى تبات ونبات " فى ختام الروايات، وكنت دومًا أتساءل: لماذا فى القصص العربية ينهونها بالتبات والنبات، وهى تعنى الخلفة الكثيرة ودونها مشاكل، بينما فى القصص الأجنبية يقولون وعاشا فى سعادة إلى الأبد ؟

كنت أشعر أن النهاية الأجنبية أكثر بهجة وتفاؤلاً، خصوصًا أن قصص الحب التى كنت ككل الفتيات فى سن المراهقة أقرأها، كانت الأجنبية منها لا تحتوى على تعقيدات كثيرة، فالمحب يلتقى بالمحبوبة والصعاب من النوع الدرامى، وليس فيها عدم قدرة المحبوبة على الخروج إلاَّ بصحبة أحد، أو عدم السماح لها بالكلام مع الغرباء كما فى روايات محمد عبد الحليم عبد الله مثلاً، وكنت أقول فى نفسى: المجتمع مختلف والزمن تغير، ولا بد أن الدنيا بنفس إيقاع سرعة تقليد ما يأتينا من الخارج ستتغير الأمور هنا، ولكن مع الاحتفاظ بعاداتنا وتقاليدنا، فنجد المحبين فى مرحلة الخطوبة يتحدثون عن المستقبل برومانسية شديدة، شبيهة بالقصص، وبعد الزواج يبدأ الزوج فى الخروج وتستغرق المرأة فى واجباتها المنزلية، التى يعتبرها الزوج جزءًا أساسيًا من وظائفها، و قد قالها لى أحد الزملاء بطريقة غاية فى الاستفزاز: لماذا أدفع مهرًا ؟ وعندما حاولت الرد قال: كى أحصل على خدمة مدى الحياة، فأنا أتزوج كى أُخْدَمْ، دخلت فى حوارات معه، وعندما شعرت أن دمى قد غلى فى عروقى وأنه لا فائدة، انسحبت.

المشكلة ليست فى تفكير زميلى، وهو يدعى ياسر بالمناسبة، المشكلة فى النساء أنفسهن، فمن الملاحظ الآن تراجعًا فى الرغبة فى

تحقيق الذات وترديد الآية الكريمة " الرجال قوامون على النساء " مبتورة دون إكمالها " بما فضل الله به بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم " وترديد عبارات مثل: المرأة مصيرها المنزل، وحتى عندما تكون هناك تجمعات تجد النساء جالسات فى ركن والرجال فى ركن، والدعوات توجه للرجال دون النساء، مع أنه فى أوروبا وأمريكا، أى الغرب الذى نقلده فى تقاليع الملابس والموسيقى، يتم التعامل مع الزوجين معًا، فنعرف مثلا أن شيرى بلير هى زوجة رئيس الوزراء، إلَّا أنهما يذهبان معًا إلى مدرسة الأولاد، ويسافران معًا فى إجازات، بل وأنجبا طفلاً بعد بلوغ شيرى الأربعين، والأمثلة كثيرة، الكارثة عندنا ليست فى الرجال فقط، ولكن فى النساء بشكل خاص، فوجئت أخيرًا بشابات يقلن لى: بعد أن نتخرج فى الجامعة لو وجدنا ابن الحلال سنجلس فى المنزل، ما الذى يجبرنا على البهدلة فى المواصلات وتحقيق الذات ؟ مش مهم، يحققه هو وأنا أستفيد، كيف للمرأة أن ترضى أن تكون هكذا، إنسان تابع، تتخلى عن كينونتها وسنوات التعليم وما صرفه أهلها عليها وتكتفى بأقل القليل، ومنذ طفولتها تربى المرأة على أنها أنثى يتم إعدادها لواجباتها، وتبدأ فى خدمة أخيها ووالدها، وقد تخرج من التعليم لأن الولد أفضل فهو سيفتح البيت، أما هى فمصيرها المنزل فلم التكاليف؟ وفى منزلى شابة تساعدنى فى أعمال المنزل، تنظر إلى الكتب فى حسرة وتقول ليتنى أستطيع القراءة، ويعاملها زوجها العامل البسيط بعنف لأنها على حد قوله جاهلة،وكأنه هو دكتور فى الجامعة ويضربها أمام أولادها مرددًا: مابينى وبينك ورقة أستطيع تمزيقها فى أى وقت.

عايدة وهذا هو اسمها عرفت أن الحل فى العمل، وفى الاستقلال المادى، ورغم ضغوطه عليها للعودة إلى المنزل فإنها ترفض مدركة بفطرتها أنه يفعل هذا من باب القهر ليس إلاَّ، وبعد أن جربت حلاوة الاستقلال ترفض العودة إلى ذل الحاجة، لا زالت تعيش مع زوجها فهو أبو الأولاد، وترفض الطلاق إلَّا أنها صابرة، فالنساء فى بلادنا كلهن صابرات، يتعبن يوميًا، وتقول لى بسذاجتها: ألا تركضين أنت أيضًا يامدام ما بين الأولاد والبيت والعمل ؟ أنت أيضًا شقيانة، والبيه مشغول ربنا يعينه ويعين الرجال كلهم، فهم يتعبون أيضًا، وعندما أسألها: ومن يتعب أكثر يا عايدة ؟ تقول: الستات طبعًا، ولكن ماذا نفعل، قدر ومكتوب.

تحضرنى عبارة أحبها كثيرًا للمفكرة الفرنسية سيمون دى بوفوار قالتها منذ أكثر من خمسين عاما " **لا يأتى المرء إلى العالم كامرأة، بل إنه يصبح كذلك** " والنساء فى بلادنا يتحملن المسئولية الأكبر، فعلى نفسها جنت براقش، وأخريات، والقائمة طويلة.

أعباء النساء وقضية الشرق الأوسط

قال لى صديقى الشاعر أثناء إحدى زياراته لمبنى حكومى شهير، يعمل فيه عدد كبير من السيدات: " أنا مفاجأ جدًّا من حجم النساء، كلهن من الحجم الثقيل" وصديقى كان يقصد الحجم بمعناه الصحيح، يعنى الوزن الثقيل، أى السيدات الممتلئات، وطرح صديقى الشاعر تساؤلاً أضحكنى بشدة فى البداية، ثم دفعنى للتفكير فى الكتابة:" ألم يكن هؤلاء السيدات يومًا فى سن الثامنة عشرة وكن شابات يبحثن عن الحب والعريس"؟ مالذى غيرهن بعد هذه السنوات؟ مالذى دعاهن إلى الإهمال فى وزنهن وشكلهن لهذه الدرجة. وأنا هنا لاأريد أن أكون قاسية فكل سيدة فى العالم تود أن تكون الأنحف والأكثر رشاقة.. بل ويمارس المجتمع بأسره عليها ضغوطًا كى لا تعد من الممتلئات، لدرجة أن منظمات دولية وعالمية بدأت تغذى بشدة هلع المراهقات من السمنة، مما يؤدى إلى امتناعهن عن الطعام وتهديد حياتهن.

نحن طبعًا عندنا الوضع مختلف.. فنحن حين نحب أحدًا نعبر عن حبنا أكلاً.. ندعوه إلى سفرة فيها مالذ وطاب والكلام أصلا لايحلو إلَّا على الطعام.. وخصوصًا لو كان ليلاً أمام التلفزيون..

وتصبح الدنيا فى هذه اللحظات فى أحلى حالاتها.. وأنا معترفة بهذا واعترف أننى أقوم بهذه الأفعال دومًا.. وبسعادة.. ولكن لكل سن حدود.. لماذا النساء فى بلادنا من الحجم الثقيل؟ تعتبرن أنه مادمن قد حصلن على العريس وأدخلنه القفص، ثم قمن فى استراتيجية معروفة ومكررة بربطه بالعيال والأطفال ضمنَّ بقاءه فى المنزل، فقد نتفن ريشه،ريشة ريشة وإن كان الكلام عن الريش هذه الأيام خطر. المُهم.. إنها قصة قديمة جديدة مكررة يوميًا... وأنا هنا لا أود أن يفهم من كلامى على الإطلاق ـ أرجوكم ـ أننى أعطى للرجل أعذارًا فى النظر إلى أخريات والاستشهاد بها يقول.. فالمطلوب من الرجل أيضًا أن يهندم نفسه وألاَّ ينسى أنه مع عوامل الزمن يظهر الكرش، ويقل الشعر وقد يقع ويصبح خلقه ضِّيقًا وكلامه أقل مثل صبره، وتتحول الكثير من الأمور التى من المفترض أنها عاطفية إلى أمور روتينية.

المهم.. أن كل الصحف والمجلات لا تتحدث ـ وفى العالم كله ـ إلَّا عن موضوعات من أمثال " كيف تحافظين على بيتك وزوجك".. " الطريق إلى قلب زوجك "" اسعديه لتسعدى " وعناوين كثيرة أخرى يكفي تقليب أى مجلة نسائية لتجد العشرات من هذه العينات، واعتبر هذه النوعية من الصحافة والتى تلقى بالتبعات وبالمسئولية على المرأة وحدها، هى أحد أسباب العنف والقهر الممارس مجتمعيًا ضد النساء.. فالمرأة لو تعبت من مسئوليات البيت الكثيرة مثل الطبخ والغسيل والتنظيف، وطلبت الراحة يومًا.. اعتبرت مقصرِّة فى مسئولياتها أو واجباتها ووجب توبيخها لا مساعدتها، كما كان يفعل رسولنا الكريم (ص. ل. ع.) الذى كان يقوم بالكثير من الأعباء المنزلية،

ولا يعترض على ما يقدم له من طعام، ولا يؤنب زوجته على تقصير أمر من هذه الأمور.. وحين اشتكت له ابنته فاطمة من تعبها من أعمال البيت نصحها هى وزوجها "على بن أبى طالب" ببعض الأدعية للتخفيف عنهما.. أى لم ينصحها وحدها.. معتبرًا أن الأمر مسئولية مشتركة بينهما، وكان عليه السلام يزور ابنته يوميًا يجلس معها.. يحادثها أما فى أيامنا فأمور الأولاد كلها موكولة للأم مثل الكثير من المهام الأخرى.. أما الحياة اليومية بتفاصيلها الصغيرة الكثيرة من أمور شاقة.. فأيضًا متروكة للمرأة... ولوتعبت أو اشتكت يكون الرد دومًا.. هذا حال النساء جميعًا فلماذا تشتكين أنت بالذات؟... النساء جميعًا تلدن فلماذا أنت الوحيدة التى تتعب فى حملها؟.. الفلاحة فى الغيط تحمل وتلد دون مساعدة طبيب فلماذا أنت التى تتوافر لك كل سبل الرعاية تشتكين؟ وإذا ما أصابها الإحباط الذى يصيب معظم النساء بعد الولادة، تجد نفسها وحيدة والزوج ينظر إليها باستغراب شديد، مع أن اكتئاب ما بعد الولادة مرض معروف عالميًا.. الممثلة بروك شيلدز عانت منه لدرجة أنها قامت بتأليف كتاب عن الموضوع، وإذا ماكان على أحد الطرفين أن يضحى.. فالمرأة دائمًا تفعل.. وليس غالبًا..

وشهر مارس.. شهر المرأة.. فيه تتقلب كل مواجعى كامرأة.. فانتظروا منى مقالات من هذا النوع. الذى يقرأه الرجل ويقول: إحنا ناقصين يارب، أو يقول آخر دون أن يكون قد قرأ فى الشرع أو فهمه: "هذه سنة الكون فعلام تعترضين؟ أو يقول ثالث كما يقول زوجى" الرجال يهتمون بالمشاكل الكبرى فى الحياة، مشكلة الشرق

الأوسط، النزاع العربى الإسرائيلى، احتلال أمريكا للعراق، حبس الصحفيين وحرية الرأى، أما النساء فيهتممن بصغائر الأمور وأبسطها: توصيل الأولاد، دروسهم ، تنظيف المنزل والطبخ، ومشاكل المدرسة وشراء المستلزمات، يعنى القائمة طويلة وينسى نساء من عينة مارجريت تاتشر، أو آنجيلا مركل ، أنديرا غاندى، أو حتى جولدامائير. "... معه حق.. نساء مفتريات صحيح.

حلم الرئاسة

ماذا لو أصبحت النساء رئيسات للجمهورية ؟ماذا لو وصلت سيدة لهذا المنصب؟ هل ستحارب إسرائيل مثلاً مندفعة بضغط شعبى وموروث حروب بين البلدين؟ أم أنها كما يقال عن النساء إنهن رقيقات، فهى بالتالى ستجنح للسلام وتنادى به وتحترم معاهدة كامب ديفيد، وتضيف عليها معاهدات أخرى ؟هل ستهتم بالصناعة على اعتبار أنها دولاب وعجلة الاقتصاد ؟.. سيقول البعض إنها لن تفهم فى الصناعات الثقيلة، ونرد فنقول: لا يهم ثقيلة أم خفيفة، المهم أن تكون هناك صناعة، هل ستركز على التعليم ؟ طبعًا فالأم مدرسة، ليس على رأى أمير الشعراء شوقى، بل أصبحت مُدِّرسة مع ضمة فى بداية الميم، وهى وظيفة إجبارية تقوم بها كل النساء فى منازلهن للارتقاء بمستوى أولادهن التعليمى.

ماذا عن الصحة ؟ هذا أيضًا أمر مفروغ منه، فالصحة من اهتمامات المرأة، وكأنها المسئولة الأولى عن صحة أسرتها، وكل ما يجب على الرجل القيام به هو الأكل وهو يبتسم موافقًا على اختياراتها، وماذا عن الخارجية والعلاقات مع البلاد الأخرى ؟ النساء أكثر قدرة على زرع الجمال حولهن، لذلك ستتحسن العلاقات الخارجية مع

بلاد كثيرة بقليل من الورود، أو بغذاء عمل فيه لمسات جمالية قد لا ينتبه إليها الرجل.

ماذا عن الداخلية ؟ الشرطة ستقوم بالعمل، والدفاع أيضًا، ماذا عن الإعلام ؟ هنا قد تكون المشكلة، فلو جرؤ مصور وأظهرها بشعر ليس مصففًا أو حدثت مشاكل فى الاضاءة كما يحدث كثيرًا أثناء التصوير فسوف تنفعل، وتغفر المرأة كل شيء إلّا من يظهرها بشكل بعيد عن الجمال، وفى هذه الحالة ستحدث مشاكل بين رئيسة الجمهورية ووزير الإعلام، نصل إلى الثقافة وهنا نجد مشكلة.. فالنساء بطبعهن محبات للفنون وإلهات الاغريق من النساء الجميلات: اللاتى امتلكن الكثير من المواهب... الغريب أننى أقول ماذا لو؟ لأن الاحتمال ضعيف جدًّا... ووصلت بى الأحلام إلى حد وضع السيناريو الذى قرأتموه... ولكن تبقى الأحلام أحلامًا... وتسمى أحلامًا لأنها إلى حد ما بعيدة المنال.. ففى عالمنا العربى لم تصل المرأة بعد إلى منصب رئيسة وزراء.. أو وزيرة الداخلية.. ولم تصل بالتأكيد إلى منصب رئيسة وزراء أو رئيسة جمهورية.. بل لم تصل إلى طرح اسمها كمرشح.. وهذا مفهوم بالطبع لأن الحكام العرب وصلوا إمَّا بالانقلابات العسكرية أو بالوراثة.. والحمد لله أنهم أنجبو ذكورًا وإلَّا ماذا سيكون مصير البلاد العربية من غيرهم؟.. ماذا لو وصلت المرأة إلى السلطة؟ الكارثة أننا عندما سألنا نساء أجبن: كن سيخربن البلد طبعًا.. ونلوم بعدها الرجال ونتحدث عن المجتمعات الذكورية.. فالنساء هن المسئولات أولاً بخضوعهن... ولو كمل الحلم.... فهو جميل، ولأسترسل فأقول:

ماذا لو أصبحتُ أنا رئيسة جمهورية؟... ووجدتنى أخاف من مجرد الفكرة.. فالمسئولية كبيرة وعمر بن الخطاب كان يخشى من عقاب الله على دابة تعثرت فى العراق أن يحاسبه ربه على هذا.. والعدل؟ كيف للإنسان أن يعرف كيف يحكم بالعدل؟ كيف للعواطف أن تتنحى جانبًا.. كيف للمرء منا أن تكون له القدرة على التمييز الأكيد والمطلق بين الصح والغلط.. استفت قلبك.. هذا صحيح؟ ولكن القلب يعنى مشاعر وعواطف ولابد لأهوائنا أن تحكمنا.. والإنسان بطبعه ميال لمن يقول له كلامًا حلوًا ومديحًا.. وطبعًا عندما يتولى الإنسان منصبًا ما ينهمر الكلام الجميل كالمطر، بل ويتحول إلى عسل وسكر.. على رأى الأغنية الشهيرة.. وعلى سيرة الأغانى.. سيغنون وقتها فى حبى ومحاسنى.. والكارثة لو صدقت.. ونظرت إلى نفسى فى المرآة وبدلاً من أن أرى نفسى رأيت مايراه الآخرون من صفات تقترب من الكمال والكمال لله وحده.

أمَّا اسوأ مافى الموضوع.. فهو الجلسات الطويلة والاجتماعات اللانهائية اليومية مع المسئولين والرؤساء والزملاء... الزائرين.. لأ.. بعد هذه الأحلام وجدتنى أقول شكرًا.. أنا أحب حريتى كثيرًا.. أصحو متى أشاء وأنام متى أشاء.. دون قيود أو حراس.. أحاسب على ما أرتكب فى حق نفسى وعائلتى.. وزملائى فى العمل، لا يعنى هذا إطلاقًا انسحابًا.. بل نساء كثيرات يصلحن للمهمة.. هذا أمر أنا من أشد المؤمنات به وفى مقدمتى إغراءات كثيرة لتصديقى، ولكن شخصيًا.. أعتقد أن المهمة صعبة على من لا يحلم بالسلطة

من أمثالى.. فأنا ممن يستغربون قتال الناس للوصول إلى الكرسى.. ويضحون براحة البال ويبدلونها بتوترات يومية متكررة.. لن أريح القارىء وأقول دعوها للرجال.. أبدًا.. لن تصدر عني بل أقول هناك نساء أقدر منِّى على رئاسة الجمهورية، وحتى يتحقق الحلم يومًا وتصل النساء للمنصب.. لاضير من أن نحلم.. ونسعى للتحقيق.. نحن النساء.. أتحدث باسمكن إلَّا أننى لاأعدكن بالمحاولة.. أترك الأمر لكن... واحتفظن لى مسجلًا فى الشهر العقارى ـ أننى عبرت عن أحلامكن كتابة.. وإلى أول الطريق.

فاطمة السيوية

اسمها فاطمة.. عيناها تشعان ذكاءً.. كلماتها مرحة.. تتحدث العربية والأمازيغية بطلاقة.. والأمازيغية هى لغة أهل شمال أفريقيا خصوصًا البربر منهم ، وأهل سيوه على حدود مصر الجنوبية الغربية يتحدثونها أيضًا.

وفاطمة امرأة سيوية أى من واحة سيوة.. جميلة الملامح ، دمها خفيف أى ابنة نكتة و ومتابعة لبرامج التليفزيون، وأكملت تعليمها حتى الثانوية العامة، إلَّا أنها لم تحصل على مجموع عالٍ.. فزوَّجها أهلها وجلست مثل كل نساء سيوة فى المنزل، خلف جدران أربعة.. ممنوعة من العمل إلَّا فى الأعمال اليدوية مثل الملابس والطرح، كى يبيعها زوجها فى أحد المحلات.. ومسئولة عن عائلة.. وإذا ما خرجت من المنزل فعليها أن ترتدى ما يخفى كل معالمها.. عباءة رمادية ترسم عليها بألوان تقل كلما تقدم بها العمر.. وتغطى وجهها بالكامل الذى لا يسمح برؤيته إلَّا لزوجها والمحارم.. أما قبل الزواج فتسير الفتيات مكشوفات الوجه ، بل ويسمح لهن بالعمل وإن كن قلة من فعلن هذا ومعروفة أسماؤهن.. التقيت بإحداهن وهى تعمل فى الإرشاد الصحي، رغم أنها حاصلة على الإعدادية فإنها عملت

بسبب أنه كان لابد من فتاة للتعامل مع النساء، ومقيمة كى تعرف عادات وتقاليد واحتها، تم اختيارها.. وفرحت بالعمل جدًّا لدرجة أنه تم تكريمها من الجامعة الأمريكية العام الماضى على جهودها.. سألتها إن كانت ستستمر فى العمل بعد الزواج قالت: غالبًا لا.. وإن كانت سترتدى ما يخفى وجهها فأجابت: بالطبع نعم.. فهى عاداتنا.. ولا أستطيع مخالفتها.. والعادات فى أحيان كثيرة.. تكون أقوى من أى قانون.. تتحكم فينا ، تسيطر على حياتنا ومجرياتنا.. من ماض أو مستقبل.. وعادات مثل إجبار المرأة على البقاء فى المنزل، واعتبار أن عملها أمر مرفوض من المجتمع فى واحة مثل سيوة، والذى هو أقوى من أية محاولات تغيير.

التقيت بمرشد سياحى هناك وسألته عن وضع النساء فقال لى: دور المرأة أن تبقى فى منزلها، وأن هناك قلة من المتعلمات ممن أكملن تعليمهن حتى الجامعة، وهن بعدد أصابع اليد الواحدة وقالها معتذرًا.. وكأن وصول المرأة إلى الجامعة عيب أو خطأ وجب الاعتذار عنه.

واذا ماعدنا إلى فاطمة.. ذات العيون الباسمة.. فاطمة ليست حزينة على قدرها.. لا تعترض على بقائها فى المنزل، وخروجها مختبئة خلف عباءة رمادية.. فما يسرى على الكل يسرى عليها.. إلَّا أنها تقضى وقتها فى تعليم ابنها.. و تمنعه من مشاهدة التليفزيون بكثرة لأنه يلهيه عن المذاكرة.. و هى تعلمت و عرفت أن العلم نور.. و أساسى فى حياة البنت و الولد.. و سيوة بعيدة جدًّا عن القاهرة..

مسافة 820 كيلو مترًا.. طريقها مرصوف إلَّا أن هذه هى حالها اليوم، أما فى الماضى فقد عاشت تاريخًا طويلاً مقطوعة عن العالم الخارجى.. مكتفية بأهلها وبزراعة النخل والزيتون.. حاول الكثير من الغزاة احتلالها وفشلوا.. لم يفلح إلَّا الاسكندر حين استعمل مع أهلها منطقًا أقنعهم وهو أنه ابن الإله آمون.. أتاهم من باب الدين فاقتنعوا، ولو حاول بطريقة أخرى لصدوه وحاربوه.. قطعة من أرض مصر تشعر عند زيارتك لها كأنها خرجت من مصر.. فأهلها رغم اعتزازهم الشديد بمصريتهم فإنهم بعاداتهم وتقاليدهم خلقوا جمهورية مستقلة، ليس فيها حاكم إلَّا شيخ القبيلة ومجلس يعاونه، ولا يحوى بالطبع الَّا الرجال.. مجتمعون سنويًا فى عيد أصبح سياح كثيرون يحرصون على ارتياده فى شهر أكتوبر.. عند جبل الدكرورى.. عيد اسمه عيد السياحة.. أو عيد المصالحات.. ولا يسمح للنساء من سيوة بحضوره منعًا للاختلاط.

قلت لفاطمة وأنا معها فى المنزل.. ألا يقول لك زوجك إنك جميلة؟! ضحكت وأجابت: بالطبع لا.. فرجالنا لا يقولون لزوجاتهم كلمات إطراء.. فخففت عنها وقلت: ولا رجالنا.. فلا تحزنى.. فضحكت عاليًا ثم خبأت وجهها سريعًا حين فتح الباب خوفًا من قدوم أى غريب.

عند قراءتى عن الواحة.. عرفت أن الباحثين والأثريين قد ضاعت منهم حوالى 700 سنة، لا يعرفون ما الذى حل بسيوة فى تلك الفترة.. انقطعت أخبارهم عن العالم ولم يهتم أحد بها.. زحفت

الطرق وأقيمت الفنادق والمنتجعات وبدأت الحضارة تزحف عليها.. فتخلت النساء عن ملابسهن التقليدية بألوانها الزاهية الجميلة، وحلت محلها ملابس عادية مثل تلك الموجودة فى كل العالم.. وفوقها الطرحة الرمادية.. زحف التليفزيون والدش إلى المنازل والمحلات.. وبدأت حركة السياحة تنتعش.. إلَّا أن العادات.. اندثر ما هو جميل منها للأسف.. وبقى منها ما هو أقوى من أى تغيير.. العادات الخاصة بالنساء.. ترى.. هل ستصمد هذه العادات.. وهل رياح التغيير التى اجتاحت العالم لن تمر على أهل سيوة؟. أم أنها كما حدث من قبل مئات المرات.. ستنساها و تنسى أهلها ؟

مـي

كل شخص على وجه الأرض يعتقد أن مصيبته أكبر مصيبة... يعتقد أنه لو أصابه أمر ما، حتى ولو صداع، أن العالم حوله يتهاوى... ويبدأ فى التكشير والشخط والنطر متوقعًا تقديرًا من الجميع لظروفه... وصداعه أو اعتلال مزاجه، وأنا شخصيًا... أصحو فى أيام كثيرة ومزاجى معتل لأى سبب... أعتقد أن أحد الأسباب يعود لكونى من الذين ينتمون لبرج الميزان... أحد أكثر الأبراج هوائية... ليس بقدر برج الجوزاء بالطبع، ولكن المزاج لأصحاب برجى يمر بمراحل وفترات وتغيرات وانتهاءات واعوجاجات، فالذنب ليس ذنبنا بشكل كامل إذن، ولكننى فكرت بكل هذا... وشعرت بخجل شديد من نفسى، بل وقررت أنه يجب أن أنتصر على نفسى وألَّا أترك مشاكل الحياة اليومية تجرنى وتسحقنى وأنا أشاهدها تدخل.

جميلة كما هى عامة اللبنانيات... أنيقة... كما هى عادة البيروتيات... شقراء وبابتسامة رضا من القلب.. كنت أشعر بتوتر وأنا أنتظر لقائى بها... ليس سهلاً أن تلتقى بأحد أقطاب مهنتك... فهى واحدة من أشهر المذيعات فى لبنان... وبسبب آرائها تم وضع متفجرات فى سيارتها، إلَّا أن نعمة السماء هى التى أنقذتها

من الموت المحقق... وخرجت مهشمة ممزقة... وأصبح يطلق عليها فى لبنان لقب " الشهيدة الحية ".

ولمن لا يعرف فإن "مى شدياق" حلقة فى سلسلة من الاغتيالات، طالت بعض أصحاب الرأى فى لبنان... استشهد جورج حاوى، وسمير قصير الصحفى زوج الإعلامية جيزيل خورى بالطريقة نفسها، أما مى و معها الوزيران مروان حمادة وإلياس المر، فقد نجوا بأعجوبة، حولتها مى إلى سخرية وأسمت الثلاثة بنادى الرعب... أو مثلث الرعب الذى لم تطله اليد الغاشمة، قبل ساعات من الانفجار كانت مى تستضيف صحفيًا لبنانيًا يدعى سركيس نعوم... كنت قد التقيته منذ سنوات فى حلقة أجريتها من لبنان عن حزب الله... سألها عن التدابير الأمنية التى تتبعها لحماية نفسها فضحكت... لم تكن تتوقع أن تكون الهدف التالى، وأن تكون أول أمرأة فى لبنان تتعرض لمحاولة اغتيال.

التقيت مى منذ أيام... وبادرتنى عم سنتحدث أجبت: عنك... اعترف أننى لم أكن أعرف كيف أصوغ سؤالى بشكل لا يوقظ جروحها أو ينكأها.. وكأنها أحست بحيرتى... فابتسمت... وساعدتنى فى إجاباتها... حكت لى كيف أنها كانت قد أنهت عملها... وذهبت إلى كنيسة القديس " مارشربل " كعادتها... تصلى... وخرجت متجهة لزيارة والدتها لتحتسى معها فنجان قهوة... وهى فى السيارة عادت إلى الوراء بدلاً من الاتجاه للأمام وهذه الحركة البسيطة أنقذت حياتها... وشاهدت بنفسها يدها قد قطعت من

جراء التفجير قبل أن يغمى عليها... وصبرت على الآلام... وبدأت العمليات الجراحية.

وضحكت وهى تقول... تعودت أن أجد نفسى فوق سرير العمليات أيام الثلاثاء والخميس من كل أسبوع... خمس وعشرون عملية جراحية، وحديد مثبت فى الظهر، يجعلنى أُصفّر فى كل مرة أمر على حاجز تفتيش... وغدًا أدخل غرفة العمليات من أجل عملية أخرى... غدًا أدخل ؟ تقولها وهى جالسة معى مبتسمة... وعندما تلحظ استغرابى تضحك وتقول... ألم أقل لك تعودت ؟

أسألها عن واضع التفجيرات... هل تفكر فيه... ما الذى تشعر به نحوه... فتجيب... من المؤكد أنه يشعر بالغيظ لأنه لم يطل وجهى... فلو أن وجهى تأثر لما كان بإمكانى العودة إلى عملى أبدًا... مى شدياق أصبحت فى لبنان رمزًا وظهرت صورتها على أغلفة الكثير من المجلات، ودون دخول فى أسباب محاولة اغتيالها أو من هم وراء المحاولة... ننتظر التقرير الذى أُجْرِى ومن شأنه إيضاح كثير من الأمور.... نقول ونقول.... مى نجحت بسبب دعم المؤسسة التى تعمل فيها، فى أن تنسج علاقة خاصة بينها وبين جمهورها بسبب إصرار المؤسسة التى تعمل بها على دعمها فى آرائهـــا وأفكارها، وعدم الاستغناء عنها عندما أصيبت والاكتفاء بدفع تعويض مادى... مى شدياق تقدم اليوم برنامجها " بكل جرأة " وهو أسبوعى تستضيف فيه ضيوفًا من كل أنحاء العالم.

وعندما قامت الحرب الأخيرة أصبح برنامجها مرتين،

وأحيانًا ثلاث مرات فى الأسبوع... لقناعة أصحاب المؤسسة أنها الأجدر على القيام بالعمل على الرغم من يدها وقدمها، اللذين استعاضت عنهما بأطراف صناعية وأمضت شهورًا تتدرب على السير تمامًا كالطفل على حد تعبيرها... فالطفل يمر بمرحلة التعليم ويصبح الأمر طبيعيًا تلقائيًا... أما مى فعليها أن تفكر: على أن أضع قدمى الآن بهذه الطريقة، علىَّ أن أحرك طرفىَّ أو ما حل مكان يدى... أمر فى غاية الصعوبة... سألتها عن السبب فى قوتها... أجابت الإيمان... إيمانى بالله كبير... فى أحيان كثيرة تمنيت الموت، ولكننى عدت واستغفرت ربى.

مى مقتنعة أن من حماها هو القديس شربل الذى كانت تزور كنيسته قبل الحادث... لذا فإن أول ما قامت به عند العودة من رحلة العلاج إلى فرنسا، كان زيارة الكنيسة لتقديم الشكر لمن أنقذ حياتها... وعادت مى إلى بيتها... وشربت قهوتها مع والدتها... وعرفت مدى حب الناس لها خصوصًا شقيقتها التى ترافقها 24 ساعة فى اليوم... ترد على مكالماتها وتحدد مواعيدها... بحب قلما تجده حتى عند الأشقاء... فأية شقيقة توقف حياتها وتضحى وتضعها فى خدمة شقيقتها 24 ساعة... داخل البلاد وخارجها... فى العلاج وبعده... تحية لمى... لشجاعة امرأة اختارت الإيمان طريقًا... والابتسامة سبيلاً... تحية لمى التى لم تستسلم، ورغم صعابها ومصائبها لازالت مشرقة جميلة... أنيقة... متميزة... وناجحة... هل فهمتم الآن لماذا قررت أن أعيد النظر فى أمور كثيرة فى حياتى.

حتى لا ننسى

الاسم: فاطمة، سيدة فى مقتبل العمر، محتشمة، ترتدى ملابس سوداء فوق ملابسها العادية، ذلك المعطف الطويل الذى يقفل بأزرار كثيرة، وتضع على رأسها غطاءً أسود، تسير بين النساء فتشبه الأخريات، كل النساء فى قريتها الجنوبية يلبسن الطرحة نفسها المعطف نفسه، كل النساء فى قريتها يتشابهن إلى حد كبير فى الملامح، أو هكذا يخيل لنا عندما نراهن بغطاء الرأس الذى يعقد بالطريقة نفسها، كل النساء فى قريتها يعشن الإيقاع الهادئ البسيط نفسه، عدد قليل يعملن خارج المنزل، والأكثرية يسهرن على راحة الزوج والأولاد.

فاطمة، سيدة لبنانية شيعية، كانت تعيش مع أهلها حتى أتاها شاب وسيم لكنه مقعد، أو ربما أصبح مقعدًا بعد الزواج ؟ لست أدرى، المهم أن الزوج على كرسى متحرك ويعيش بأطراف صناعية بدلاً من الأقدام، هو الآخر تمامًا مثل الزوجة،مبتسم راض بقضاء الله، غير متذمر، لست أدرى إن كان المكان هو العامل المؤثر أم أن الرضا يأتى من الداخل؟ بيتهما يقع فوق هضبة، ويطل على وادٍ ذى زرع كثير، تخيلت الاستيقاظ كل يوم على منظر جميل كهذا، وعندما شربت قهوتى وأنا بصحبتهما أثناء زيارتى الأخيرة للجنوب

اللبناني، لم أستطع أن أمنع نفسى من أن أردد: سبحان الله، الله جميل يحب الجمال، والجمال عندما يكون فى الطبيعة فإنه يخلق داخل الإنسان أحاسيس جميلة، لعل على رأسها نعمة تقدير الجمال، وربما التعود عليه لدرجة كبيرة، حتى يصبح القبح بأدنى أشكاله أو صوره مرفوضًا، وتستيقظ صباحًا، تقوم بمهامها المنزلية فى بيتها الصغير المتواضع، وتذهب إلى السوق وتعود محملة بالأكياس، متعبة، فالعبء ثقيل، ولكنها مبتسمة، تعتذر عن التأخير، وتركض لتحضير القهوة، فالرجل لا يستطيع تحضيرها، وفاطمة لا تتذمر، بل تبتسم، وضعت بكل حنان الدنيا يدها فوق كتف زوجها وهى تحدثنا وتحدثه، واسمع منها الحكاية، حكايتها وأستغرب، أفاجأ، وأعجب بشدة من قوة هذه المرأة وبإيمانها، وصبرها وجلدها.

والحكاية بدأت بزواجها من محمد، بعد فترة اكتشفا أنه يعانى من عيب ما يمنعه من الإنجاب دون علاج طويل المدى، ويبدآن معا الرحلة، انتظار وترقب، وكل شهر تحلم بأن تشعر بالجنين يتحرك فى أحشائها، والجنين لا يتحرك، ومرت السنوات، لتصبح خمسًا، خمسًا فى عين العدو كما يقال، وأحست بروح تدب داخلها، وبدأت بتسجيل كل لحظة حتى صور أشعة المولود احتفظت بها، وبعد طول شوق رزق الزوجان بزينب، وأسمياها على اسم ابنة الحبيب المصطفى، السيدة زينب، وبدأت فاطمة تسجل بالصور أول ضحكة لزينب، أول ابتسامة، أول عيد ميلاد، أول مرة رأت فيها البحر، وأصبحت زينب حبيبة أمها وأبيها، وكل سنة من سنوات عمرها

تختصرها صور فى ألبوم يضم لحظات وتعليقات بخط الأم، ومضت السنوات لتصبح ستًا، لكنها لم تكن هذه المرة فى عين العدو، بل فى قبضة يده، وتحكى لى فاطمة ما الذى حدث، بمنتهى رباطة الجأش، بكل ما أعطاها الله من قوة إيمان، بصوت من سلمت أمرها لله، ذات ليلة وأثناء القصف الإسرائيلى المستمر على لبنان، اختبأ الأهالى فى أحد المنازل معتقدين أنه الأكثر أمنًا، اطمأنت على ابنتها الجميلة، الشقراء ذات العيون الضاحكة زينب، اطمأنت أنها نامت، وعلى بعد خطوات منها كان شقيقها ذى السنوات الأربع حسن، نائم هو الآخر، على بعد أمتار كان ينام الرجال، ومعهم زوج فاطمة وسطهم، اطمأنت عليه أنه فى أيد أمينة يرعونه وهى مع النساء والأطفال، وفجأة دوت انفجارات هائلة، متواصلة متلاحقة، بدأت حجارة البيت تقع فوق رءوس النائمين، وقفزت فاطمة تبحث عن أولادها، فوجدت حسن، وبسرعة حملته وركضت به لتعطيه لمن خرج من الناس من جيرانها، وعادت تبحث عن حلم العمر، عن أول فرحتها زينب، فوجدت أنقاضًا كثيرة وتحتها يد صغيرة، حاولت إزالة التراب والأنقاض الكثيرة فلم تنجح، فمسحت على يد الصغيرة آملة ألَّا تكون يد صغيرتها، ونادتها طفلة أخرى، فأخرجتها وعادت فسمعت زوجها المعاق يناديها، فأجابته بكل حب " أنا آتية لك يا حبيبى " وبحثت عن أطرافه وسط الأنقاض، ثم نادت الشباب ليحملوه، توقفت أمام كلمة " حبيبى " أى حب هذا، أى قدرة على العطاء داخل هذه السيدة، وكم من الصدق تحمله كلمة "حبيبى" فى موقف كهذا؟

وخرجت فاطمة ومعها زوجها وطفلها حسن، وبقيت زينب، أخرجتها القوات الدولية فى اليوم التالى فى صورة تصدرت كل الصحف المحلية والعالمية ومعارض الفن التشكيلى.

زينب هى تلك الطفلة ذات الشعر الأشقر الجميل والوجه البريء الجميل، رغم التراب، رغم القصف، نالوا من حياتها ولم ينالوا من براءتها وجمالها، زينب هى واحدة من ضحايا مجزرة قانا التى راح ضحيتها أكثر من خمسين شخصًا، وأقاموا لهم مقابر رمزية تحمل صورهم، وداخل كل منزل هناك، كانت هناك حكاية تشبه حكاية زينب، وكل السيدات هناك يشبهن إلى حد كبير فاطمة، فاطمة التى سألتها: كيف تغلبت على حزنك ؟ كيف عدت إلى حياتك الطبيعية ؟ أجابتنى " عندما أيقنت أن ابنتى تحت الأنقاض ولن أراها بعد اليوم، دعوت الله، وأخذت أتحدث معها وكأنها ستسمعنى، وقلت لها: يا صغيرتى لا تخافى، أنت فى أيد أمينة، وطلبت فى دعائى أن تأتى السيدة زينب التى أسميتها على اسمها كى ترعاها، ثم نظرت إلى فاطمة وقالت: هى فى رعاية السيدة زينب لذا ترينى متماسكة هكذا، أى إيمان هذا؟ أى قوة إيمانية جبارة تلك التى تسكن داخل هذه السيدة؟ ولو نسى العالم كله قانا، فلا يجب أن ينسى أبدًا زينب وعشرات الأطفال الذين استشهدوا معها، آه يا فاطمة، ضاع انتظار السنوات والحلم وأول فرحة، وبقيت فى القلب جذوة إيمان، لم تنجح القوات الغاشمة فى إطفائها، آه يا فاطمة، الصبر فى حلقك علقم، و فى الذكرى مرارة، ولكن، تبقى قوة الإيمان، فاسمحى لى أن أحسدك عليه يا فاطمة، حتى فى الموت لا تخلين من الحسد.

زوجى وشيرى بلير

أثارت تصريحات شيرى بلير، زوجة رئيس الوزراء البريطانى الأخيرة ردود فعل متباينة، خصوصًا من جانب الرجال. فقد صرحت السيدة شيرى أنها طلبت من زوجها رئيس وزراء بريطانيا أن يعود إلى منزله يوميًا فى الساعة السابعة مساء كى يقضى وقتًا مع أولاده. وهذه ليست المرة الأولى التى تصر فيها شيرى بلير على أهمية الحياة العائلية، وأهمية الأسرة فى حياتها... ولقد أنجبت طفلها الرابع وهى فوق الأربعين آملة فى أن تعطى مثلاً لبقية البريطانيات على أهمية الأولاد.... فبلادها لا تعانى مشكلة زيادة عدد سكان أو انفجار سكانى.... بلادها ترجو السيدات أن ينجبن كما هى الحال فى معظم البلاد الأوربية... وهن لا يفعلن بسبب ارتفاع معدلات الطلاق.. وإن أنجبن فهن يفعلن هذا فى سن مبكرة جدًّا، وتكون النتيجة فتيات تركن التعليم وجلسن يربين أطفالهن، والحكومة تصرف عليهن.... وهن ناقمات على المجتمع والحكومة والدنيا، مع أن الحكومة توفر لأولادهن مدارس مجانية وعلاجًا مجانيًا ومساكن مجانية.... والفتيات غير راضيات تتبطرن على النعمة وكأن النعمة تدوم... يجب أن تأتين فى زيارة إلينا وتجربن العيش فى العشوائيات، وتنتظرن فى

طوابير التأمين الصحى أيامًا وأيامًا ومعظمهم.... إما يعيش، أو يموت المريض قبل أن يأتى دوره... وهذا ليس موضوعنا.

نعود إلى شيرى بلير وتصريحاتها... والتى كانت نتيجتها أن بدأ الكتاب يردون عليها فى الصحف ما بين مؤيدين ومعارضين، ومن بينهم صحفى فى الصنداى تايمز... أخذ يسخر منها ويطلب منها أن توفر له إجابة يقولها لرئيسه فى العمل، إن طلب منه القيام بعمل فى موعد انصرافه فهل يجب أن يجيبه أنه لا يستطيع لأنه يجب أن يعطى الرضعة لابنه... يتحدث الكاتب طبعًا بسخرية لكننى استغربت كلامه لأن ساعات العمل فى بريطانيا معروفة و محددة... ويجب الالتزام بها، وأى عمل إضافى يكون مدفوع الثمن، واستغرب من ناحية ثانية طلب شيرى بلير لسبب بسيط، أن زوجها يقضى يومين كاملين عطلة نهاية الأسبوع معها ومع أولادها، يسافر معهم على الأقل مرتين سنويًا، فى إجازة الكريسماس أو عيد الميلاد، وقد تعود أخيرًا قضاءها فى شرم الشيخ فى مصر، وأجازة الصيف التى تمتد لثلاثة أسابيع فى فرنسا أو فى إيطاليا، حقيقة " الطمع وحش " كما يقال، فمع كل هذا تريده أيضًا، أن يعود فى السابعة مساء، ولكن بصراحة استوقفنى طلبها واحترمته، وبدأت أقارن بين ما تطلبه هذه السيدة، و ما اعتبرته مطلبًا شرعيًا وحقًا بين ما يحدث فى بلادنا، إن ذهبت إلى أى نادى تجد النساء يركضن وراء أطفالهن، والرجال جالسين يقرأون الصحف، وفى اجتماعات المدارس المفترض أن أولياء الأمور يحضرون، تجد الأمهات فقط وعددًا قليلاً من

الآباء، أنظر أنا دوما إليهم بإعجاب شديد على اقتطاع جزء من وقتهم الثمين من أجل أولادهم.

والرجال فى عالمنا العربى بشكل خاص، لا يتذكرون أن للمرأة عقلًا وإحساسًا، وأنها تود أن تكون الشريك وكى أكون محقة وعادلة: النساء أيضًا فى أحيان كثيرة يعتبرن الرجل جيبًا، تظل الواحدة تبحث عن زوج وحين يأتى، تصبح كل مهمته فى الحياة الإنفاق عليها وعلى أولادها، أو الممول كما جاء فى المسرحية الشهيرة، وتحثه على مزيد من العمل، بل وتفرح مع كل قرش إضافى دون اعتبار لتعبه وإرهاقه مع أن الحياة مشاركة، وفى مجتمعاتنا ما إن تُدْعى عائليًا حتى تجد النساء وقد أخذن جانبًا والرجال جانبًا آخر، و الزواج عملية شديدة التعقيد، يجب على كل فرد أن يحترم خصوصية الآخر، ولكنه فى الوقت نفسه يجب أن يشارك الآخر همومه، وحياته بتفاصيلها، ولكن ما يحدث عادة هو حضور الزوج فى وقت متأخر، يتناول طعامه، ويجلس ليكمل عمله، إما على الموبايل، أو أمام الكومبيوتر، ينسى تمامًا أن هناك زوجة، حتى ولو كانت عاملة، تنتظر منه حوارًا إنسانيًا، وأولادًا يمرون بمراحل سنية مختلفة يتوقعون منه اهتمامًا وصداقة ومتابعة، ويترك الأمور للأم، ولو أنها قصرت تلام وتسأل، وكأن الزوجين اختزلا فى الأم، والرجال فى بلادنا لا يعرفون معنى الاستمتاع بالحياة، ولا يعنى هذا أنهم يقتلون أنفسهم عملاً، وإلَّا لأصبحنا مثل الصين وأحسن، ولكنهم باسم العمل يقضون ساعات طويلة فى تفاصيل صغيرة، وأى زيارة لأى منشأة قطاع عام تشرح لكم ما أعنيه، تفاصيل صغيرة تستغرقهم واليوم عندهم بسنة.

ومن ناحية أخرى لدىَّ صديقة متزوجة من إيطالى يعمل فى شركة خاصة، يحرص على الانتهاء من عمله فى الخامسة أو السادسة، ثم يذهب إلى النادى لممارسة الرياضة ويعود إلى المنزل ليستمتع بصحبة أولاده، هذا الرجل فى الخمسين لكنه يبدو أصغر كثيرًا من رجال أصغر منه يقضون حياتهم فى الركض واللهاث، ويضحون بحياتهم الأسرية مقابل نجاحاتهم المهنية، أضم صوتى لصوت شيرى بلير، إلَّا أننى لا أستطيع أن أطلب المستحيل، فأتحدث عن عودة زوجى فى السابعة مساء، المعقول والمقبول أن أقول له قبل منتصف الليل، وقصص المشاركة الرومانسية علىَّ أن أنساها ككل امرأة مصرية، وأود أن أشكر شيرى بلير التى تحدثت باسم نساء كثيرات، وعزائى أن حالى من حالها، ولا عزاء للسيدات.

النساء.. وأحوالهن

فى كل مرة تقدم المرأة فى التاريخ، تقدم على اعتبار أنها السبب فى كل الخطايا التى يرتكبها البشر، ومنذ قديم الأزل والمرأة تعامل أسوأ معاملة، مثل شريعة حمورابى التى نصت على أن من حق الزوج معاملة زوجته كالجارية، إن لم تطعه، بل كان له أن يرفع أمرها للقاضى لو أخطأت، وإن ثبت الجرم وثبت أنها أخطأت بمعنى أسرفت فى تدبير البيت أو بذرت، وأنا لا أقصد أخطأت بمعنى زنت، كان للزوج الحق فى إغراقها فى الماء، أما فى عهد الإغريق فكانت مسلوبة الإرادة، ممنوعة من القراءة والكتابة، لا تستطيع الحصول على إرثها بحكم القانون، ولهذا فإن الفيلسوف أرسطو، كان عاكسًا لنظرة مجتمعه للمرأة عندما قال عنها " إن الطبيعة لم تزوَد المرأة بأى استعداد عقلى يُعْتدًّ به " أما فى إسبرطة فقد كان وضع المرأة أفضل بسبب خروج الرجال للحروب، مما أفسح أمامها المجال لقليل من الحرية، وفى عهد الرومان حققت المرأة مكاسب عديدة، وكان هناك نوعان من الزواج، إمَّا مع السيادة، بمعنى سيادة الزوج، أو بدون سيادة بمعنى مشاركة زوجها مع وجوب طاعته، وتحسنت الأحوال بحيث أصبح للمرأة الحق فى الاحتفاظ بأموالها التى ترثها أو تأتيها من عملها.

وفى العصر الفرعونى كانت أحوال النساء أفضل كثيرًا، كن يخرجن سافرات، وكان لهن دور كبير بل إنها كانت أيضًا إلهة، والآلهة إيزيس إلهة الجمال هى خير دليل، وأنا من أشد المعجبات بالملكة حتشبسوت، وقرأت كثيرًا من الكتب عنها، ومعبدها لا يزال حتى اليوم واحدًا من أجمل المعابد فى العالم.

أما فى الحضارة الصينية فكان يطلق على المرأة اسم " فو "، بعد الزواج، أى " خضوع "، اسم يعكس واقعًا مريرًا، وفى الحضارة الهندية كان على المرأة أن تحرق نفسها إذا مات زوجها، وفى الفارسية أعطى زرادشت بعض الحقوق للمرأة، التى فقدتها فور أن مات، إذا كان صوت المعارضين أعلى، وفى اليهودية وصف بعض علمائهم المرأة بأنها لعنة والصالح من ينجو منها، وهى المسئولة الأولى عن أفعال الرجل الشريرة، وهم الذين روجوا لفكرة أن حواء هى التى وسوست لآدم فأخرجته من الجنة، وكانت المرأة اليهودية تعتبر نجسة بعد الولادة فتخرج من بيتها، ولا يحق لها طلب الطلاق، ومن حق زوجها أن يطلقها متى شاء.

أما المسيحية فكانت أرحم كثيرًا مع النساء، فقد أوصى المسيح عليه السلام بالنساء، ودعا إلى حسن معاملتهن حتى ولو أخطأن، وأعطى درسًا عندما سامح مريم المجدلية، ولكن أتباعه لم يكونوا بمستوى سماحته نفسها، والقديس طالب بصمت النساء فى الكنائس لأنه من المعيب لهن الكلام فى الكنيسة، وفى إنجلترا أصدر هنرى الثامن أمرًا ملكيًا بمنع النساء من قراءة الكتاب المقدس.

أما فى الجاهلية فكانت الأنثى يتم وأدها، وكان تعدد الزوجات منتشرًا بشكل كبير.

وعندما أتى الإسلام كرم المرأة، بأن جعل من معظم الآيات القرآنية تتحدث عن الرجال والنساء على حد سواء، وأوصى رسولنا الكريم بالنساء خيرًا، و لكن المجتمع من بعده استنَّ عادات وأعرافًا كانت لها قوة أكثر تأثيرًا من الدين.

فكرت بكل هذه الأمور بمناسبة الحج، ولقد كتبت سابقًا فى هذا الموضوع لكنه يطيب لى التحدث فيه، يأتى موسم الحج، وبمراسمه المختلفة، وينسى الناس أن وراء كل هذه المراسم والشعائر سيدة، السعى بين الصفا والمروة بسبب سعى السيدة هاجر عندما تركها زوجها النبى إبراهيم عليه السلام، فى وادٍ غير ذى زرع، ونفد الماء، وكان طفلها إسماعيل رضيعًا، صحيح أنها قالت إن الله لن يضيعها ما دام قد أمره بتركها، وهو منتهى الإيمان والتسليم، وتبحث عن أى نقطة ماء، فتحول سعيها إلى ركن من أركان الحج، والوقوف بعرفة.

حكاية أن الجبل هو أول مكان التقى فيه آدم بحواء، بعد أن خرجا من الجنة ونزلا الأرض متفرقين، وبحث كل منهما عن الآخر فالتقيا فوق قمة الجبل، هذا ما قيل لى عندما كنت أؤدى شعائر العمرة، وأردت مشاهدة جبل عرفات فى غير أوقات الحج، آملة أن أراه يومًا عندما أدى أؤدى الفريضة، إذن امرأة أخرى تقف وراء أحد الشعائر المهمة، بل أهمها، فالحج عرفة، وأنا أؤيد حكاية اللقاء، فاللقاء كان بداية لحياة جديدة ومختلفة، بعد أن أخطأ آدم وحواء واعترفا بذنبهما، فنزلا الأرض ليبدآ حياة جديدة.

لست أدرى لماذا يُغْفَل دومًا دور النساء، ولا يتذكر الناس الدور الكبير الذى قمن به من أجل الإنسانية، ويكون الرد أن الله سبحانه وتعالى قد جعل من كل أنبيائه ورسله رجالاً، ورأيى أنا ـ لو سمح لى ـ أنه أعطى للسيدة مريم ما لم يعطه لأى من نساء الأرض، أن تنجب دون أن يمسسها بشر، وهذه المعجزة وحدها تثقل كفة الميزان، فالله تعالى لم يتجاهلهن، بل على العكس تمامًا، كان دائمًا لهن دور أغفله البشر، ما يزعجنى حقًا هو ترديد أن وراء كل رجل عظيم امرأة، والحديث عن مساندة النساء للرجال، لماذا لا يقال قرب أو جنبًا إلى جنب الرجل العظيم امرأة، على كلٍ بمناسبة عيد الأضحى، تحية للسيدة هاجر، وللسيدة حواء.

أمــى

عندما كنت صغيرة... كنت مختلفة عن بقية الأطفال.. لم أكن ألعب بالعرائس أو بأدوات الطبيخ كما كانت تفعل شقيقتى، وكل من أعرفهن من صديقات.. كنت أفضِّل على كل هذا قراءة كتاب.. وكانت أمى هى المحرك الأساسى وراء تلبية احتياجاتى.. لم أسمعها يومًا تتذمر من أى قرش أنفقته على كتاب أو مجلة.. كانت تأخذنى من يدى وتجلس صابرة حتى اختار وتدفع دون حتى مناقشة أو طرح سؤال مثل: وهل ستقرأين كل هذا؟ أو لماذا وأنت فتاة.. أو أى من التساؤلات الأخرى التى كانت تطرحها الأمهات عن ضرورة توفير هذه النقود لأشياء أكثر قيمة.. أذكر جيِّدًا أنه فى الصيف كان لابد أن أذهب إلى بائع مجلات عجوز فى محطة الرمل فى الإسكندرية، ومهما كانت المشاوير مهمة كان مشوارى للبائع هو الأهم.

عودتنى أمى على مشاهدة السينما... كانت تحبها فنقلت هذا الحب إلىَّ.. رغم أننا نختلف فى الأذواق فإننا جميعًا هى وأنا وأولادى من بعدى من عشاق السينما، وهو الأمر الذى يتفق عليه جميع أفراد العائلة.. أمى من أصول لبنانية سورية.. فعلمتنى ألاَّ أحكم على شخص بجنسيته، وأن أوسِّع مداركى فأحب العرب جميعًا وأتعاطف مع قضاياهم كأنها قضيتى.

أمى متدفقة.. تقول ماتفكر دون حسابات.. وأخذت الأمر عنها لدرجة أننى ألام بشدة عليه ممن لا يفهمنى جيِّدا... أمى عاطفية لدرجة كبيرة.. وأنا أيضًا رغم أننى قضيت سنين طفولتى وأنا أعاتبها على حساسيتها المفرطة وألعب دور الحكيمة، التى تفهم الكثير من أمور الدنيا، وسن المراهقة يهيء لى كما يهيء للكل أنهم يعرفون كل شىء، وأن كل مايقولونه هو الحق.

ومرت السنوات.. وإذا بى مع الأيام أتحول فى أموركثيرة إلى نسخة منها.. أولادى يسخرون من عاطفتى الشديدة ويلوموننى على صراحتى، ويقومون معى بدور الناصحين الذين يعرفون كل شىء، ويتهموننى بأننى لم أفهم الدنيا "صح" وهم فهموها !!... الدنيا دوارة كما يقال.. وما كنت أفعله فى أهلى يفعله بى أولادى اليوم.. كنت (ومازلت.. يجب أن أعرف) شديدة العند وأفسر كل اعتراض على رأيى بأنه قهر وتحطيم... ابنى اليوم يقول لى: "أنا حر " " وأنا مقتنع أننى على صواب" أو " لا تفرضى رأيك علىَّ " فأغضب وأسحب كل نظرياتى القديمة وأبدأ فى حجج تصب فى أن الديمقراطية فوضى، والديكتاتورية أسلم خصوصًا للأولاد.. لم آخذ من أمى صبرها.. وساعات نقاشها الطويلة معى.. لم آخذ قدرتها على العطاء التى لا تنضب أبدًا. وكأنها نهر يتجدد يوميًا بمياه جديدة منعشه، لم آخذ من أمى تقبلها لى بكل علاتى ومساوئى، وقدرتها على جعلى دومًا أحس بأننى مختلفة وأن اختلافى نعمة.. لم آخذ من أمى كم الحنان الذى تغدق به على وعلى زوجى وأولادى.. هلعها عندما يمرض أحدهم وشجارها معى، حتى اليوم إن خرجت دون جاكت فى

البرد، وكأننى طفلة لم تكبر بعد... لم آخذ من أمى قدرتها على الإدارة فهى أكثر صرامة منِّى... وعندما كانت تقول " لا " لم تكن تتراجع عنها، أمَّا أنا فأتراجع عند أول " عشان خاطرى " وغضبى يتحول إلى ماض.. سبحان الله... قد يحب البعض أمه، قد يرفضها أو قد يكرهها لا أتخيل كيف يكون هذا إلَّا أن صفحات الحوادث وتكرار عمليات قتل الأبناء لأهلهم تجعلنى أضع هذا الاحتمال، إلاَّ أننا امهما حاولنا تغيير أنفسنا نبقى بشكل أو بأخر صورة من أهلنا.. وعندما نجد فى أولادنا أمرًا نحبه ننسبه إلينا.. أما العيوب فهى دومًا مأخوذة من الطرف الآخر.. لكن السنين تنجح فى أمر قد تخفق فيه محاولات الأهل المتواصلة... الفهم.. عندما نرزق بأولاد نتفهم أكثر أهلنا.. بل ونحبهم أكثر.. لم أشعر بمعاناة أمى إلَّا فى ليالى السهر التى قضيتها قرب أولادى.. وفى كل مرة يمرض أحدهم أو أشعر بالقلق عليهم، أنظر إليها بإعجاب كيف تحملت كل هذا وحدها.. ووالدى توفى وأنا فى أكثر المراحل احتياجًا إلى أب.. مرحلة المراهقة.. أمى لها تعبير شامى أحبه كثيرًا تقول " كل شبر بنذر " أى أن الأهل ينذرون كى يكبر أولادهم بسلام.. واستغرب ممن تأخذهم الأيام بعيدًا عن أهلهم.. يزورنهم فى المناسبات أو يعاملونهم بقسوة... أنا عندى يغضب العالم كله منِّى وترضى أمى علىَّ فيا رضى الله... ورضى أمى.

الواد قلبه بيوجعه

لست أدرى من كان أول من قال إن الخيانة تسرى فى دم الرجال؟ وأنه من المستحيل أن يقضى أى رجل عمرًا بأكمله مع امرأة واحدة، دون أن ينظر إلى غيرها (ولو خلسة)، أو يخونها ولو مرة (قولاً أو فعلاً) على الأقل؟ إلا إننى أعرف اثنين فقط لم يفعلا هذا... حتى اليوم لا بالنظر ولا بالفعل... ربما يجب أن يتم عرضهما على طبيب نفسى، لكن غالبية الرجال فى الشرق يعتبرون أن التلميح والغزل، أو حتى استقبال الغزل من الطرف الآخر، من الآمور العادية، ولا تندرج تحت بند الخيانة. نحن الشعوب التى كانت يومًا تعتبر أن الشاعر الذى يمدح فتاة لا يحق له الزواج بها، لأنه كشف للآخرين ملامحها. ما الذى بقى لنا من أخلاق الفرسان؟ رجال البادية الذين كانوا يحاربون بالسيف والقلم.... ماذا بقى فينا من الذين فتحوا بلادًا ووصلوا إلى الاندلس مرورًا ببلاد عدة؟ ماذا بقى فيينا من رجال أسهموا فى العلم والفنون حتى أخذ العالم كله عنهم؟

الإجابة لست أدرى... كى لأحرج أحدًا... ما الذى تغير فينا ؟... الكثير... الرجل الذى يقبل أن يعاكس أمرأة فى الشارع يستبيح لنفسه حقًا ليس له... أو يلتصق بها فى مكان ضيق، أو المسئول

الذى يستغل سلطانه ويسمح لنفسه باستغلال العاملات معه دون قانون يردعه... كما هى الحال فى الخارج حيث يوجد قانون يدعى "التحرش" ليعاقب بالحبس أو الغرامة كل من تسول له غرائزه، أن يقول أو يفعل ما يؤذى مشاعر أنثى... وقد يصل الأمر إلى حد اعتبار المديح غير اللائق تحرشًا... أنا أسمِّى هذا تحضُّرًا... اسمى تصرفاتنا همجية... وتخلُّفًا.

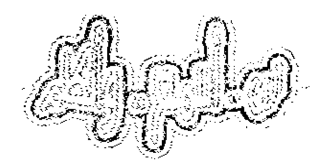
وليسامحنى القراء ولكن ازدواجية معاييرنا تغضبنى... فالرجل سبع فى منزله بشنبات أو بدون و.... العكس تمامًا عندما يتعلق الموضوع بالنساء... أو برؤسائه أو بمن يكون له مصلحة معهم.... ولو طبقنا قانون التحرش على السياسة.... فسنجد الأمر مشابهًا... نسمح لدولة مثل أمريكا ودولة آخرى مثل إسرائيل... بأن تستبيح بلادًا مثل العراق وفلسطين، وتصل الاستباحة إلى حد الاغتصاب... ونصمت ما دام الأمر لم يصل إلينا... ما دام التحرش لم يطلنا... ما دمنا مازلنا فى أمكاننا سالمين.... المشكلة اعتبارنا للعيب أمرًا طبيعيًا... وفى قناعتنا بأن التغيير مستحيل... وانتظار المخلص... المسيح القادم الذى سيأخذ بيدنا ويقودنا إلى النور... نقبل العيب على أنفسنا وعلى بيوتنا... نمد أيدينا بحجة أن الراتب لايكفى... نحلل الرشوة... بحجة أن الأسعار غالية... نحلل المعاكسة بحجة أن البنت.. ترتدى فستانًا قصيرًا وإن كانت المعاكسة لا تستثنى حتى من ترتدى غطاء الرأس... نذافع عن أهمية الصلاة ونهاجم السافرات ونعِدُهُنَّ بجهنم... وبئس المصير.. ونبيح لأنفسنا إفراغ الكبت فى

أمور عديدة مرفوضة... والقانون والدولة فى حق الرجل... فالزانى لايعاقب إلَّا لو كان على فراش الزوجية فقط... وكأن الخيانة تفرق بين مكان وآخر... وكأن الخيانة فى الفندق شرعية وفى المنزل حرام... مع أن الشرع قال عكس ذلك، والأديان السماوية كلها حرمت الزنى... ولو قتلت الزوجة زوجها الزانى تعدم أو تحصل على المؤبد... بينما لو قتل الرجل زوجته الزانية يحصل أقصاه على شهور قليلة، وربما مع وقف التنفيذ... فقد كان يدافع عن عرضه... أما المرأة فلا عرض لها تدافع عنه، أو أقول إن الزنا للرجل حلال... للمرأة حرام... مع أن الأديان السماوية كلها حرمته على الاثنين ولم تفرِّق.

مللت من عبارة " عالم ذكورى " من كثرة ترديدها، فالعالم ذكورى والقانون ذكورى والدولة بمسئوليها معظمهم من الذكور.. وقانون التحرش إذا ما عدنا اليه يتيح للمتضرر ـ وعادة تكون متضررة ـ رفع دعوى للحصول على تعويض مادى، لماذا ؟... لأن خسارة الفلوس توجع وتجعل الفاعل يفكر مرة واثنتين قبل الإقدام عليها مرة أخرى... تجعله يُجْبَرَ على احترام زميلاته فى العمل... أضف إلى الوجع... الفضيحة.

أعرف كثيرًا من الرجال الذين يعتبرون الإصرار على الغزل واعتذر من الكلمة فهى أرقى من الطريقة المستخدمة من هؤلاء، يعتبرون أن كل امرأة تنتظره منهم... وهنا أفرِّق بين الإطراء على عمل وبين أمور أخرى... أعترف ـ كى أكون منصفة ـ أن هناك نساء يستمتعن بهذا... ولايجدن غضاضة... وهذا أيضًا خطأ...

فمن استباحت لاذنيها كلامًا لايليق، أعطت القائل فرصة قول المزيد... والقانون لايساعد... فبعض النساء تسكتن خوفًا وخشية، لأن الرجل خصوصًا المدير فى العمل حين تصده المرأة يدخل مرحله جعلها " تدفع الثمن "... ناسيًا أن لها حرية الاختيار وأن احترامه لها... جزء من احترامه لنفسه... المشكلة كلها قلت آنفًا إننا أصبحنا نعتبر العيب أمرًا عاديًا... وهذا ينطبق على الكثير من أمور حياتنا... هذا يجعلنا نقبل الكثير من التنازلات... انتهى عصر الفرسان والفروسية... يبدو أن المواصلات والتنكولوجيا قد حلت محل الخيل، وأى شىء يضيع منا لم تعد له قيمة فى نظرنا... حتى الأخلاق أصبحت غالبًا موضة قديمة عفا عليها الزمن... وأصبحنا كمن رقص على السلم... لانحن كالغرب فى قوانينه واحترامه للحريات... ولا كالشرق فى احترامه للقيم والأصول... المشكلة أن الرقص طال والوسط تعب... لا الحقيقة... فالقلب هو الذى تعب... وعلى رأى من قال... الواد قلبه بيوجعه... وعايز حد يدلعه... هذا عن الرجال.... أما النساء... فلازلنا فى مرحلة "ظلموه".



7

شخصيات وأحداث

حِبْ الجميع، ثق فى الجميع،

ولاتؤذِ أحدًا

وليام شكسبير

عمر الخيام

كلنا لا يعرف عن عمر الخيام إلاَّ رباعياته، وعلاقته بالخمر وأشعاره التى كتبها عنها، لكن الخيام فى الحقيقة كان حكاية، كما يقال، انبهر به الناس فى الغرب، وترجمت الكثير من مؤلفاته، وأنا أقرأ هذه الأيام كتابًا فرنسيًا عنه، أعطاه حقه وحوَّله إلى أسطورة، والأسطورة فى كونه وجد فى عصر اشتدت فيه قوى التطرف على يد من أسماهم التاريخ بالحشاشين، وهم فى حقيقة الأمر ينسبون إلى حسن صباح، صاحب الفكر الأصولى المتطرف، والذى أنشأ فرقة كانت أول فرقة استشهادية فى التاريخ، تقتل الحاكم أو المسئول الظالم، ويقف القاتل لا يفر منتظرًا الموت على يد من يلقون القبض عليه.

وإذا ما عدنا إلى الخيام فاسمه أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام، ولد فى نيسابور عاصمة خراسان، ولم يكتشف العالم عبقريته الشعرية إلَّا بعد سبعمائة سنة من وفاته فى مسقط رأسه عام 1123، لقب بالخيام لأنه كان فى بداية حياته يصنع الخيام، حتى التقى بنظام الملك وزير السلطان ملك شاه، والذى كان يترك كل الأمور بيده، ثم انقلب عليه فى النهاية، المهم أن نظام الملك خصص لعمر الخيام راتبًا سنويا، وأجزل له العطاء وأعطاه فرصة البحث العلمى، وأنشأ له

مرصدًا إذ كان الخيام من علماء الفلك والرياضيات، وأشهر مؤلفاته فى هذا المجال " الجبر والمقابلة " الذى ترجم إلى لغات عدة وأعد تقويمًا فى الفلك يعتبره العلماء أدق من التقويم الجريجورى.

الخيام ظُلم كثيرًا، فلقد اتهم بالإلحاد والتشكيك فى وجود الله، على الرغم من أن شاعرًا مثل أحمد رامى ترجم أعماله وقال عنه إنه كان موحِّدا بالله ومصليًا، أدى فريضة الحج، هو ما دعا الصوفية الذين كانوا ألد أعدائه إلى إدخال شعره فى أورادهم فهو الذى قال:

" نصوم عن الفحشاء جهرًا و خيفة

عفافًا و إخطارًا بتقديس خاطرى"

والصورة التى قدمت للغرب عن عمر الخيام، فيها الكثير من المغالطة، فرغم تأثر الكثير من الشعراء به، وعلى رأسهم الإنجليزى **فيتزجيرالد**، الذى ترجم أعماله فعرَّف العالم به فإن الصورة المقدمة له تبقى صورة الماجن الذى يحتسى الخمر.

وعمر الخيام نموذج لما يحدث حتى يومنا هذا، مع اعترافى بأن الخمر حرام، وهذا أمر لا نناقشه، وليس موضوعنا، لكن قضيتى هى فى كل شخص ينصب نفسه حاكمًا على الآخرين يكفِّر ويفرِّق، ونحن فى مجتمعاتنا أساتذة فى الحكم على الآخرين، ونطلق أحكامنا ونوزعها وننشرها دون رحمة، نختلق الأكاذيب ونصدقها، نحكم من خلال المظهر، ولا نحاول الدخول فى الجوهر، صحيح أنه فى أحيان كثيرة يكون الاثنان متسقين معًا، إلَّا أننى من أصحاب نظرية

قديمة لست أدرى من اخترعها أو قالها: وهى أن الإنسان خيِّر بطبعه ومهما ارتكب من آثام فهذا غضب اللحظة، صحيح أنني فى أحيان كثيرة أراجع نفسى، فهناك أشرار مع سبق الإصرار والترصد، لكننى أحاول تجاوز المحنة والتمسك بقناعاتى،ولو اتهمنى البعض بعدم الواقعية.

وإذا ما عدنا للخيام فهو مثال صارخ لما يمكن أن يحدث فى أى زمان ومكان، حكم عليه الناس بالإلحاد وأحرقوا كتبه، اتهموه بالهرطقة وبالكفر، وعينوا أنفسهم حراسًا على فكره، ناسين أن الله سبحانه وتعالى هو من يحاسب، نصبوا أنفسهم قضاة وأصدروا أحكامًا بالإعدام على كتبه وفكره ورأيه، وما حدث للخيام حدث للكثيرين غيره، لا أذكر الآن إلَّا كتاب " إحياء علوم الدين " للشيخ الغزالى والذى أصبح فيما بعد واحدًا من أهم الكتب الإسلامية، وابن رشد الذى أحرقت كتبه وكان عددها 109 كتب عام 1189، واعتبر الحدث والتاريخ بداية خروج العرب من العالم المعاصر، ونكوصهم إلى الماضى السحيق، وكتاب طه حسين " فى الشعر الجاهلى " الذى أحرق عام 1926 كان علامة على عدم وجود فكر تنويرى، ومنع كتب مثل " أولاد حارتنا "، لنجيب محفوظ و" نقد الفكر الدينى " لصادق جلال العظم " و" فقه اللغة العربية " للويس عوض، حتى كتاب " النبى " أحد أجمل كتب جبران خليل جبران، بعد أن قرأته مرات ومرات فى طفولتى تمت مصادرته عندنا منذ عامين تقريبًا.

ومع احترامى الكامل لكل مبدع ومفكر، واعترافى

بحقه فى كتابة ما يشاء، أجدنى أعترض على كُتَّاب مثل سلمان رشدى الذى اشتهر بسبب هجومه المستمر على الإسلام والمسلمين، وتقديمه شخصية المسلم دومًا على أساس أنه المتطرف كما حدث فى آخر رواياته " شاليمار البهلوان " والتى تحكى عن سياسى يهودى يتعرض للقتل على يد سائقه المسلم، وبغض النظر عمَّا إذا ما كانت أسباب القتل سياسية أو شخصية، فإن تقديم صورة اليهودى الضحية والمسلم المجرم صورة أرفضها، وتقديمها للغرب تكريس لفكرة قديمة جديدة، فكيف إذا ما شهد شاهد من أهلها، أى كان الكاتب مسلمًا، وربما يعود هذا إلى إفلاس الكاتب الذى أصبحت زيجاته ومغامراته العاطفية تغطى على أخباره الأدبية، إلَّا أننى هنا وقعت مثل غيرى فى فخ الحكم عليه، وأنا أتحدث فقط عن آخر جزء، أى الخاص بالمغامرات النسائية، أما كتاباته وموقفى منها فأنا أتمسك به، ولكن دون أن أرحب بفكرة منع كتبه أو إهدار دمه، ولو فعلنا هذا لوجب تعيين سياف لقطع رقاب كل من يقول رأيًا لا يعجب المنوط به، فى وقت من الزمان فى ظرف ما القيام بهذا الدور، أنا ضد أى حجر على عقل المتلقى،ولكن ـ وكى لا أفهم خطأ، أنا أيضًا يحكم علىَّ بأحكام سلبية ـ لا ينطبق الأمر على الكتب العلمية، وأدخل فى هذه الشريحة الكتب الدينية،فالكتب الموجودة والمنتشرة فوق الأرصفة، والتى تتحدث عن عذاب القبر وما ينتظرنا فى الآخرة من أهوال، تدرج تحت بند الكتب العلمية، لذا وجب مراجعتها من المختصين، الوضع نفسه ينطبق على الكتب المسيحية، يجب أن تمر على أساتذة من الأزهر والكنيسة كى لا تفسد عقول الشباب.

وأعود إلى ما بدأت به، عمر الخيام، الذى كتب الكثير عن الخمر،وكتب رباعية جميلة تقول:

يا عالم الأسرار علم اليقين

يا كاشف الضر عن البائسين

يا قابل الأعذار فئنا إلى

ظلك فاقبل توبة التائبين

عمر الخيام الذى كفروه وأحرقوا كتبه، مات بعد أن صلى ركعتين لربه حسبما يقول المؤرخون.

نوستراداموس

فى كل مرة نقترب فيها من نهاية العام أتذكر نوستراداموس، مع أن العالم كله يتذكره عند الكوارث فحسب، وأنا شخصيًا مهتمة بقراءة كل ما يخص هذا العالم الشهير، لأنه نجح بعد مرور قرون عديدة فى أن يظهر اسمه دومًا، ودون كلل أو ملل، جرب فقط كتابة اسمه على صفحات البحث على الإنترنت، وسوف تجد مئات الموضوعات عنه وبكل اللغات، فهو واحد من أشهر الشخصيات فى التاريخ.

ونوسترادموس هو اسم لاتينى لطبيب ومنجم فرنسى، نسبة للمكان الذى كان يسكن فيه من مواليد عام1503 م، يهودى الأصل، ولكن أسرته تخلت عن اليهودية واعتنقت العقيدة الكاثوليكية وكان وقتها ميشيل، وهذا هو اسمه، فى التاسعة من عمره، تأثر كثيرًا بجده الذى علمه قواعد اللاتينية والإغريقية والعبرية، وأصول الرياضيات والتنجيم وبرع فى العلوم الطبية، واهتم بشكل خاص بعلم التنجيم،ورغم أنه اشتهر بقدرته على شفاء الأمراض فإنه لم ينجح فى إنقاذ زوجته وطفليه من مرض الطاعون، الذى كان منتشرًا فى تلك الفترة، ثم تزوج بعد عدة سنوات من أرملة ثرية ساعدته فى التفرغ لتأليف كتبه عن الغيبيات ونشرها وأشهرها كتابه " القرن " وقرن عند نوستراداموس لا تعنى مائة سنة، بل مائة نبوءة.

كانت له نظريات جديدة فى الطب والعلاج، من بينها

رفضه استنزاف دماء المريض الذى كان منتشرًا بشكل كبير فى ذلك الوقت،وقد نشر عام 1552 وصفاته العلاجية فى كتاب، وفى عام 1550 كان يزور مدينة سالون الفرنسية فرأى طفلاً صغيرًا وتنبأ بأنه سيصبح ملكًا على فرنسا فى يوم من الأيام، مع أن ملكة فرنسا كاترين كان لها ولدان على قيد الحياة، وأصبح هذا الملك هو هنرى الرابع أحد أشهر ملوك فرنسا، والذى أنهى سنوات من الحروب الدينية عندما وقع اتفاقية وهو واحد من الذين أظهروا تسامحًا دينيًا كبيرًا، فى وقت كان الدين هو مشعل الحرائق الأول، لذلك أصبح اسمه هنرى العظيم.

كان نوستراداموس يكتب نبوءاته فى شكل رباعيات شعرية، وعبر التاريخ تحققت نبوءات عديدة له، ولعل أشهرها نبوءاته بصعود نابليون بونابرت،وهزيمته ويقال إن الإمبراطورة جوزفين هى التى لفتت نظر زوجها بونابرت إلى الكتاب،وأنه عندما وصل إلى الرباعية الخاصة بهزيمته أحرق الكتاب، وزوجة جوبلز وزيرالدعاية فى عهد هتلر أعطت زوجها أيضًا الكتاب، وتم استغلاله، فكانت الطائرات الألمانية تلقى بنبوءات نوستراداموس فى كل الأراضى التى هاجمتها ألمانيا خصوصًا فى انجلترا، فتكلفت انجلترا ربع مليون جنيه استرلينى لمقاومة نبوءات نوستراداموس، بأن نشرت نبوءات أخرى له ولكن مضادة،ونبوءات منجمين آخرين،وهذا الأمر ثابت فى سجلات الحرب البريطانية، وتنبأ نوستراداموس بمقتل كنيدى الرئيس الأمريكى عندما قال " الرجل العظيم فى أعظم دولة تصرعه صاعقة فى عز الظهر وأخوه بعد ذلك " وهو ما حدث، وتوقع نوستراداموس استيلاء اليهود على أرض فلسطين.

وفى نهاية الثمانينيات أنتجت هوليود فيلمًا ناجحًا ظهر

فيه نوستراداموس وهو يتنبأ بالثورة الفرنسية،وظهور هتلر وصدام حسين، وعندما انهار البرجان فى الحادى عشر من سبتمبر ازدادت مبيعات الكتب التى تتحدث عن نوستراداموس فى الولايات المتحدة، والعالم كله، باحثين عن رباعية تتنبأ بما حدث، وكان يكتب نبوءاته فى كل مكان وكان يردد " إن عندى موهبة، هذه الموهبة هى عبارة عن قوة، والقوة تملأ جسدى كله،تهزنى بعنف، وأسمع صوتًا، وأرى نورًا "، وسواء اعترفنا بنوستراداموس، أم لم نعترف، لا نستطيع أن ننكر رغبتنا فى معرفة الغيب، ربما لأن الإنسان بطبعه يخاف من المستقبل، وقصص كثيرة حاولت منع القدر بسبب معرفة الغيب وفشلت، مثل حكاية أمير سمعتها أثناء زيارة قمت بها إلى اسطنبول منذ عدة أعوام، الأمير كان مولعًا بابنته ولعًا شديدًا، فأحضر عرافًا تنبأ له بموت ابنته وهى فى سن الشباب، فجزع الأب وقرر أن يبعدها عن أى خطر، فأقام لها قصرًا فوق جزيرة فى وسط نهر البوسفور،وكان على من يريد الوصول إليها أخذ مركب،وأحاطها بحراسة شديدة وكبرت الفتاة وحيدة تقضى وقتها فى النظر من النافذة حزينة متسائلة عما تحمله لها الأيام،وذات يوم طلبت أن تأكل عنبًا، فأحضروه لها، إلَّا أن ثعبانًا سامًا كان قد تسلل وسط الفاكهة، وما إن مدت يدها حتى قرصها لتموت وسط برجها العالى، صحيح، لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع،ولكن مع قدوم كل سنة نجدنا نحاول قراءة الطالع، والتوقعات، نبحث عن الخير وعما يحمله المستقبل، رغمًا عنَّا نجدنا نفسر ونقلق ونتوتر،لوكانت الكلمات مثل " قلق " أو " توتر " فى علاقة عاطفية، أو مشاكل فى محيط العمل،ونفضل الانفراجات والمفاجآت السارة.

وإذا ما عدنا إلى نوستراداموس فقد عانى داء النقرس، مما أدى إلى داء الاستسقاء، فأدرك بوصفه طبيبًا أن نهايته أصبحت وشيكة، فكتب وصيته فى السابع عشر من يونيو عام 1566،وفى الأول من يوليو طلب القس المحلى ليجرى له الطقوس الأخيرة،وفى اليوم التالى وجدت جثته تمامًا كما توقع،أى قوة هذه التى كانت تحكم هذا الرجل.

وتوقعات نوستراداموس لعام 2007 حسبما جاء فى كتاب حقق مبيعات ضخمة فى العالم للكاتب "مايكل راسفورد" أن قائدًا من الشرق الأوسط ينجح فى الحصول على سلاح نووى وسوف يستخدمه، إلَّا أن قنبلة سوف تستقر فى البحر الأبيض المتوسط مما سوف يتسبب فى تسمم الأسماك،وسوف تندلع حرب أخرى، الولايات المتحدة ستتعرض لكوارث طبيعية كثيرة خصوصًا زلازل وفيضانات مسببة خسائر فادحة، فى إيران سوف تحدث مشاكل عديدة،وبسبب خطأ سوف تسوء العلاقات بين دولتين عظميين،وفى بلاد العالم الثالث كما أسماها الكاتب سوف يصعد شاب أسمر البشرة كقائد محبوب، هدفه توحيد بلاد العالم الثالث لمحاربة الدول العظمى،ويشير الكاتب أيضًا إلى أن الكتب المقدسة قد أشارت إلى أحداث مماثلة فى منطقة الشرق الأوسط، هذه النبوءات حصل عليها الكاتب من وثائق كانت مخبأة واكتشفها أعضاء المكتبة الوطنية الإيطالية فى مايو من عام 2004.

على كل، كذب المنجمون ولو صدقوا، أو صدفوا،ولا يعلم الغيب إلَّا الله.

ملوك الطوائف حكاية حب

من لم يشاهد مسلسل "ملوك الطوائف" قد فاته الكثير، هو مسلسل سورى من إخراج حاتم علي، يحكى حكايات آخر ملوك الأندلس قبل سقوطها، للأسف لم أتابع المسلسل منذ بدايته واكتشفته بعد انتصاف الشهر الكريم، إلَّا أننى منذ زمن بعيد، لم أشعر بارتباط بعمل مثلما حدث لى مع "ملوك الطوائف" كنت أحرص على البقاء فى المنزل ساعة إذاعته، ومتابعة الحوار والانبهار بالأماكن التى تنوعت ما بين الأندلس فى إشبيلية وغرناطة ومرورًا بالمغرب.

والحكاية ببساطة تنطبق على أحوالنا اليوم، ملوك يتصارعون ولا يتحدون، وتسقط الأندلس فى النهاية ضحية لضعفهم، ففى الاتحاد قوة لم يعرفوها، وفى الفرقة ضعف أوهن قوتهم، أما أجمل ما فى الموضوع وسط هذا الزخم من الأحداث السياسية، فهو حكاية محمد الملك الذى أحب جاريته اعتماد، كان محبًا للشعر يقرضه دومًا وذات يوم وهو واقف مع ابن عمار مستشاره وصديق عمره الذى خانه فيما بعد، يحاول إيجاد كلمات تكمل أبياته سمع صوتًا ناعمًا يعطيه الإجابة، فوجد جارية تغسل الملابس رائعة الجمال تجيب، فأحبها من النظرة الأولى وكى أساعدكم فى عيش اللحظة الجميلة أقول إن

الجارية قامت بدورها أجمل ممثلات سوريا فى رأيى على الإطلاق «سلاف فواخرجي» أما المعتمد فقام بدوره ممثل شديد التميز يدعى «تيم حسن».

لم أكن أعرفه قبلاً، وتعرفت عليه عندما قدم دور الشاعر نزار قبانى فى شبابه، وقع محمد فى حب الجارية وأحبها لدرجة أنه اختارها زوجة له، لم يرض لحبيبته أن تبقى جاريته ولو فى قصره، أرادها حرة سيدة، وملكة، والأكثر أنه تزوجها، وكان من المتعارف عليه أن من يصبح ملكًا يأخذ لنفسه لقبًا فاشتق لقبه من اسمها «اعتماد» ليصبح «المعتمد»، الملك الذى أحب كل هذا الحب الذى لم يفهم بشكل صحيح، وعندما سقطت مملكته كانت الحجة التى تقال، وماذا ينتظر من ملك اتخذ لقبه من اسم امرأته؟ وكأن الحب عيب أو المرأة عورة أو كائن ناقص، وبدأوا يهتفون ضدها وضده فخافت وذهبت باكية تسأله: أكانت فألاً سيئًا عليه؟ فأجابها: أى شر فى العشق؟ تنقضى الممالك ويبقى سلطان القلوب ولا قبل لأحد به.

ثم قال، عاش محرومًا من لم يذق حلاوة العشق، وأجمل الممالك هى مكانها القلب، وأضاف، لو كانوا ذاقوا حلاوة عشقى لك لما لامونى على اتخاذ لقبى من اسمك، نموذج بسيط لحوار دار بين الزوجين الحبيبين، حوار أشبه بروايات الأمس التى تربينا عليها، وتجعل مخيلتنا تعمل وقلوبنا تدق ونتابع كلمة بكلمة ما يقوله الأبطال، والمرأة دومًا وفى كل مكان وزمان مظلومة، ولا يجب أن نستغرب رد فعل الشعب والناس فى ذلك العصر فالدنيا كانت مختلفة، ولم تكن هناك

مناداة بأى نوع من الحقوق أو المساواة، الغريب هو أ ننا لوكررنا السيناريو اليوم لو ظهر رجل ناجح وبجانبه زوجته، لو بحث عن حبه لها، بأى شكل أو ظهر فى علاقته بها أى قدر من الشاعرية لاتهم بالجنون أو أنه ليس كباقى الرجال، ولهوجم وعوقب واعتبر كائنًا ضعيفًا، ولصورت المحبوبة بأنها القوية المفترية، فى مجتمعاتنا العربية غير مسموح بتعبير الأزواج عن مشاعرهم لزوجاتهم، إلَّا فى الغرف المغلقة، فلم يتعود الأولاد فى العالم، العربى سماع كلمات حب من أبيهم لأمهم أو العكس، والمعتمد كان مدركًا للأمر فقال لزوجته يومًا أرأيت رجلاً يشتاق إلى زوجته عند بعده عنها، ويكتب لها شعرًا؟ فأجابته «لا إلَّا فيما ندر» فقال لها «فكيف إذا كان هذا الزوج ملكًا؟ تحية لرجل احترم مشاعره ودافع عنها ورفع من قيمة زوجته ليجعل منها حبيبة دائمة.. فالنساء فى بلادنا ما إن يصبحن زوجات حتى يتحولن إلى الحبيبات السابقات، ويلغى لقب الزوجة صفة الحبيبة.. رحم الله المعتمد ومعه اعتماد.. حب كهذا لا تعرفه الأزمنة كثيرًا للأسف.. فنحن من يخنق المشاعر بيديه. وإلَّا لكانت حال الدنيا قد تغيرت، فالحب يرفعنا درجات وينقِّى نفوسنا، لو أصبح مذهبنا، ولكن رجلاً مثل المعتمد لا يجود به الزمان كثيرًا.

المحتويات



أرى .. أسمع .. وأتكلم

فى البدء كانت الكلمة، والكلمة مسئولية.. وكما يقول عبد الرحمن الشرقاوى، الكاتب الكبير" بعض الكلمات نور، وبعض الكلمات قبور" .. والكلمة تعنى البحث والإيضاح، ومن يكتب إنما يفعل بحثًا عن حقيقة ما..عن اكتشاف ما، لذلك فلا يجب إذا أن نؤمن بأن مانقوله كله صادقٌ ؛ لأننا لا يمكن - حسب رأى جبران خليل جبران - أن نقول " وجدت الحقيقة "، بل نقول " وجدت بعض الحقيقة " ، والكتابة متعة ومشاركة وفتْحٌ لأبواب مُغْلقةٍ ، بدلاً من الاكتفاء بالعيش داخل النفس ، مسجونين فيها ، لانجد من يفهمنا أو يستمع إلينا ، فى زمن صَمّت فيه الآذان .. ولم تعد فيه للجمال الخارجى مساحات واسعة..وأصبح الخلُّ الوفى، كالعنْقاء، من عجائب الدنيا ومستحيلاتها...

فى زمن صعب كهذا .. لابد أن نبحث عن السعادة والراحة فى داخلنا...

روﻻ خرسا

الرسم و التصميم : محمد حجي




Exclusive
For
www.ibtesama.com